الإصلاح العسكري في مغرب القرن التاسع عشر(1830-1912)

المصطفى الشابي[1]

تمهيد

في الوقت الذي كانت أقطار أوربا الغربية تجني تمار الثورتين الفلاحية والصناعية اللتين شهدهما القرن الثامن عشر، فضلا عما كان قد تحقق لمجتمعاتها في مجال الفكر والتنظيم الإداري والعسكري، وتعمل جاهدة على تحقيق المزيد من الإنجازات في كافة الميادين، كان المغرب يرقد في سبات عميق، لا علم له و لا اهتمام بما كان يجري ويحدث خارج حدوده.

والحق أنه لولا الهزة العنيفة التي اهتزت لها أركان الكيان المغربي سنة 1844 في وقعة إيسلي، لما استيقظ من غفلته، حيث انكشف واقع الجيش المغربي المزري، وهو الواقع الذي أكدته حرب تطوان سنة 1859، بعد انهزامه مرة ثانية أمام الجيش الإسباني. ترى، ما عسى أن يكون في وسع السلاطين أن يفعلوا، في حقبة زمنية حاسمة، أخذ المد الاستعماري يتقوى وينتشر، ليصل أواخر القرن التاسع عشر إلى عنفوان قوته وغطرسته؟ ففي هذا الإطار تندرج محاولات "الإصلاح" العسكري، حيث اتخذت مجموعة من الترتيبات العملية والتنظيمية لتدارك العيوب التي كانت تعتري قطاع الجيش. وهذا ما سنعمل على معالجته في دراستنا هذه.

أولا : الجيش جهاز من أجهزة الدولة.

1 - ملامح الدولة المغربية في القرن التاسع عشر

مما لا خلاف فيه أن المغرب كان يمثل كيانا سياسيا واجتماعيا وثقافيا واضح المعالم. وكان السلطان يعتبر أعلى سلطة في البلاد، يستمد مشروعية حكمه من الأصول والأسس الشرعية التي تنبني عليها كل نظم الحكم في البلاد الإسلامية، فضلا عن تقاليد وأعراف وقواعد مرعية وعريقة في القدم، كانت تحد من سلطة العاهل المغربي وتدعوه، من حين لآخر، لاستشارة العلماء والفقهاء، أو أعضاء الجماعات القبلية، أو فئات اجتماعية أخرى من ذوي الاختصاص، كالتجار، باشوات وعمال المدن، وقواد القبائل، حول قضايا معينة، أو نوازل طارئة. وهذا ما حدث فعلا، بعد نكسة تطوان، حين استشار السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن (1276-1290/1859-1873) ثلاثة من العلماء في شأن إحداث ضريبة

*. مؤرخ

استثنائية تدعى المَكْس، اعتزم العاهل الاستعانة بمدخولها على تحسين أوضاع الجيش المتردية، وتحديث مناهج وطرق تنظيمه[1].

كما أن العاهل المغربي لم يكن يستمد حكمه وشرعيته من تفويض إلهي، أو كان حكمه استبداديا مطلقا، أو طبقيا تسلطيا. وما نظام البيعة إلا دليل واضح على ما ذهبنا إليه من القول في هذا الصدد، حيث هو بمثابة التزام صريح وتعاقد متين بين السلطان الجديد ورعاياه، وهي أمور كانت تحدد بموجبها واجبات وحقوق كلا الطرفين[2].

إضافة إلى هذه المقومات الفكرية والرمزية، لا بد من الإشارة إلى بعض الخصائص والممارسات التي تعتبر من صميم اختصاصات الدولة المستقلة، وكانت علامة وبرهانا على وجودها، كالرقعة الترابية التي كان يشملها نفوذ وسلطة السلطان، مادية كانت أم روحية، وحريته الكاملة في سك العملة متى شاء، وتوفره على قوة عسكرية، وهي على كل حال قوة مهما كانت عيوبها ونقائصها، ظلت تمثل أداة في يد المخزن لتنفيذ أوامره، والإسهام في نشر الأمن واستتبابه، والدفاع عن حوزة البلاد، إن دعت الضرورة إلى ذلك، كما كانت تساعد على جباية الضرائب وغيرها من الفروض والواجبات التي هي من مستحقات المخزن[3].

وكان يساعد السلطان في تسيير شؤون البلاد وزراء وكتاب، وأعوان، وأمناء، وعمال، وقواد ... وكان هؤلاء وغيرهم من الأعوان، يكونون ما اصطلح على تسميته ب "الجهاز المخزني" في القرن التاسع عشر. هذا، وقد يبدو هذا الجهاز، ولأول وهلة وبالخصوص للملاحظين الأجانب، أنه كان عتيقا وبسيطا، لا يرقى إلى مستوى الأنظمة السياسية السائدة آنذاك في أوربا. ولكن، في الحقيقة، لم يكن الأمر من البساطة إلى هذا الحد، ولا كان يدعو البتة إلى الاستغراب والتعجب، ما دام أنه كون بالفعل وسيلة ملائمة وأداة فعالة في تسيير شؤون البلاد، وضمان استمرارية مؤسساتها، بعيدا عن فضولية وتدخلات الأجانب، على الأقل خلال الثلث الأول من القرن التاسع عشر.

---

1. المنوني، محمد بن عبد الهادي، مظاهر يقظة المغرب الحديث دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1985، ج. 1، ص. 80.
2. للمزيد من المعلومات حول مؤسسة المخزن وطبيعة الحكم في مغرب القرن التاسع عشر، يرجع إلى :
الناصري أحمد بن خالد السلاوي : كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى دار الكتاب، الدار البيضاء، 9 أجزاء، 1954-1956.
غريط، محمد: كتاب فواصل الجمان في أنباء وزراء وكتاب الزمان. تحقيق عبد القادر سعود وعبد المجيد خيَّالي دار الأمان، الرباط، 2010.
الشابي، مصطفى: النخبة المخزنية في مغرب القرن التاسع عشر مطبعة فضالة، المحمدية، 1995.
Jules Erckman, Le Maroc Moderne, Paris, Challamell, 1885.
René Mauduit, « Le Makhzen Marocain », *Renseignements coloniaux*, B.C.A.F, 1903, p. 293-304.
Eugène Aubin, *Le Maroc d'Aujourd'hui*, Paris, 1904, p. 172-257.
Henri Gaillard, « L'Administration Marocaine : le Makhzen », Bull. Soc. Géogr d'Alger, 1909, p. 438-470.
Michaux-Bellaire Edouard, « L'Organisme Marocain », in Revue du Monde Musulman, Vol.9, p. 1-43.
Mohamed Lahbabi, *Le Gouvernement Marocain à l'Aube du XXe siècle*, Rabat, Editions Nord-Africaines, 1958.
3. Adballah Laroui, *Les Origines Sociales et Culturelles du Nationalisme Marocain (1830-1912)*, Paris, François Maspéro, 1977, p. 57 et s.

صحيح أن عيوبا ونقائص عديدة كانت تعتري هذا الجهاز، كاستخدام مركزية مفرطة في أزمَّة الأمور، سواء تعلق الأمر بأهم القضايا وأخطرها، أم بمسائل عادية ومألوفة، كانعدام التدقيق في الاختصاصات، وكظاهرة ترحال وتنقل الإدارة المركزية باستمرار. وفيما يخص هذه النقطة الأخيرة، فلا شك أن خصوصيات البلاد الاجتماعية، وكذا الوسائل المادية والتقنية المتواضعة التي كانت بيد المخزن وقتئذ، هي التي تفسر الترحال المستمر للسلطان وخدامه، في مختلف أرجاء البلاد. وإذا كانت هذه السمات والملاحظات تنطبق بحق على الجهاز المخزني في النصف الأول من القرن التاسع عشر، فإن الأمر قد أخذ في التغيير تدريجيا في النصف الثاني من هذا القرن، حيث انفتحت البلاد وأسواقها أكثر في وجه الأوربيين وسلعهم، نتيجة ضغوط شتى، عسكرية، وسياسية، واقتصادية. آنذاك، عرف جهاز المخزن تحولات وتغيرات، وتأسست دواليب ومؤسسات حكومية وإدارية جديدة، لم تكن معروفة من قبل، ومن بينها وزارة الحربية التي عُهِدَ إلى وزير خاص بالإشراف على شؤونها، دُعِيَ "العَلاَّفُ الكَبِيرُ". ونظرا لحساسية المنصب وخطورته، فإن السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن (1859-1873) اختار شخصية من حاشيته المقربة، وهو الفقيه عبد الله بن أحماد البخاري، أخو الحاجب ورجل المخزن القوي موسى بن أحماد، لتولي تسيير هذا القطاع الهام. ولكن، يا ترى، مِمَّاذا كان يتكون هذا الجيش، وكيف كان يتم استقطاب، وتكوين، وتأطير عناصره؟ هذا ما سنحاول تناوله في الفقرة الآتية :

2 - تشكيلة الجيش وتركيبته

من المعلوم أن مصنفات الأَخْبَارِيِّينَ المغاربة لا تقدم لنا معلومات وتفاصيل واضحة ودقيقة، عند تَعَرُّضِ أصحابها إلى قضية أو ظاهرة، في سياق حديثهم عن الأحداث التي تستأثر باهتمامهم، ويرونها قمينة بالذكر والتسجيل. ولولا الكتابات التي خصصها الأُورُبِّيُّون للمغرب وسكانه، ومن بينها مذكرات وتقارير أعضاء البعثة العسكرية الفرنسية الذين استقروا بالبلاد في خريف سنة 1877، لتعذر علينا، في العديد من الحالات، معالجة موضوعات وقضايا معينة من تاريخنا الوطني، وفي مقدمتها الجيش في القرن التاسع عشر[4].

وهذا يعني أن معرفتنا بالجيش وشؤونه، وبالجوانب التي كانت لا تستأثر باهتمام الأخباريين المغاربة خاصة، أو لا ترد عنها معطيات وبيانات في الوثائق المخزنية، أي الجوانب المادية،

4. أنظر مثلا ما ورد في التقرير الآتي حول الجيش المغربي، ذكرناه هنا على سبيل الاستئناس لا الحصر.
A.G.V, 3h1, Rapport du capitaine Féraud, en date du 25 Mai 1877, p.18 et s.
حرر فيرو تقريره هذا، بمناسبة توجه السفير الفرنسي الجديد بالمغرب، دى فرنويي (De Vernouillet)، من طنجة إلى فاس، في هر أبريل من سنة 1877، بعد أن وافق السلطان مولاي الحسن على استقباله. وكان فيرو، وقتئذ، ترجمانا لهذه السفارة. وقد انضم إلى الوفد كذلك كل من الكمندار سترول (Strohl)، والقبطان ماروا (Marois) هذا، وقد عين، فيما بعد، سفيرا لفرنسا بالمغرب ما بين 1885 و1888.

والتقنية والتنظيمية، أحسن وأدق بكثير خلال العقود الثلاثة الأخيرة في الفترة الزمنية موضوع هذه الدراسة، من معرفتنا بما كانت عليه مؤسسة الجيش في الحقب السابقة. على أنه لا ينبغي التسليم والاطمئنان لكل ما تتضمنه هذه الكتابات الأجنبية عن الجيش أو غيره من أجهزة الدولة المغربية الأخرى قبل سنة 1912، بسبب مرامي وحوافز وأغراض أصحابها السياسية والثقافية والاقتصادية والتي كان يغلب عليها طابع التعصب الديني والإثني، وسوء فهم وتأويل مظاهر الواقع المغربي وقتئذ. ومهما يكن الأمر، فإن أهم الفرق والتنظيمات التي كان يتكون منها الجيش المغربي آنذاك، كانت تتضمن أساسا ما يلي:

أ - قبائل الكَيش

ب - حراك القبائل

ج - جيش أو عسكر "النظام"

أ - قبائل الكيش :

لعل اللجوء إلى قبائل معينة وإعفاءها من أداء الضرائب غير الشرعية، وَمَا شابهها من الكلف والفروض والخدمات، و"إقطاع" عناصرها أراضي فلاحية يستغلونها لحسابهم، مقابل الخدمة في الجيش مدى الحياة، لظاهرة متميزة وعريقة في تاريخ المغرب، ترجع على الأقل إلى عهد الخليفة الموحدي يعقوب المنصور (580-599 هـ/1184-1199 م)، حين أقدم على ترحيل قبائل بني هلال العربية من إفريقية، بسبب شغبها وعدم انقيادها لأوامر الحكام، وعبثها بممتلكات الغير، حيث أسكنهم في منطقة الغرب، متخذا منهم جندا في خدمة الدولة[5].

بيد أن هذه المجموعات القبلية لم تندمج نهائيا في مؤسسة الجيش، ولم تحتل مكانة مرموقة في دواليبها إلا مع السعديين، بالرغم من كون هؤلاء لم يعتمدوا عليها وحدها، حيث عملوا على تأسيس جيش نظامي تطعم صفوفه بعناصر محلية وأجنبية[6].

ومع تولي الدولة العلوية مقاليد الحكم بالبلاد، ازدادت أهمية هذه المجموعات القبلية في قطاع الجيش وفي المجتمع، واستكملت عدد من فرقه تشكيلتها التقليد النهائية، وذلك على إثر إدماج

5. Edouard Michaux-Bellaire - Georges Salmon, *Les Tribus Arabes de la Vallée du Lekkous*, Arch.Mar, Vol. 4, 1905, p. 127
Edouard Michaux-Bellaire, *Le Gharb*, Arch.Mar, Vol. 20, 1913, p. 23 et suiv.
وحول قبائل الكيش بصفة عامة. علاوة على كتابات الأخباريين المغاربة في الموضوع، يرجع إلى :
Delmas (Cap. Fort), Etudes Sur les Guiches Marocains, Paris - B.N.R.M, 1948, n° : 1409.
Jean LeCoz, « Les Tribus Guichs au Maroc Essai de Géographie agraire », *La revue de géographie du Maroc*, n° 7, 1965, p. 1-52.
Frédéric-Guillaume Weisgerber, *Au Maroc Seuil du Moderne*, Rabat, La Porte, 1947, p.73 et S.
6. Delmas (Cap.Fort), *Op.cit*, p.4.

قبائـل اشـراكَة وأولاد جـامع، والأودايـة، والشـراردة فـي صـفوفها، علـى امتـداد قـرن ونصـف تقريبـا مـن الـزمن، بـدءا مـن عهـد مـولاي الرشـيد بـن الشـريف (1075-1083/1664-1672)، وانتهـاء بعهـد مولاي عبد الرحمن بن هشام (1238-1276 هـ / 1822-1859 م)[7].

ونقرأ في سجل محفوظ بالخزانة الحسنية، في هذا الصدد، ما يلي :

> "الـدول المغربيـة السـعيدة كانـت فـي القـديم تسـمى القـائمين بشـؤونهم (هكـذا) حضـرا وسـفرا بـالجنود العسـكرية، ذات القـوة العصـبية إلـى أن ظهـرت الدولـة الحاليـة (العلويـة، "الحسـنية"). هـذا وأسسـوا ورتبـوا جنـودهم، وقسـموها إلـى أقسـام سـموها بـالجيوش، وصـاروا يسـمون هـذا الجـيش السـعيد المؤسـس علـى طهـارة وتقـوى بـالمخزن، يشـتمل علـى بعـض قبائـل فـاس ونواحيهـا، ومكنـاس ونواحيهـا، وتافيلالـت... ثـم قسـم هـذا الجـيش إلـى قسـام 6 (هكـذا)، ملفقـه ممـا ذكـر أعـلاه مـن النـواحي المسـمات أسـفله، وهـم الجـيش الأعظـم قـوة وعـددا عبيـد البخـاري، نضـيفهم (هكـذا) جـيش شـراردة نـواحي مكنـاس، ثـم جـيش قبيلـة الودايـة وهـم أكثـر عـددا وشـهامة، ثـم نضـيفهم (هكـذا) جـيش شـراكَة وأولاد جـامع، وأحميـان نـواحي فـاس العليـا الجديـد وسـكانه، ثـم جـيش الودايـة ءال سـوس أولاد جرَّار سكان رباط الفتح وما أضيف إليهم من نواحي مراكش..."[8].

وإلـى جانـب هـذه الفـرق الرئيسـية، دأب السـلاطين، مـن حـين لآخـر، علـى تجنيـد عناصـر مـن قبائـل أخـرى، وتوطينهـا فـي أمـاكن اسـتراتيجية وحساسـة، جـاعلين منهـا نوعـا مـن "الكـيش الثـانوي". وكانـت هـذه العناصـر تنتمـي، علـى الخصـوص، إلـى قبائـل كَسـيمة ومسـكَينة والمنابهـة (بمنطقـة سـوس)، والمنابهـة، وأولاد مطـاع وحربيـل (بحـوز مـراكش)، وكَطايـة وسَـمْكَت وبنـي معـدان وبنـي مـلال (كَـيش أيـت الرُّبـع بتادلـة)، والجـيش الريفـي المكـون مـن عناصـر مختلفـة (بفحـص طنجـة والعـرائش)، والخلـط والطليـق (بمنطقـة الهـبط)، وأيـتخَبَّاش (بتافيلالـت)، ومجـاط (بناحيـة مكنـاس) ، وأيـت إسـحاق وأيـت عيـاش (بـالأطلس المتوسـط) وأيـت يمـور (تخـوم الأطلـس المتوسـط والكبيـر)، ثـم الترحيـل إلـى تادلـة، ومنهـا إلـى منحـدر جبـل سـلفات وسـهل وادي سـبو بـالغرب، وأخيـرا الاسـتقرار بـأحواز مدينـة مـراكش، والرحامنـة وعبـدة...[9] ويقـول محمـد العربـي المشـرفي،

---

7. ابن زيدان، عبد الرحمن: العز والصولة في نظم الدولة .تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط،1961، ن ج 2، ص: 189 وما بعدها.
8. الخزانة الحسنية، كناش 739، ص.71 وما بعدها.
9. استقينا هذه المعطيات والمعلومات، على الخصوص، من المصادر الآتية :
الخزانة الحسنية، محفظة رحمانية، رسالتا السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام إلى القائد بوسلهام بن علي أزطوط، الأولى بتاريخ غرة جمادى الثانية 1258، الموافق للأسبوع الأول من يوليو 1842، ورقمها 7:33 / ك 5، والثانية بتاريخ منتصف ربيع الثاني 1259، الموافق لأواسط مايو 1843، تحت رقم 36 : 6 / ك 5، في شأن الاعتناء بصبيان الجيش الريفي.
المشرفي، محمد العربي بن عبد القادر المعسكري الفاسي (ت1313 / 1895):
"الحسام المشرفي لقطع لسان الساب العجرفي، الناطق بخرافات الجعسوس سيء الظن أكنسوس"، مخ. خ. س،م.و.م. ر، رقم 2276، ص. 293 (في شأن الجيش الريفي كذلك).
الخزانة الحسنية ، محفظة حسنية ، سنة 1293، رسالة السلطان إلى كافة أفراد قبيلة أ يت عياش، بتاريخ 29 ذي الحجة 1293 / 15 يناير 1877.
مديرية الوثائق الملكية بالرباط ، محفظة مراكش، ملف رقم 3، رسالة السلطان إلى صِنْوه وخليفته بمدينة مراكش مولاي عثمان، بتاريخ 8 جمادى الثانية 1291 / 23 يوليو 1874، في شأن غُرْمِفرسين ضاعا في إيَّالة القائد عبد الحميد بن الفاطمي الرحماني، حيث كان جواب هذا الأخير كالآتي: "... حين كلفته بغرمها من أن القاعدة أن الرحامنة يعاملون معاملة الجيش فلا يطلبون بغرم ذلك، وصار بالبال...".
الخزانة الحسنية ، كناش 181 ص 16، رسالة السلطان إلى أخيه وخليفته بناحية تافيلالت مولاي الرشيد بتاريخ 5 ي الحجة 1308 / 12 يوليو 1891 حث جاء في ملخصها ما يلي:

فـي سـياق الحـديث عـن مؤسسـات الدولـة المغربيـة فـي عهـد السـلطان سـيدي محمـد بـن عبـد الرحمن، ما يلي:

> "فجيوشـه الملازمـون لخدمتـه حضـرا وسـفرا خمسـة قبائـل بـل سـتة، بخـاري، وشـركَي وجـامعي، وشـرَّادي، وأُودِيّ، وأهـل سـوس المنشـية، وجيـوش الثغـور الريفيـة وكلهـم أهـل خيـل، وعسـاكره الرجليـة لـيس لهـم قبيلـة مخصوصـة، بـل هـم مـن سـائر القبائل..."[10]

ب - حراك القبائل :

مـن المعلـوم أن المخـزن كـان يسـتعين بأبنـاء القبائـل، عـلاوة علـى عناصـر تنظيمـي عبيـد البخـاري وقبائـل الكَـيش فـي حملاتـه العسـكرية، كلمـا دعـت الضـرورة إلـى تطويـع قبائـل عاصـية، أو تأديـب متمـردين خلعـوا سـلطة قـوادهم وشـيوخهم، أو إظهـار هيبـة وعظمـة المخـزن. ولـن نتعـرض هنـا إلـى ظـاهرة الحركـة وضـوابطها، وإنمـا سـنعمل علـى معالجـة مسـألة حـراك القبائـل، علـى ضـوء مـا تسمـح وثائقنـا ومصادرنـا بِجَنْبِه مـن المعطيـات

Comment [I1]:

والمعلومـات. ثـم إن هـذه الظـاهرة ليسـت فـي حـد ذاتهـا بدعـة جديـدة، أو ضـربا مـن ضـروب عسـف المخـزن فـي القـرن التاسـع عشـر، بقـدر مـا نجـد لهـا آثـارا فـي العهـود السـالفة، أي عنـد جـل الـدول التـي تعاقبـت علـى الحكـم بـالمغرب، حتـى وإن لـم تكـن تلجـأ باسـتمرار وبكيفيـة منتظمـة إلـى رجـال القبائـل كمـا صـار عليـه الأمـر فـي القـرن التاسـع عشـر علـى الخصـوص، فإنهـا كانـت تعـول علـى بعـض القبائـل المقربـة إليهـا، أو المتحالفـة معهـا، فـي تسـيير دفـة الحكـم ومراقبـة الأوضـاع فـي البلاد.

ومهمـا يكـن مـن أمـر، فهـذا السـلطان المـولى عبـد الله بـن إسـماعيل (1142-1171هـ/ 1729-1757م) قـد اعتمـد، فـي المقـام الأول وطيلـة عهـده المضـطرب، علـى مقـاتلي القبائـل أكثـر مـن اعتماده على عبيد البخاري أو فرق الكَيش الأخرى[11].

وقـد اقتـدى بـه فـي هـذه الممارسـة مـن جـاء بعـده مـن السـلاطين، بـل عمـل بعضـهم علـى تطـوير الحركـة وضـبط صـيغها. بيـد أنـه حتـى أواخـر عهـد السـلطان سـيدي محمـد بـن عبـد الـرحمن، لـم يكـن المخـزن بعـد قـد وضـع الأسـس والقواعـد التـي كـان يـتم علـى ضـوئها مطالبـة القبائـل بتسـليم عـدد معـين مـن الخيَّالـة أو الرجالـة، إذ لـم يَـتِمَّ ذلـك إلا ابتـداء مـن عهـد السـلطان مـولاي الحسـن (1290-

---

"... وأنهم (أي قبيلة أيتخَبَّاش) عند الأمر والنهي في جميع ما يأمرهم به سيدنا، ولا خروج لهم عن نظره، لأن سيدي محمد بن عبد الله كان جعلهم مخازنية (أي كيشا) لما ظهر فيهم من المصلحة..."

10. المشرفي، محمد العربي، الحسام المشرفي ... ، مخطوط مديرية الوثائق الملكية بالرباط، رقم 2276، ص: 275.

11. الناصري أحمد بن خالد السلاوي، كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، ج. 7، ص. 160.

1311هـ / 1873-1894م). وبما أن المجال لا يتسع هنا للحديث عن الترتيبات والتدابير والمقاييس التي كان يتم على ضوئها فرض عدد معين من الحراك على القبائل، عند مطالبتها باستنفارهم، مع توفير زادهم ولوازم الحركة من زرع، ودواب، وإدام، وعلف، و"قروش"، و"ظهائر"، وخيام...، فسوف نكتفي بالإشارة إلى أن المخزن قد ظل يُعَوِّلُ على قبائل الكَيش هذه في كل وقت وحين، في تدبير شؤون البلاد، في المجالين المدني والعسكري، مانحا إياها عددا من الامتيازات، مما بَوَّأَهَا مكانة متميزة، ليس في قطاع الجيش فحسب، بل في الجهاز المخزني كذلك، ومن تمة تشبث عناصرها، قُوادا وجندا، بمكتسباتهم، ومعارضتهم كل تغيير وتحول في هياكل وبُنَى الجيش، وطرق وأساليب تكوين وتدريب رجاله، مساهمين بذلك في إفشال كل الجهود والمحاولات الهادفة إلى تطوير المؤسسة العسكرية، وتحسين أوضاعها المتردية.

ج - جيش أو عسكر "النظام" :

أشرنا، في الفقرة السابقة، إلى أن لجوء المخزن إلى خدمات "حُراك القبائل"، يعود، على الأقل، إلى أواخر العقد الرابع من القرن الثامن عشر. ومعلوم كذلك أن أغلبية هؤلاء كانت تتكون من "الخيالة"، أي الفرسان، وهذا يعني أن مفهوم وتصور المسؤولين العسكريين بالمغرب، وفي مقدمتهم السلطان طبعا، للعملية الحربية برُمَّتها، لم يتغير قط عما كانا عليه أيام العرب ومن شابههم من الأمم والشعوب، بمعنى أن طريقة المغاربة الحربية تعتمد على تاكتيك الكرِّ والفرِّ، وبالتالي ترجيح كفة سلاح الفروسية على باقي التنظيمات العسكرية الأخرى. يقول ابن خلدون، في هذا الصدد، ما يلي :

> "... وصفة الحروب الواقعة بين الخليقة منذ أول وجودهم على نوعين : نوع بالزحف صفوفا، ونوع بالكرِّ والفرِّ. أما الذي بالزحف فهو قتال العجم كلهم على تعاقب أجيالهم. وأما الذي بالكرِّ والفرِّ فهو قتال العرب والبربر من أهل المغرب ..."[12].

ومع تقدم القرن التاسع عشر واحتكاك عناصر الجيش المغربي بمحاربي الجيوش الأوربية الحديثة، وخصوصا بعد وقعة إيسلي سنة 1844 من جهة، ووقائع حرب تطوان من جهة ثانية، تبيَّن للجميع أهمية ودور سِلاَحَي المدفعية والمُشاة في حسم أطوار ووقائع الحرب الحديثة. ولهذا، اتجهت عناية المخزن، أول الأمر، إلى تأسيس نواة جيش نظامي، يكون معظم

12. ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (تُوُفِّي 1406م) ،"المقدمة..."، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1967، ص. 480.

عناصره من الرُّماة، في عهد كل من السلطانين المولاي عبد الرحمن بن هشام وابنه وخلفه سيدي محمد[13].

لقد كان لوقعة إيسلي أبلغ الأثر في نفوس المغاربة قاطبة. فما كادت المعركة تنتهي، حتى تبين للجميع واقع الجيش المغربي المتدهور. ومما لا شك فيه كذلك، أن الخليفة السلطاني وقتئذ سيدي محمد بن عبد الرحمن الحاضر في ميدان القتال، بصفته القائد الأعلى للمحاربين المغاربة، قد لمس عن قرب درجة الفوضى العارمة السائدة في المعسكر المغربي، وأمكنه أن يشاهد ويتابع من موقعه، ما كانت تحدثه من رُعب وهلع ودمار قنابل الجيش الفرنسي الغازي، في صفوف المحاربين المغاربة، وهم يتساقطون كأوراق الشجر الميتة، تحت وابل الأسلحة النارية الفتاكة. ثم ما كادت كذلك الساعات الأولى من بداية المواجهة تنقضي، حتى أخذت الجموع تنفض من حول الخليفة السلطاني، هاربة من موت محقق. على أن هذا لا يعني البتة أن المقاتلين المغاربة كان قد استولى عليهم الخوف، ولم يصمدوا أمام زحف القوات الفرنسية، بل إنهم أبانوا عن شجاعة وإقدام كبيرين في خوض المعارك ومهاجمة العدو، وإنما قصدنا الإشارة إلى ما كان يعتري القوات المغربية، مخزنيةً كانت أو من حراك القبائل ورماتها أو متطوعة، من نقائص وعيوب وخلل في التنظيم والتدبير، وطريقة القتال أثناء الاشتباكات والمعارك. وهذا يعني أنه لا قُدرة لجيش على شاكلة الجيش المغربي وقتئذ، على منازلة جيش أوربي، كان يخضع تنظيمه وتكوين رجاله وتسليحهم، وتدبير شؤونهم المعنوية والمادية، إلى أساليب وفنون الحرب الحديثة، وهو الأمر الذي كان يفتقده المغرب، ويجهله قادته ومسيروه.

هذا هو السياق الذي اندرجت فيه فكرة تأسيس نواة عسكرية جديدة إلى جانب التنظيمات التقليدية والتي دُعيت بجيش "النظام" أو عسكر "النظام"، والمصطلح مقتبس من لفظة التنظيمات التي استعملت من قبل الأتراك العثمانيين للدلالة على مجموعة من الترتيبات والتدابير المتخذة في تركيا أولا، ثم في مصر فيما بعد، في مطلع القرن التاسع عشر، لإصلاح بعض مرافق الدولة والمجتمع، وبالخصوص قطاع الجيش والإدارة. وكان طبيعيا أن يتوجه المخزن إلى المسؤولين في هذين البلدين الإسلاميين، ويطلب منهم المساعدة على إنجاح هذه الخطوة، بسبب استمرارية ومتانة الصلات الدينية والثقافية بينهما وبين المغرب، إذ من المستحيل في الظروف التي تلت معركة إيسلي سنة 1844، وانهزام المحاربين المغاربة أمام

13. الكردودي، محمد بن عبد القادر الكلالي(تُوُفِّي 1851م)، كشف الغمة ببيان أن حرب النظام حق على هذه الأمة المطبعة الحجرية، فاس، دون تاريخ، ص. 6 وما بعدها.

الجيش الفرنسي، الاعتماد على عون الفرنسيين، والاطمئنان إليهم، وبالتالي الاستفادة من خبرتهم وتفوقهم في الميدان العسكري[14].

ويذكر التاجر ورجل الأعمال النشيط مصطفى الدكالي الرباطي الشهير في رسالته إلى الوزير محمد بن إدريس العمراوي، أن خبر عزم السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام على إنشاء نواة عسكرية جديدة قد تَسَرَّبَ إلى الخارج، وبالخصوص إلى المحافل والعواصم الأوربية، حيث كتب يقول :

"... فقد صح هنا عند النصرى بأن مولانا جعل جيشا من عسكر النظام وعنده الآن بزمامه ما يزيد على الألفين منه، ولا زال في الزيادة...".

ومن علامات نباهة التاجر المغربي، وتحمسه للمشروع، اقتراحه على مُرَاسِلِهِ اتخاذ مجموعة من التدابير والإجراءات العملية والتنظيمية القمينة بإنجاحه[15].

هذا، وقد اقتصرت هذه التجربة، في مرحلة أولى، على مدن الشمال فقط، تطوان، وطنجة، والعرائش، كما نتبين ذلك من المراسلات المخزنية حول هذا الموضوع، والمتبادلة بين السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام من جهة، وباشا تطوان عبد القادر بن محمد أشعاش وزميله باشا العرائش وطنجة بوسلهام بن علي أزطوط من جهة ثانية[16].

على أن هذا لا يعني أن مساعي المولى عبد الرحمن بن هشام ومحاولاته قد أفلحت وأتت أكلها، وتهافت الناس جماعات وفرادى على الانضمام إلى التنظيم العسكري الجديد، وانضبطوا فيه، وثبتوا بعض الوقت في الخدمة، بل العكس هو الذي حدث، في كثير من

---

14. حول هذه النقطة ومسألة جيش النظام بصفة عامة، يُرجع إلى :
- ابن عزوز، عبد الله القرشي: "رسالة العبد الضعيف إلى السلطان الشريف" مخ.م.و.م.م، رقم د 1623.
- اللِّجائي، الغالي العمراني (ت. 1289/ 1871-1872) "مقمع الكفرة بالسِّنان والحُسام في بيان إيجاب الاستعداد وحرب النظام" مخ. خ. س، رقم 1030.
- الخوجة، محمد بن أحمد التونسي (ت. 1292 / 1876): رسالة في تنظيم الجيش مخ. م. و. م. م، رقم 2733.
- برادة ثريا، *الجيش المغربي وتطوره في القرن التاسع عشر - مساهمة في دراسة الإصلاحات العسكرية*، منشورات ك. أ. ر، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1997.
- A.E.P, CP, Vol. 18, Janvier-Juin 1874, P.40 et S.
- A.E.P, Mémoires et Documents, Vol. 30, Maroc, 1860, P. 144 et S.
- A.E.P, Mémoires et Documents, n° sur le Maroc par Auguste Beaumier, Vol. 10, 1882-1884, p. 293.
- A.G.V, 3h12, Mémoire de l'Officier Allemand Quédenfeldt (M): Forces Défensives du Maroc.
- Miège Jean-Louis, Le Maroc et l'Europe (1830-1894), Paris, P.U.F, 1961-1963, Tome 3, p. 224.
- Simou Bahija, *L'Islah au Maroc, les réformes militaires de 1844 à 1912*, Casablana, Publ. Fac. Let. Rt, Imprimerie Najah Al Jadida, 1995.
- Rollman Wilfrid-John, *The « New Order » in a Pre-Colonnial society ? Military Reform in Morocco 1844-1900*, Ph.d, University Of Michigan, 1983.

15. مديرية الوثائق الملكية بالرباط، سجل رقم 18338، وثيقة بتاريخ فاتح ربيع الثاني 1261/ 9 أبريل 1845.
كتب الدكالي خطابه هذا بينما كان في طريقه إلى العاصمة الأنجليزيةلوندرة. ومما يثير الانتباه فيما جاء في رسالته إلى الوزير بن إدريس، علمه واطلاعه على تفاصيل دقيقة حول الجباية، أي الضرائب، في كل من "تونس، وطرابلس، وقسطنطينة العظمى، ومصر...".

16. ورد في رسالة السلطان إلى أشعاش ما يلي :
".... وتشدوا عضده (عبد السلام أقلعي، قائد عسكر "النظام" بمدن الشمال) في ذلك، لأنكم تعرفون ما تفعلون في ذلك (هُوَوأزطوط)، بخلاف غيركم، فليس فيه من يعتمد عليه في ذلك...".
واضح من كلام العاهل أن كلا الرجلين، أشعاشوأزطوط، كانا يحظيان معا بثقته، ويطبقان أوامره بعناية ودراية كبيرتين، الأمر الذي أوجب التنويه بهما، والاعتماد عليهما دون غيرهما في شأن التنظيم العسكري الجديد، أنظر:
- الخزانة الحسنية ، مخ. م. ع، وثيقة رقم 14/12/ ك 5 بتاريخ 13 ذو القعدة 1264/ 11 أكتوبر 1848.

الحـالات، إذ لـم تتحسـن أحوالـه قـط، بـالرغم مـن مجهـودات ومسـاعي المخـزن بهـدف إنجـاح التجربـة، وظـل هـدف انتظـام وانضـباط عناصـره أمـرا بعيـد المنـال وأمـرا عسـيرا، لـيس فحسـب أيـام السـلطان مـولاي عبـد الـرحمن بـن هشـام، بـل أيضـا أيـام ابنـه وخلفـه سـيدي محمـد الـذي كـان يحـذوه عـزم قـوي ورغبـة أكيـدة فـي اتخـاذ مجموعـة مـن التـدابير والترتيبـات كـان الهـدف منهـا تحـديث عـدد مـن قطاعـات الدولـة، كـالإدارة والماليـة والجـيش، وتأسـيس وحـدات صـناعية فلاحيـة وعسـكرية، علمـا بأنـه فـي عهـد هـذا العاهـل تـم تعيـين وزيـر خـاص بالشـؤون العسـكرية، فـي شـخص الفقيـه عبـد الله بـن أحمـاد، أخـي الحاجـب موسـى بـن أحمـاد، وتبنـى السـلطان مـولاي الحسـن (1873-1894) نفـس الخُطَّـة التحديثيـة، مـع اعتمـاد أسـاليب ووسـائل أكثـر نجاعـة وتنوعـا، ولكن لم يحالفها النجاح لأسباب مختلفة والتي سنتعرف عليها في فقرة موالية من دراستنا هذه.

3 - وظائفه ومنجزاته :

عـرف المغـرب، كمـا هـو معلـوم، تمـردات وانتفاضـات قبليـة وشـعبية هنـا وهنـاك، سـاهم فـي إيقـاد نيرانهـا وتـأجيج لهيبهـا أهـل البـوادي والحواضـر علـى السـواء، رغـم أن تلـك التـي انـدلعت فـي بعـض المـدن كفـاس ومـراكش مـثلا، لـم تكـتس قـط طـابع الخطـورة، وظلـت محـدودة فـي الزمـان والمكـان، علـى عكـس مـا تميـزت بـه تلكم التـي اهتـزت لهـا جهـات عريضـة مـن البادية المغربيـة، بـل الـبلاد برمتهـا، كمـا هـو شـأن انتفـاض قبيلـة الرحامنـة بحـوز مدينـة مـراكش، فـي بدايـة عهـد السـلطان مـولاي عبـد العزيـز بـن الحسـن (1894-1908)، وتمـرد المغـامر أحمـد الريسـوني فـي شمال المغرب، وفتنة الدَّعي الروكي بوحمارة في منطقة شمال شرق البلاد والريف.

وبمـا أن المجـال لا يتسـع للتعـرض إلـى الأسـباب، والخلفيـات، والملابسـات التـي كانـت تكتنـف انـدلاع هـذه التمـردات والانتفاضـات فـي الفتـرة الزمنيـة موضـوع دراسـتنا هـذه، فإننـا سنقتصـر فقـط علـى ذكـر المهـام والخـدمات التـي كـان المخـزن يكلـف عناصـر الجـيش القيـام بهـا. وسـواء تعلـق الأمـر بالـدفاع عـن حـوزة الـوطن، أو بإسـكات التمـردات والانتفاضـات، أو بقضـاء غـرض مـن أغـراض المخـزن فـي جهـة مـن جهـة الـبلاد والإسـهام فـي اسـتتباب الأمـن، فـإن هـذا كلـه كـان يـتم بواسـطة عناصـر الجـيش. وهـذا يعنـي أن دور أفـراد الكـيش والعسـكر لـم يكـن يقتصـر فقـط علـى الميـدان الحربـي وشـؤونه، أو علـى الإسـهام فـي اسـتتباب الأمـن فـي ربـوع الـبلاد، بـل كـان يشـمل كـذلك مهـام أخـرى كالتسـخير مـثلا والـذي كـان القصـد منـه إيفـاد قائـد عسـكري، علـى رأس تجريـدة مـن الجُنـد، أو شخصـية بـارزة مـن الجهـاز المخزنـي، لـدى قبيلـة مـن القبائـل والتـي يكـون قـد استعصـى إذعانهـا للأوامـر السـلطانية والقيـام بالوظـائف المخزنيـة، بهـدف إرغامهـا علـى التنفيـذ الفوري لما يطالبها المخزن بإنجازه أو أدائه، إما لحسابه، أو لفائدة غيره.

وبقدر ما كانت مسألة التسخير هذه تمثل عبئا ثقيلا على القبائل، بقدر ما كان أطر الجيش يتهافتون عليها، حيث كانوا لا يترددون في الكتابة إلى السلطان، أو إلى بعض أعوانه الكبار، كالحاجب أو قائد المشور، ملتمسين منهم استعمالهم فيما كانت الوثائق المخزنية تسميه "وجوه النفع"، أي التسخير لدى قواد القبائل. وهذا ما نلمسه مما ورد في رسالة خَلِيفَتَي قَائِدَي المَنْشية بمراكش الرجراجي الدُّوبلالي وولد بيروك التكني إلى السلطان، حيث ورد فيها ما يلي :

".... موجبه إعلام سيادة سيدي أن خدام سيدي كافة قواد أرَاحِي المنشية السعيدة وخلائفهم خرجوا للنفع عدا نحن..."[17].

وأما الأغراض والغايات التي كان المخزن يتوخى قضاءها بواسطة هؤلاء المبعوثين إلى جهات مختلفة من البلاد، فيمكن حصرها في النقط الآتية :

1) الوقوف في عين المكان على إجراء عملية خرص حبوب القبيلة، وباقي محاصيلها الزراعية الأخرى، كإنتاج أشجار الزيتون مثلا، أو عدِّ رؤوس ماشيتها أو دوابها.

2) استلام مبلغ الغرامة المالية التي كان يَفْرِضُها المخزن على قواد القبائل الذين كانوا يقومون بعملية خرص حبوب إيالتهم، قبل وصول مبعوث المخزن للإشراف عليها.

3) إرسال حُراك القبيلة أو عسكرها إلى الحضرة.

4) محاولة فض نزاع يكون قد نشب داخل نفس القبيلة، بين القائد والشيوخ والأمناء المُعَيَّنِينَ مثلا حول قضية من القضايا، أو بين القائد ومحكوميه، أو بين هذه القبيلة وإحدى جاراتها من القبائل، في مواضيع شتى بدءا من استغلال المجال الطبيعي المشترك مثلا، وانتهاء بتُهمة إيواء وتحريض المُناوئين لسلطة قائد القبيلة المجاورة.

5) تسليم خطاب سلطاني إلى قائد قبيلة أو عامل مدينة، في أمور ومواضيع جد متنوعة، كأمره مثلا بقضاء غرض من أغراض المخزن، أو غرم قيمة ما وقع من نهب وسطو على متاع الغير في إيالته، أو إنصاف متظلم مما ألحق به من أضرار.

6) مرافقة سفير أو مبعوث أجنبي أثناء توجهه إلى الحضرة السلطانية، أو الجهة المقصودة ...[18].

---

17. الخزانة الحسنية رقم 244، الوثيقة بتاريخ 2 ذي القعدة 1307/ 20 يونيو 1890. لفظة أراحي الواردة هنا، هي جمع ارحى التي تعني وحدة من الجُنْد قِوَام رجالها ما بين 500 و1000 نفر.
ونقرأ نفس الشيء في الرسالة التي وجهها القائد محمد بن الطاهر العبدي إلى السلطان، حيث كتب ما يلي :
"... وعليه، فالمطلوب من مولانا العالي بالله أن يجود علينا بالانتفاع على عادة قواد الأرحى..."
- الخزانة الحسنية ، محفظة ، حرف رقم 150، وثيقة بتاريخ 19 جمادى الثانية 1305/ 3 مارس 1888.
وكتب السلطان مولاي الحسن، حول نفس الموضوع، مخاطبا الباشا حَمُّ بن الجيلالي ما يلي : "... وأما قواد الأرحى (من عبيد البخاري)، فقد نبهنا على الإسهام لهم في وجوه النفع وعدم الغفلة عنهم...".
- الخزانة الحسنية ، وثائق زيدانية بالخزانة الحسنية ، مجلد 15، وثيقة رقم 288 بتاريخ 20 شوال 1310 / 7 مايو 1890.

وكان بعضهم يمدد فترة مقامه بتراب القبيلة ما وسعه ذلك بهدف الاستفادة، هو ومن معه، ممَّا كان مأمورا بتقديمه إليهم قائدها من غذاء، ومال، وعلف كل يوم، إلى درجة الاستمرار على هذه الحال عدة شهور، قد تصل، في بعض الأحيان، إلى سنة. وأحسن دليل على ذلك أن السلطان نفسه كان يرتابه الشك، من حين لآخر، في جدية وحزم مبعوثيه إلى جهات مختلفة من البلاد، ويستغرب من بقائهم هذه المدة كلها وبدون فائدة، فيعهد إلى أحد كبار الكَيش والعسكر، والذين كانوا يحظون بثقته، بتفقد أحوالهم والوقوف في عين المكان على واقع الأمور، كما يتضح لنا ذلك مما ورد في كتاب السلطان مولاي الحسن إلى أخيه وخليفته بفاس، الأمير مولاي إسماعيل، حيث نقرأ ما يلي :

"... فقد كنا كتبنا لك قبل، بأنا أصدرنا أمرنا الشريف للخديم ولد أبَّ محمد (الشركَي) بتفقد أحوال قواد الأراحي النازلين على القبائل المقيدين بطرته (الغرب، العرائش، الحياينة، بني سادن، ءايت عياش، ءايتولاَّل)، وتبديلهم بغيرهم كل شهر حتى يجري الأمر على مقتضاه، ولا يبقى الخارج عليهم يستفيد المئونة منهم بلا نتيجة، كما أصدرنا أمرنا للوصيف ابن فرجي (سعيد، باشا فاس الجديد) بذلك حرفا حرفا..."[19].

وعلاوة على مهمة التسخير هذه، فقواد الجيش هم الذين كانوا يتولون مرافقة السفراء الأوربيين، عند صدور الإذن بتوجههم إلى حضرة السلطان، فاس أو مكناس، أو مراكش، حيث يتم استقبالهم من طرف العاهل. وغالبا ما كانت تتحرك فرقة من هؤلاء الأعوان العسكريين للإتيان بأحد المبعوثين الأوربيين، وبمن كان في رفقته إلى الحضرة، إما من طنجة، أو من الجديدة أو الصويرة.

وهكذا، ورد في قائمة صائر شهر ذي القعدة من سنة 1279، الموافق لشهري أبريل-مايو 1863، على يد أميني مرسى الصويرة عبد السلام جسوس وعبد الرحمن بن الحسن النسب، أن القائد العباس أَمَقْشَد ومن كان معه من الأصحاب، وعددهم 70 رجلا، قد تسلَّموا مئونة 15 يوما، قبل رحيلهم عن هذه المدينة، لمرافقة السفير الإسباني فرانسيسكو مري إي كولوم (Francisco Merry y Colom)والوفد المصاحب له، إلى مدينة مراكش، حيث تتم مراسيم استقباله من قبل السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن.

---

18. أنظر على سبيل المثال لا الحصر :
مديرية الوثائق الملكية بالرباط ، محفظة مراكش رقم 2، رسالة السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام إلى الأمناء إبراهيم بن عبد الله البوكيلي، وأحمد بن الكبير، ومحمد بن شقرون، والطالب محمد الدليرو، في شأن ترتيب المؤونة وعلف بغال "المخازنية الخمسة فيهم مقدم الواردون عليكم بالرءوس...."

19. الخزانة الحسنية، كناش 113، ص. 157، الوثيقة بتاريخ 23 جمادى الأولى1308/ 4 يناير 1891.

وجرت العادة كذلك بأن يتولى عناصر الكَيش والعسكر إيصال المساجين إلى أماكن اعتقالهم، أو نقل رؤوس المتمردين المقطوعة، كما كان من اختصاصهم أيضا التنقل إلى جهات مختلفة من البلاد للوقوف في عين المكان على جمع عسكر القبائل، والإتيان به إلى حضرة السلطان، أو نقل كميات من المال، من مدينة إلى أخرى، وبالخصوص بين مراكش وفاس[20].

وكان عدد من هؤلاء الناس يستخدمون في أعمال البناء، التي كانت تتم من حين لآخر، في عدد من القصور السلطانية بمكناس، وفاس، ومراكش، أو في غيرها من البنايات المخزنية، ناهيك عن أعمال الصِّيانة، والتنظيف والتطهير، كحمل الأتربة والأحجار مثلا، من مكان إلى آخر، أو الإسهام في أعمال كبرى كتحويل مجرى مياه بعض السواقي والوديان، كما حدث ذلك مثلا في مدينة فاس سنة 1884، بل إن كبراء الكَيش والعسكر هم الذين كانوا يتولون عملية الإشراف المباشر على مثل هذه الأشغال الأخيرة، وهذا ما يتبين لنا مما ورد في الوثيقة الآتية:

> "... فإن سيدنا أيّده الله، وجّه وصيفه القائد البشير الحَبْشِي، ومولاي أحمد الصويري، ومحمد بوهيمة الدليمي، لِرَدِّ ماء فاس لمجاريه الأصلية، ويأمرك أيده الله، أن تُرتِّب لهم مئونتهم اليومية مدة مُقامهم ثمة..."[21].

- 4 انكشاف واقعه :

لقد حاولنا، في الفقرات السابقة من دراستنا هذه، معالجة جوانب وقضايا ذات الصلة بمؤسسة الجيش في مغرب القرن التاسع عشر، وبالخصوص ما ارتبط منها بتنظيماته وفرقه المختلفة، وبأنواع الخدمات والوظائف التي كانت تناط بعناصره، مع التذكير، قبل ذلك، بأهم سمات الدولة المغربية ودواليبها في الفترة الزمنية المذكورة.

وسواء تعلق الأمر بالوسائل المادية والتقنية التي كان يسخرها الجنود في أداء مهامهم وإنجاز أعمالهم، أو نظرنا إلى المؤهلات العسكرية والثقافية لهؤلاء الجنود أنفسهم، فإننا ندرك بدون أدنى تعب أو عناء، أننا أمام جيش بلد تقليدي ذي بنيات اقتصادية، واجتماعية، وثقافية عتيقة.

---

20. الخزانة الحسنية ، محفظة حسنية رقم 183، رسالة السلطان إلى الباشا العربي ولد أبَّ محمد الشركي، في شأن جمع وإرسال عسكر قبيلة البهاليل، صحبة تجريدة المخازنية الوافدين عليه، وعدد رجالها 52 شخصا. الوثيقة بتاريخ 28 ربيع الثاني 1306 / فاتح يناير 1889.
الخزانة الحسنية ، محفظة سيدي مُحمد رقم 35، رسالة الحاجب موسى بن أحماد إلى الخليفة مولاي الحسن بتاريخ 19 ربيع الأول 1287 / 19 يونيو 1870.

21. ابن زيدان عبد الرحمن : " إتحاف أعلام الناس بجَمَال أخبار حاضرة مكناس "المطبعة الوطنية، الرباط، 5 أجزاء، 1929-1933، ج2، رسالة الوزير الصدر محمد بن العربي الجامعي، المدعو الكبير، إلى باشا فاس عبد الله بن أحماد، بتاريخ 27 ربيع الثاني 26/1301 يناير 1884.

وهذا يعني أن جيشا من هذا القبيل، ربما يكون ذا فعالية وفائدة عندما يكون خصمه في مستواه التقني، والمادي، والتنظيمي، أو عندما كان يُؤمر رجاله بالزحف ضد الأهالي العُزَّل، وقمع تمردات القبائل. وأما إذا اضطرته الظروف إلى منازلة جيش حديث، مدجج بالعتاد الحربي المتطور، ومدرب على فنون الحرب الحديثة، ومؤطر بذوي الخبرة في التخطيط المحكم للمعارك والعمليات الحربية، وفي قيادة الرجال في ميادين القتال، فإنه لن يستطيع الصمود في وجهه، ولو لبضع ساعات، حدث ذلك فعلا في وقعة إيسلي سنة 1844، وحرب تطوان على يد الإسبانيين سنة 1859-1860.

والحق أن الجيش المغربي كمؤسسة للدولة عبر العصور، قد ظل على حاله، لم تطور قط أسس وصيغ تنظيمه، ولا أساليب تجنيد وتكوين وتدريب عناصره، ولا طرق قتالهم ومحاربتهم للعدو، اللهم ما كان قد تحقق من تطور وتحول في هذه الميادين، ولا سيما في بعضها كالسلاح الناري، والتاكتيك الحربي على عهد دولة السعديين، أيام عزِّها وامتداد نفوذها في النصف الثاني من القرن السادس عشر على الخصوص[22].

ولم يفت الملاحظين الأجانب طبعا، وفي مقدمتهم ضباط البعثة العسكرية الفرنسية بالمغرب، أن لاحظوا هذه الظاهرة، وعلقوا عليها، أحيانا، بكامل السخرية والازدراء، على غرار ما نُسب من القول، في هذا الصدد، إلى قائد الجيش الفرنسي في وقعة إيسلي، المارشال بيجو (Le Maréchal Bugeaud)، وحشود المغاربة تتراءى له من بعيد :

"ليس هذا جندا، إنما هو غوغاء"[23].

هذا، وقد ظل المغاربة يتوارثون، جيلا بعد الآخر، تقاليد وخُطط السلف الحربية، دون أن يطرأ عليها أدنى تغيير أو تحول، فتُتَّخذ بطولات الأجداد وآثارهم وأقوال العرب المأثورة، ومذاهبهم وحكمهم في هذا المجال وغيره، مثلا أعلى، ونموذجا أسمى، ينبغي الاقتداء به والسير على هديه.

ونجد لهذه المرجعية أصداء وآثار عديدة ومُعَبِّرَة في الوثائق المخزنية، وكذلك في كتابات المتفقهين من المغاربة في القرن التاسع عشر. ومن ذلك ما نقرأه في رسالة للسلطان مولاي عبد العزيز بن الحسن إلى أخيه وخليفته بمدينة مراكش الأمير مولاي العباس الذي يبدو أنه

22. Dziubinski, "L'Armée et la Flotte de Guerre à l'époque des Sultans Saadiens", *Hespéris Tamuda*, Vol XIII, Fasc. unique, 1972, p. 76 et S.

23. المنوني، محمد بن عبد الهادي ، *مظاهر يقظة المغرب الحديث*، مطبعة المتوسط، بيروت، 1985 ج 1، ص. 16 وما بعدها.
في هذا الجزء من كتابه يقف المؤلف عند بعض أوجه الضعف والخلل في قطاع الجيش وغيره من أجهزة الدولة الأخرى، والتي ساهمت في استفحالها هزيمة المغاربة في إيسلي، وما أعقبها من ضغوط سياسية، واقتصادية، وعسكرية على المغرب، من طرف الدول الأوربية الاستعمارية مستشهدا بما قاله صاحب "كتاب الاستقصا..." في هذا الصدد، ومستعرضا مواقف وردود الفعل الصادرة عن ثلة من المتفقهين والنابهين المغاربة، كالوزير الأديب والشاعر محمد بن إدريس العمراوي (ت. 1847)، وابنه الكاتب إدريس بن محمد بن إدريس (ت. 1878)، وابن عزوز المراكشي، ومحمد بن عبد القادر الكردودي (ت. 1852)ن مع ذكر نماذج من شعرهم ونثرهم في الموضوع.

كان قد خاطر بنفسه وبأرواح من كان في رفقته من الجُند والحراك، حيث توغل على رأسهم في عمق أراضي قبيلة الرحامنة المنتفضة ضد المخزن وقتئذ، دون التفكير في اتخاذ ما كان يلزم من الاحتياطات لضمان خط الرجعة عند الاقتضاء، حيث خاطبه قائلا :

"... من المقرَّر المُسَلَّم بالإجماع أن الحرب خداع، ومعناه أنه كلما وجد الإنسان انتهاز فرصة، وتجريع العدو غُصَّة من غير كفاح ولا قعقعة سلاح إلا وجنح لذلك، وسلك هاتيك المسالك، حتى تكون السلامة مغنمة والظفرة مكسبة، لأن المحارب المتدبر العارف المتبصر كالتاجر، فإنه إن لم يبع بالربح، فلا أقل من رأس المال..."[24].

ففي هذا السياق الذي انكشف فيه الواقع المتدهور للجيش المغربي، حيث احتجبت عنه فجأة هالة المناعة والغلبة التي كانت تلاحقه منذ معركة وادي المخازن سنة 1578، اضطر السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام إلى اتخاذ مجموعة من التدابير والترتيبات في مجال تكوين عناصره، وتحصين وتسليح عدد من المراسي والمواقع، وتأسيس نواة أولى من الجُند النظامي تتكون أغلبية عناصره من الرُّماة والمدفَعيين، اقتداء بما كان قد تهيَّأ للأتراك العثمانيين والمصريين من النجاح في هذا الصدد، في مطلع القرن التاسع عشر. وهذا ما سنحاول التطرق إليه في الجزء الثاني من دراستنا هذه.

ثانيا : محاولات تحديث الجيش، الوسائل والنتائج

1) - أي مثال يُقتدى به، الشرق أم الغرب؟

لقد وُضع المسؤولون المغاربة، أو بالأحرى السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام، أمام امتحان عسير، غداة وقعة إيسلي سنة 1844، لما دقَّت ساعة إصلاح الجيش وشؤونه، وطُرحت مسألة اختيار الدولة أو الدول الأجنبية التي يمكن الاعتماد عليها والاطمئنان إلى نصائحها ومساعدتها لإنجاح خطة الإصلاح هذه، هل هي من بلاد المشرق، أم من البلاد الأوربية؟

بيد أن مشاعر الرِّيبة والنفور، وأحيانا الكراهية السائدة وقتئذ في شرائح عديدة من المجتمع المغربي نحو الأوربيين وحكوماتهم، كانت تمنع أيَّ تقارب أو تفاهم مع هؤلاء من أجل الاستعانة بهم في إنجاح خطة الإصلاح هذه، على الأقل في مراحلها الأولى. وفي مقابل ذلك، كان للصلات الروحية والثقافية التي ظلت تربط المغرب بأقطار المشرق العربي والباب العالي أعمق الآثار في نفوس ثلة من المتفقهين والمتعلمين المغاربة، غداة وقعة إيسلي على

24. الخزانة الحسنية ، محفظة مولاي عبد العزيز رقم 3/431، الوثيقة بتاريخ 12 ذو القعدة 1312/ 6 يونيو 1895.

الخصوص، للاقتداء بتجربة الإخوان في الملة والدين، وما حققوه من إنجازات إيجابية في قطاع الجيش، والتنظيم الإداري، وغيرهما من القطاعات الثقافية والصناعية.

وهكذا، تم في بدا ية الأمر، تجنيد عدد من ذوي الخبرة والمعرفة بشؤون الحرب من الجزائريين الذين كانوا قد التجأوا إلى المغرب على إثر غزو بلادهم من قبل القوات الفرنسية سنة 1830. فكان منهم مختصون في سلاح المدفعية، وآخرون كانت لهم خبرة في صنع الألغام، والمتفجرات، والمدافع والسراديب، والتخطيط للمعارك، بحسب الطبيعة الجغرافية لميادين القتال، وطرق اقتحام مواقع العدو والاستيلاء عليها[25].

على أنه إذا كان السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام قد حاول إدخال بعض التعديلات على التركيبة التقليدية للجيش المغربي، وذلك بتأسيس نواة أولى لجيش "النظام" من جهة، والاستفادة من خبرة عدد من رجال الحرب الجزائريين على الخصوص، فإن ابنه وخلفه سيدي محمد هو الذي يرجع له الفضل في اتخاذ الترتيبات والتدابير العملية بهدف تحديث بعض قطاعات الدولة، وفي مقدمتها، بطبيعة الحال، قطاع الجيش. هذا، وقد تعمدنا هنا استعمال لفظة "تحديث" عوض "إصلاح"، وذلك لأسباب منهجية وموضوعية في نفس الآن. والحق أن مصطلح "الإصلاح" يطرح أكثر من إشكال، سيَّما إذا أُريد منه الدلالة على ما طرأ على قطاع الجيش من مستجدات، خلال القرن التاسع عشر. فالكلمة لا تترجم ولا تُعبر بكل أمانة ودقة، عما اتُّخذ من إجراءات وتدابير لتحسين وتطوير قدرة الجنود المغاربة القتالية، أو ظروف عيشهم وعملهم. فكل ما في الأمر أن المخزن اتخذ مجموعة من الترتيبات التقنية والعملية، في الفترة المتراوحة ما بين 1844 و 1894 على الخصوص، من أجل أن يوفر له أداة فاعلة لتعزيز مركزه، وبسط كلمته، وردع كل انتفاضة تهدد سلطته وسلطة ممثليه في مختلف جهات البلاد. وأما لفظة إصلاح، فإنها تختزل شحنة من المعاني والدلالات النفسية، والثقافية، والاجتماعية، والسياسية، لا نظن أن هذه المقدمات والمتطلبات، أو على الأقل البعض منها، كان حاضرا في أذهان النخبة الحاكمة والمثقفة، أو على مستوى باقي فئات المجتمع المغربي الأخرى.

---

25. أنظر، على سبيل الاستئناس لا الحصر، ما يلي :
الخزانة الحسنية. محفظة رحمانية رقم 1/25/ك 5، رسالة السلطان مولاي عبد الرحمن بن هشام إلى باشا تطوان، القائد محمد أشعاش، يأمره فيها بالشروع فورا في تجنيد ذوي المهارات العسكرية من أهل الجزائر الوافدين على مدينة تطوان في صفوف العسكر، وإدماج كل جماعة منهم في الفرقة المناسبة من بحرية وطبجية (مدفعيين)، وصانعي "البُنية، والكورة، والمدافع، والمهارس...."، والوثيقة بتاريخ 3 جمادى الأولى 1246 / 19 نونبر 1831.
الخزانة الحسنية. محفظة رحمانية رقم 8/32/ ك 5، وثيقة بتاريخ 29 محمرم 1260، الموافق لـ 19 يبراير 1844، حيث تضمنت أوامر السلطان إلى بوسلهام بن علي أزطوط بتوفير مسكن بمدينة طنجة لإيواء العسكري أحمد الجزيري الطُّبْجي، على نفقة المخزن، وإجرائه مجرى طبجية العسكر بالنسبة للراتب.

وأيّـاً كـان الأمـر، فـإن السـلطان سـيدي محمـد بـن عبـد الـرحمن الـذي عـاش تجـربتين قاسـيتين ومـؤلمتين، أولاهمـا وقعـة إيسـلي التـي كـان حاضـرا فيهـا علـى رأس الجـيش المغربـي، وثانيهمـا وقـائع حـرب تطـوان التـي حضـرها، نيابـة عنـه، صِـنْوُه الأمير مـولاي العبـاس، أضـحى يَنْفُـر وينبُـذُ كـل تقـارب وتعـاون وثيـق ومسـتمر مـع الـدول الأوربيـة التـي أبانـت عـن نواياهـا التوسـعية فـي الـبلاد، وأظهـرت أهـداف سياسـتها الحقيقيـة الراميـة إلـى إضـعاف المغـرب وحكومتـه. وثمـة إقدامـه إلـى إضـعاف المغـرب وحكومتـه. ومـن ثمـة إقدامـه علـى إحيـاء وإنعـاش الصـلات والعلاقـات مـع بلاد الكِنانة والباب العالي.

وهكـذا، اسـتقدم صـناعا اختصاصـيين فـي صـناعة السـكر للاشـتغال فـي المعمـل الـذي بنـاه لهـذه الغايـة بمدينـة مـراكش، ثـم أوفـد إلـى بـلاد الكِنانـة طُلابـا ليتـدربوا علـى تقنيـات الطباعـة وفنونهـا، بعـد أن تـم التعاقـد مـع مـواطن مصـري متخصـص فـي هـذا الميـدان للقـدوم إلـى المغـرب والإشـراف علـى تركيـب أجـزاء المطبعـة المسـتوردة وتشـغيلها بـالمغرب، كمـا أوفـد أيضـا صُـناعا لـتعلم طريقـة خدمة وصنع البارود[26].

مـن جهـة أخـرى، ينبغـي التـذكير هنـا بـأن صـلات المغـرب بدولـة الأتـراك العثمـانيين لـم تعـرف انطلاقتهـا الفعليـة إلا علـى عهـد السـلطان مـولاي الحسـن، حيـث تأكـدت رغبـة الجـانبين، وقَـوِيَ عزمهما على توطيدها وتطويرها، إيمانا منهما بأن :

> " مـدار القـوة المحمديـة وصـولتها علـى سـائر الملـل الرديئـة، إنمـا هـو اتحـاد جميـع أفرادهـا الموجـود فـي كـرة الأرض، وتشـابك الأيـدي منهـا بـالقبض، ولا سـيما عنـد تعاضد المشركين وقوة أعداء الدين...."

حسـبما عبـر عنـه مفتـي الـديار التركيـة، الشـيخ حسـن خيـر الله، فـي الرسـالة التـي وجههـا إلـى الحاجـب موسـى بـن أحمـاد والتـي كُلِّـف بتسـليمها إليـه الفقيـه إبـراهيم السنوسـي، بمناسـبة وفادتـه علـى السـلطان مـولاي الحسـن، مبعوثـا مـن طـرف السـلطان العثمـاني عبـد الحميـد خـان بـن عبـد المجيد[27].

---

26. الخزانة الحسنية، كناش 47، ص 88، وثيقة بتاريخ 4 ربيع الثاني 1283، الموافق لـ 16 غشت 1866، حيث ورد فيها ملخص رسالة السلطان إلى الخليفة مولاي الحسن، يأمره فيها "بتعيين رجلين من أنجب عملة البارود بقصد توجيهها لمصر، مع معلم ثالث من فاس لتعلم تزْديج البارود".
- المنوني، محمد بن عبد الهادي : "مظاهر يقظة..."، مرجع سابق ، ج 1، ص. 61 وما بعدها، وص 257 وما بعدها.
وانظر كذلك ما ورد من وثائق في هذا الشأن، في "مجلة الوثائق"، المطبعة الملكية، الرباط 1976، ج 2، تحت أرقام : 282، و283، و288، و289، و290، ابتداء من ص 418.
- الخزانة الصبيحية بسلا ، سلسلة 2، حرف ب، محفظة 6، وثيقة رقم 508 بتاريخ 5 ذي الحجة 1283، الموافق لـ 8 أبريل 1867، حيث خاطب السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن عَامِلَ سلا القائد محمد بن سعيد السلاوي، في نفس الموضوع، قائلا :
"... وقد بلغ إسماعيل باشا (خديوي مصر) اهتمامنا بالأمور الجهادية، حيث وجهنا له من يتعلم عمل البارود وغيره على الكيفية المعروفة عندهم، فأجاب بأنه اعتنى بأمرهم، وطلب تكليفه بما يتعلق بهذا الأمر، ووعد بالوقوف فيه...".
27- مديرية الوثائق الملكية بالرباط ، محفظة المغرب - تركيا، الرسالة بتاريخ غُرة ربيع الأول 1294 / أواسط مارس 1877.
وانظر كذلك حول علاقات المغرب بالباب العالي، على عهد المولى الحسن :
- ابن زيدان، عبد الرحمن : إتحاف أعلام الناس....، م. س، ج 2، ص. 259 وما بعدها

وهذه الدعوة إلى الاتحاد هي وليدة الظروف العصيبة والأوضاع المتردية السائدة وقتئذ في معظم الأقطار العربية والإسلامية، إن لم تكن في جميعها، سياسيا، واجتماعيا، وماديا، وتقنيا من جهة، وهي أيضا وليدة حملة التوعية والتنوير، وحفز الهمم والعزائم لنبذ الخمول، ومحاربة الفقر والجهل، والفكر الغيبي والسحري، والتي كان قد دشنها ثلة من علماء ومثقفي العرب والمسلمين من أمثال جمال الدين الأفغاني الذي نادى بإقامة جامعة إسلامية، والشيخ محمد عبده من جهة ثانية، في حين أضحى العالم الغربي المسيحي، القوي بمقوماته الفكرية والثقافية، والمعتز بمكتسباته السياسية والاجتماعية، وبما تحقق له من تقدم مادي وعلمي هائل في كافة ميادين المعرفة، يهدد كيان ومستقبل دول باقي المعمورة، وفي مقدمتها الأقطار العربية والإسلامية[28].

ففي هذا السياق طُرحت مسألة تبادل التمثيل الدبلوماسي بين الجانبين، في كل من تركيا والمغرب، إلا أن انشغال العثمانيين بِصدِّ تحرشات روسيا القيصرية ضدهم، بل دخولهم في مواجهة حربية معها من جهة، ودسائس ومؤامرات، وضغوط الدول الاستعمارية الأوربية من جهة أخرى، قد أقبرت هذه المشاريع والتوجهات في مهدها. ذلك أن إنكلترا وفرنسا على الخصوص، كانتا تريان في كل تقارب وتواصل، بين قطرين إسلاميين أو أكثر، ولو على مستوى التراسل وتبادل البعثات السفارية، خطرا على مصالحهما ومكتسباتهما[29].

فإذن، وعلى ضوء ما سبق ذكره، صار كل تعاون أو تقارب بعيد المنال، إذا لم يكن مستحيلا، وبالتالي سرعان ما انتهى كل شيء، وتم الاستغناء عن الخبراء والضباط والعسكريين من أصل عربي أو تركي، إذ في خريف سنة 1876، تمكنت فرنسا من إقناع السلطان مولاي الحسن بالموافقة على مبدأ استقبال بعثة عسكرية فرنسية، يستقر أعضاؤها بالبلاد، ويتولون تكوين وتدريب الجنود المغاربة على طرق ومناهج الحرب الحديثة.

وظل الجانب الفرنسي، منذ هذا التاريخ، يحاصر النائب السلطاني بطنجة مَحمد بركَاش، مُطالبا إياه بالعمل على إقناع السلطان مولاي الحسن بالحسم في الجوانب التنظيمية والمالية لكي يتسنى لأعضاء البعثة المرتقب مجيئهم إلى المغرب الشروع، في أقرب الآجال، في مزاولة عملهم، إلى أن أتيحت فرصة سانحة، تمثلت في استقبال السلطان مولاي الحسن السفير

---

28. المنوني، محمد : "مظاهر..."، مرجع سابق ، ج 2، ص. 303 وما بعدها.
29. انظر، مثلا، ما ورد في رسالة سفير فرنسا تيسو(Tissot) بالقسطنطينية إلى وزير خارجية بلاده وقتئذ بارثلمي سانت هيلر - (Barthélémy Saint- Hilaire)، في هذا الشأن، حيث أثار الانتباه إلى "المجهودات التي بذلتها، في الآونة الأخيرة، الحكومة التركية، بهدف تحقيق انسجام أكبر بين مختلف فرقاء العائلة الإسلامية الكبرى..."، مضيفا بأنه يتعين مضاعفة الجهود للحيلولة دون قيام أي تقارب أو تعاون بين بلدين إسلاميين أو أكثر، في الجناح الشرقي للعالم الإسلامي، أو في غربه.
- A.E.P, Documents Diplomatiques Français, 1er Série, (1871 - 1900), Vol III, Document n° 208, en date du 29 Septembre 1880.

الفرنسي الجديد بالمغرب أُكَستان دى فرنويي (Augustin De Vernouillet)، في شهر أبريل من سنة 1877 بمدينة فاس. وفي 25 من الشهر المذكور، توصل الطرفان إلى عقد اتفاق نهائي بينهما، تضمن على الخصوص التزام المخزن بتقديم مبلغ مالي قدره 60000 فرنك ذهبي سنويا إلى أفراد البعثة العسكرية الفرنسية، في حين التزم الجانب الفرنسي بِوَضع رهن إشارة المغرب طاقم من الأطر العسكريين يتكون من ثلاثة ضباط فرنسيين تابعين لجيش الاحتلال بالجزائر، وخمسة ضباط صف، من بينهم إثنان مسلمان، علاوة على طبيب عسكري من رتبة مساعد ماجور (Aide-Major)، يلتزم جميعهم بتنفيذ أوامر المخزن وتوجيهاته فيما يتعلق بتكوين وتدريب جنوده، أين شاء وَوَقْتَمَا شاء[30].

وهكذا، يكون الذئب قد مهد الطريق للتسرب إلى حظيرة الأنعام، بعد أن تمكن رفيقه وقرينه الثعلب، ممثلا في المغامر الإنجليزي هاري ماك لين (Harry Mac Lean) من تحقيق نفس الهدف، في شهر مارس 1877، حين كلفه المخزن بمهام تدريب فريق من مُشاة العسكر على الطريقة العسكرية الحديثة، وهذا ما سنحاول معالجته في الفقرة الموالية من دراستنا هذه.

2) البعثات العسكرية الأجنبية

2 - 1 البعثة العسكرية الفرنسية

ظهرت منذ مدة، دراسات ومقالات لباحثين مغاربة وأجانب، حول البعثات العسكرية والتقنية الأوربية والتي استقرت بالمغرب، ابتداء من العقد السابع من القرن العشرين.

وإذا كانت بعض هذه الدراسات قد عنيت بمجموع هذه البعثات، أي الأنجليزية، والفرنسية، والإيطالية، والألمانية، والإسبانية، في سياق الحديث عن مجهودات الدولة المغربية في الفترة الزمنية موضوع دراستنا هذه، بهدف تحديث قطاع الجيش وإصلاح شؤونه، فإن اهتمام بعضها قد انصبَّ، على الخصوص، على البعثة العسكرية الفرنسية وحدها، كمقالة الباحثة الفرنسية ماكَالي شابر (MagaliChappert) تحت عنوان: *إركمان وبدايات البعثة العسكرية الفرنسية بالمغرب 1877-1883* والتي صدرت منذ أربع وثلاثين سنة خلت[31].

30. A.G.V, 3h12, Rapp n° 102, intitulé : Historique de la Mission Militaire Française au Maroc, 1897, p.1 et Suiv.
-Raoult Roger-Pierre, Lettres d'un oncle. Contribution à l'Histoire du Maroc (1887-1906). Introduction et Notes de J-L Miège, Rabat, La Porte, 1995.

31. Chappert Magali, « Jules Erckmann et les débuts de la mission militaire française au Maroc (1877-1883) », *Revue d'Histoire Diplomatique*, Jt -Déc. 1978.

والجـدير بالملاحظـة، فـي هـذا الصـدد، أن فرنسـا التـي كانـت تُتـابع ببـالغ الاهتمـام الأوضـاع بـالمغرب، بسـبب تواجـدها بـالقطر الجزائـري المجـاور مـن جهـة، ومخططاتهـا التوسـعية جنـوبي الصـحراء فـي اتجـاه العالم الزنجي من جهة أخرى، قد تمكنت في آخر المطاف من تحقيق مُرادها.

وحرصـا مـن المخـزن علـى التقليـل مـا أمكـن مـن فضـولية هـؤلاء الأجانـب، وسـعيهم الأكيـد إلـى اسـتعمال كافـة الوسـائل والحيـل لجنـي الأخبـار والمعلومـات، والاطـلاع علـى وسـائل وأسـاليب تسـيير شـؤون الدولـة، عـيَّن لهـم السـلطان مدينـة وجـدة مكانـا لاسـتقرارهم وعملهـم، بعيـدا عـن مدينـة طنجـة مـن جهـة، وعـن الحواضـر الثلاثـة فـاس، ومكنـاس، ومـراكش والتـي اعتـاد السـلطان التوقـف بإحـداها، عنـد انتهـاء التنقـل فـي مختلـف جهـات الـبلاد مـن جهـة أخـرى. إلا أن هـذا الإبعـاد لـم يـدم سـوى سـنتين ونصـف تقريبـا، حيـث اضـطر المخـزن إلـى قبـول اسـتقرار فرقـة مـن هـؤلاء العسكريين بمدينة الرباط.

ومهمـا يكـن مـن أمـر، فهـا هـي الآن فرنسـا قـد نجحـت فـي تحقيـق جـزء مـن مشـروعها الاسـتعماري بـالمغرب، مُقْصِـيَّة بـذلك الخبـراء والضـباط العـرب والمسـلمين مـن جهـة، ومُقحِمَـة مُخْبريهـا ومُراقبيهـا فـي الأوسـاط المخزنيـة، بـل فـي الحاشـية المقربـة مـن السـلطان مـن جهـة أخـرى. ولعـل مـا أنجـزه الطبيـب الجاسـوس والخطيـر لينـارس(Dr Linarès)، فـي هـذا المجـال، لخيـر دليـل علـى مـا ذهبنـا إليـه مـن القـول، إذ عـرف كيـف يسـتغل قُربـه مـن السـلطان وحاشـيته لتـدوين الأخبـار والمعلومـات ذات الصـلة بـأعوان المخـزن الكبـار، وبأوضـاع الـبلاد السياسـية، والاقتصـادية والاجتماعية..

وخـلال فتـرة اسـتقرار البعثـة بمدينـة وجـدة، اختـار المخـزن عناصـر مـن مُشـاة كـيش الشـراردة للتكـوين هنالـك علـى يـد ضـباطها، حيـث تعلـم هـؤلاء المبـادئ الأوليـة للجنديـة كـالتعود علـى التـزام الصـمت أثنـاء التـداريب، وتسـوية الصـفوف، وقـبض البندقيـة، وأداء التحيـة، والمشـي بخطـوات موزونـة ومنتظمـة فـي الاتجاهـات الأربـع، وطريقـة الزحـف فـي ميـدان القتـال، فُـرادى أو جماعـات، مـع القيـام بمنـاورات حربيـة، وفـن الرمايـة الحديثـة، مـع التصـويب نحـو هـدف معـين يـتم تنصيبه على بعد 100 متر أو 200 متر فقط لأن :

> "حالـة البنـادق السـيئة، ورداءة القرطـوس المسـتعمل"، حسـب زعـم النقيـب بـايرن (Payerne)، أول رئـيس للبعثـة العسـكرية الفرنسـية بـالمغرب، كانتـا تحـولان دون إصابة أهداف على بعد يتعدى المسافتين المذكورتين[32].

32 A.G.V, 3h1, Rapp. n° 137, en date du 1er Oct. 1878, p.1 et Suiv.

بيد أنه، بعد مُضي سنوات على حلول البعثة المذكورة بالبلاد، لم يُسفر عمل أعضائها إلا على نتائج هزيلة في مجال تكوين وتدريب الجند المغربي، في حين ظل المخزن ينفق عليهم أموالا طائلة ومجحفة بالنسبة لإمكاناته وموارده المادية، وهو الأمر الذي نتبينه وبكل وضوح من مصادرنا، سواء تعلق الأمر بأعداد الجنود المغاربة الذين تم تكوينهم هنا وهناك في الفترة الممتدة ما بين 1877 و 1912، أو بعلاقات البعثة بالمخزن وممثليه، في بداية عمل المكونين الفرنسيين على الخصوص، بمدينة وجدة، وفيما بعد في المدن الأخرى، كرباط الفتح، وفاس، ومكناس، وطنجة، ومراكش...[33].

هذا وقد أعرب السلطان مولاي الحسن، في عدة مناسبات، عن استيائه وخيبة أمله في عمل ومساعدة المتعاونين الفرنسيين في تحديث الجيش، إلى درجة أدى به الأمر إلى المطالبة بإنهاء مهمتهم في المغرب، وذلك سنة 1883. ونلمس شيئا من هذا، مما ورد في رسالة العاهل إلى نائبه بطنجة مَحمد بركَاش، حيث نقرأ ما يلي :

"وهؤلاء الحرَّابة، إنما كانوا أتوا لهنا بقصد التعليم والرجوع لمحلهم، بعد تعلم من عينوا لهم من العسكر، لا بقصد المكث هنا. وحيث حصل المُراد منهم بتعلم المتعلمين، لم يبق في مكثهم هنا إلا الضرر الذي ذكرت، وضرر آخر وهو طلب الصبنيول بواسطة السويسي (عامل الرباط)، وبريشة (عبد الكريم، أمين)، و رِلاْنْدي(Rinaldi) ترجمانهم حين كان بفاس، وباشدورهم حين كان هنا، المساوات معهم بتوجيه حرَّابتهم لهنا، وكذلك باشدور الطليان طلب ذلك، حيث كان هنا، وألحَّ فيه، ولازلنا نُدافعهم عنه إلى الآن، وحتى الآن..."[34].

وفي سنة 1888، فقدت البعثة وضعيتها المتميزة بالمغرب، على إثر استقرار بعثتين تقنيتين أخريين به، ويتعلق الأمر بالبعثة الإيطالية التي شرع رئيسها الأول العقيد جيورجيو بركَولي(Col. Georgio Bregoli)، في تشييد معمل لصنع البنادق والقرطوس بمدينة فاس، وبالمهندس الألماني روطنبورغ(Rottenburg)، وتوليه تشييد برج ضخم على شاطئ مدينة

---

33. حول تطور أعداد الجنود الذين كان يتم تكوينهم في المدن المذكورة أعلاه، يرجع إلى :
- A.G.V, 3h3, Rapp n° 3 du Cap.Erckmann, en date du 30 Avril 1880, et Rapp. n° 7 en date du 31 Août 1880.
من أصل ثمانين جنديا قدموا من الدار البيضاء للتكوين بالرباط، لم يبق منهم سوى 20 شخص، وأما الآخرون، فقد تبخروا، إما بسبب المرض الذي ألمَّ ببعضهم، أو الفرار من الخدمة، أو الإعفاء منها.
- A.G.V, 3h14, Rapp. n° 3 du Cdt Fariau, Chef de la Mission Militaire Française au Maroc en date du 31 Mars 1904.
يشير هذا الضابط في تقريره إلى أنه من أصل خمسمائة راميا من كَيش الشراردة كانوا يتابعون تكوينهم بفاس، لا يواظب على الحضور منهم سوى واحد وسبعين نفرا، ومن أصل ثلاث مائة جنديا من كَيش الأوداية، كان لا يحضر حصص التكوين والتدريب سوى ستة وعشرين نفرا منهم!
- وحول عدد المكونين من الجنود المغاربة في سلاح المدفعية وغيره من التخصصات العسكرية، وما كان يثيره من تساؤل، واندهاش، واحتجاج من طرف السلطان وأعوانه الكبار يرجع إلى:
- A.G.V, 3h3, Rapp du Cap. Martin, Mars- Avril 1877, p. 142 et Suiv

34. الخزانة الصبيحية بسلا ، محفظة 17، سلسلة II ، حرف. ج - د، وثيقة رقم 2491 بتاريخ ربيع الثاني 1300/ 10 يبراير 1883.
"الباشدور" المقصود هنا هو لاديسلاسأوردكَا(Ladislas Ordéga) الذي كان وراء إقالة النقيب إركمان(Erckman) من منصب رئيس البعثة العسكرية الفرنسية، في صيف سنة 1883، إذ كان يعيب عليه خضوعه وإسعافه المستمر للسلطان على إرضاء رغباته وتنفيذ أوامره، كما كان لا يوافقه على ارتداء الزي المغربي والتشبه بالمغاربة، عوض البذلة العسكرية الفرنسية التي تُناسب قدره ورتبته، الأمر الذي كان يرى فيه مسّاً وإهانة لكرامة فرنسا وجيشها.
وكانت لهذا السفير مواقف عدائية ضد المغرب وحكامه، إذ بواسطته، نال شريف وزان عبد السلام بن العربي الوزاني الحماية الفرنسية، في شهر يناير 1884.

الربـاط، فـي انتظـار حلـول بعثـة عسـكرية إسـبانية بـالبلاد، فـي شـهر نـونبر مـن سـنة 1889، تتكـون من تقنيين، وطبيب عسكري، وضابطي صف.

علـى أنـه إذا كـان المغـرب قـد اسـتطاع التعامـل مـع رؤسـاء هـذه البعثـات العسـكرية الأجنبيـة بقـدر مـن الحـزم والثبـات فـي المواقـف فـي عهـد السـلطان مـولاي الحسـن، والسـت سـنوات الأولـى مـن عهـد ابنـه وخلفـه مـولاي عبـد العزيـز (1894-1908)، أي حتـى وفـــاة الوزيـر الصـدر أحمـد بـن موسـى (أبَّ أحمـاد) سـنة 1900، فـإن مـا تبقـى مـن مـدة حكـم هـذا العاهـل، ومـدة حكـم خلفـه صـنوه السـلطان مـولاي عبـد الحفـيظ (1908-1912)، قـد فقـد المخـزن خلالهمـا قدرتـه علـى الـتحكم فـي تسـيير وتـدبير شـؤون الـبلاد، ممـا فسـح المجـال واسـعا أمـام الفرنسـيين علـى الخصـوص للاستحواذ على الجيش وشؤونه[35].

وإلـى جانـب البعثـة العسـكرية الفرنسـية، كـان يعمـل بعـض الضـباط الأنجليزيـون فـي مجـال تكـوين الجنـود المغاربـة فـي فنـون الحـرب الحديثـة، ولاسـيما سـلاح الرمايـة والمدفعيـة منهـا، وهـو الأمـر الذي سنتعرض إليه في الفقرة الآتية.

2-2 المساعدة الأنجليزية :

قـد يتبـادر إلـى الـذهن تسـاؤل بسـيط ولكنـه مهـم ووجيـه فـي نفـس الآن بالنسـبة لموضـوعنا، وهـو لمـاذا لـم تسـع بريطانيـا العظمـى إلـى إنشـاء بعثـة عسـكرية تابعـة لهـا رسـميا بـالمغرب، علـى غـرار مـا تحقـق لفرنسـا مـثلا، و نحـن نعلـم العلاقـات الوثيقـة والمتميـزة التـي ظلـت تـربط بـين البلـدين، علـى امتـداد القـرن التاسـع عشـر بأكملـه؟ هـل هـذا يعنـي أن مـا كـان يهمهـا، فـي المقـام الأول، وعمـل علـى تحقيقـه بكـل مهـارة ودهـاء سـفيرها المحنـك **جـون هـي دراموندهي** (John Hay Drummond Hay)،الـذي عـرف كيـف يكسـب ثقـة ووِدَّ أهـم سـلاطين الفتـرة، خـلال أربعـة عقـود ونيـف، مـا بـين 1845 و1886، هـو تحريـر تجـارة المغـرب مـن كـل أنـواع القيـود والاحتكـارات التـي كانـت تحـول دون انفتـاح أسـواق الـبلاد أمـام البضـائع والمنتوجـات الأوربيـة، تصـديرا وإيـرادا، وكـذلك الإسـهام فـي حمـلات إقنـاع المخـزن، بالضـغط عليـه مـن أجـل تبنـي برنـامج تحـديث عـدد مـن قطاعـات ومرافـق الدولـة، كـالإدارة والجـيش مـثلا، وأخيـرا الإبقـاء علـى وضـعية الـبلاد السياسـية علـى حالهـا، وعـدم السـماح لأي كـان مـن الـدول الاسـتعمارية الأخـرى

35. أنظر، للدلالة على ذلك، ما ورد في كتاب السلطان مولاي عبد الحفيظ إلى وزيره في الخارجية محمد بن عبد السلام المقري، على سبيل الاستئناس لا الحصر، حيث نقرأ ما يلي :
"... فغير خاف عنك ما صار إليه مركز الكومندار مانجان من الأهمية في مقام جُندِيّتنا السعيدة، وربما يقع منه التشوف إلى ضم أهمية أخرى زيادة على ماذُكر، وهي مسألة مالية الجند السعيد. وإذا مهد له السبيل لذلك، أصبحت جل أمورنا رهن إشارته، ولذلك يتعين أن تنتبه لهذا القدر، فتُعِدّ له عُدَّته..."
- الخزانة الحسنية ، محفظة مولاي عبد الرحمان. محفظة رقم 5/408، الوثيقة بتاريخ مهل ذي الحجة 1328/ دكنبر 1910.

بالقيام بعمل يُنافي ويعارض هذه الخطة، ويَمُسُّ بسيادة البلاد، على الأقل حتى سنة 1904، حيث أبرمت معاهدة الوفق الوِدّي مع فرنسا، في شهر أبريل من هذه السنة، مُنَصِّبة نفسها الصديق الوفي، والمستشار النصوح للحكومة المغربية.

ومن ثمة اقتصار واجتهاد الحكومة الأنجليزية على تشجيع المُبادرة الشخصية ودعمها، واستغلالها في خدمة مصالحها، ما دام **جون هي دراموند هي** قد نجح في نسج شبكة من العلاقات الوطيدة، سواء في الدوائر المخزنية العليا، أو في مختلف الأوساط الاجتماعية، في البادية كما في الحاضرة، وبالخصوص في المناطق الشمالية للبلاد.

وقد تأتّى، فعلا لضابط إنجليزي كان تابعا لحامية مدينة جبل طارق الاضطلاع بهذه المهمة الدقيقة، ويتعلق الأمر **"بالقائد" هاري ماك لين** الذي كانت قد اضطرته ظروفه الشخصية إلى الهروب من مقر عمله واللجوء إلى المغرب، عارضا خدماته على المسؤولين المغاربة، وبما أن حلوله بالبلاد قد تزامن وانشغال السلطان مولاي الحسن وقتئذ بمسألة تحديث جيشه، فإن المخزن تعاقد معه بكيفية مباشرة، أي بدون أن يتم ذلك على يد المُفَوَّضية البريطانية بطنجة، حيث كلف بتدريب وحدات من رُماة العسكر الملازمين للسلطان باستمرار، وذلك اعتبارا من شهر مارس 1877.

فمنذ هذا التاريخ، وطيلة ثلاثة عقود تقريبا، ظل **"القائد" ماك لين**، الذي لم يتردد قط في ارتداء الزي العسكري المغربي، والتكيف مع التقاليد والعادات المغربية، يحظى بثقة السلطانين مولاي الحسن ومولاي عبد العزيز، ساهرا على تكوين فرقة "الحرابة" المغاربة والتي كانت تعتبر من أحسن فُرق العسكر والكَيش سلاحا، وانضباطا، وتكوينا، متوليا أيضا تزويد المخزن بحاجياته من العتاد الحربي وغيره من المواد والمنتوجات الأوربية، مقدما شتى أنواع الخدمات إلى السلطان وكبار أعوانه[36].

ولكن، ماذا عن حصيلة استعانة المغرب بخبراء ومكونين عسكريين أوربيين للانتقال بالجيش المغربي تدريجيا من مؤسسة تقليدية وعتيقة، إلى قوة عسكرية منظمة، أو على الأقل العمل على تأسيس وتكوين نواة أولى على هذا النمط، استوعب أفرادها وتدربوا على التقنيات

---

36. المشرفي، محمد بن محمد بن مصطفى : "الحلل البهية في تاريخ ملوك الدولة العلوية".
مخطوط المكتبة الوطنية للمملكة المغربية رقم د 46، ص. 437.
تحدث المؤلف عما صار يشتغل به "الكرونيل" ماك لين، بعد توليه تدريب وحدات من الجند المغربي، فقال :
".... وجعل يتعاطى التجارة مع أكابر المخزن، يجلب السلع، وكساوي العسكر، والسلاح، وما يناسب مما له فيه نفع وميل النفوس إليه، إلى أن توفي الوزير السيد أحمد بن موسى، فوجد بموته سبيلا إلى التدخل مع المولى عبد العزيز...".
- A.G.V, 3h12, Rapp n° 188 du Cdt Burkhardt en date du 26 Sept 1901.
ذكر الضابط بأن ماك لين "الخَرَّاب" ورفيقه الطبيب نفيل فردون(Dr Nevyl Verdon)، كان المخزن يكلفهما بجلب المنتوجات والمواد الأوربية، مما كان يُدر عليهما أَرْبَاحَ كانت نسبتها تصل إلى 400%. وقال عن الطبيب فردون أيضا أنه كان يشارك في تدريب وحداة من رُماة العسكر، وأنه لقي مصرعه على إثر سقوطه من أعلى سطح منزله مؤخرا بمدينة فاس.

الحربيــة الحديثــة، ليتســنى لهــم بــدورهم تلقــين وتعمــيم خبــراتهم ومعــارفهم فــي مجــال التنظــيم والتــدريب، واســتعمال الســلاح النــاري الخفيــف والثقيــل، مــن علــوم وتقنيــات الحــرب الحديثــة والتــي كان هؤلاء المكونون الأوربيون يتقنونها ؟

إنَّنــا لا نعتقــد أن مخططــات ومجهــودات المخــزن قــد أتــت أُكلهــا، وأســفرت عــن تحــولات وتغيــرات تــذكر فــي قطــاع الجــيش لأســباب داخليــة، خاصــة ببنيــات المغــرب الاجتماعيــة، والسياســية، والثقافيــة مــن جهــة، وانشــغال هــؤلاء المكــونين بــأمور وقضــايا بعيــدة كــل البعــد عــن العمــل العســكري، أو بإعطائهــا الأوليــة علــى الأقــل. فبقــدر مــا كــان يهمهــم، قبــل كــل شــيء، التقــاط أخبــار ومعلومــات عــن الحُكــام والقبائــل، والتعــرف علــى الــبلاد وخيراتهــا الطبيعيــة، وإمكاناتهــا الاقتصــادية، وعــادات وتقاليــد أهلهــا، وكلهــا اهتمامــات بعيــدة كــل البعــد عــن الأهــداف والأغــراض التــي كــان المخــزن يتــوخى إنجازهــا وتحقيقهــا للــبلاد علــى يــدهم، بقــدر مــا نجــدهم لا يُعيــرون أدنــى اهتمام إلى مسؤولية التكوين والتدريب التي قبلوا تحملها عند استقرارهم بالبلاد.

ولا أدَلَّ علــى ذلــك مــا نستشــفه مــن الوثــائق الوطنيــة والأجنبيــة علــى الســواء، حــول الــنقص الكبيــر الــذي ظــل الجــيش المغربــي يُعــاني منــه فــي عــدد مــن التخصصــات كســلاح المدفعيــة مــثلا. ونلاحــظ هــذه الظــاهرة حتــى بالنســبة للمــدن التــي اشــتهر أبناؤهــا بــالتفوق والبراعــة فــي هــذا الميــدان، واتخــذت مركــزاً لتكــوين عناصــر مــن الكَــيش والعســكر علــى يــد أعضــاء مــن البعثــة الفرنســية، كمدينــة ربــاط الفــتح مــثلا، الأمــر الــذي دفــع بعاملهــا القائــد محمــد السويســي بــدق نــاقوس الخطــر، وإثــارة انتبــاه السلطان المولى الحسن إلى أنَّ :

> "خُطــة الطبجيــة قلــت معرفتهــا فــي هــذا الثغــر المحــروس بــالله (الربــاط)، ومــا بقــي مــن يُعَــوَّلُ عليــه فــي عملهــا إلاَّ المعلمــان الــواردانعلى الحضــرة المولويــة، وءاخــر هنــا اســمه المكــي بــن قَصَّــابة، لاكنــه كَبُــرَ سِنُّه، وضَــعُفَت قوتــه، وغيــرهم مُتَعَلمــين فــي الطائفــة، إنمــا تقــدم لهــم التعلــيم، ومــا حصــلوا علــى طائــل، وكــادت هــذه الخطــة تضــمحل، بــل إن فقــدنا المكي المذكور مع فقد المعلمين المتوجهين عدمت الخطة بالكلية..."[37].

وأشــار إلــى نفــس الخصــاص، ثــلاث ســنوات بعــد تــاريخ صــدور رســالة القائــد محمــد السويســي هــذه، القائــد محمــد بــن ســعيد الســلاوي، عامــل مدينــة ســلا، حيــث نقــرأُ فــي رســالة جوابيــة لــنفس العاهــل السالف الذكر، ما يلي:

> "... وصــل كتابــك بأنــه لــم يبــق هنالــك ممــن يُحســن علــم تَطْبْجِيــت إلا عبــد الله فنــيش، طالبــا تعيــين عشــرين ولــداً للــتعلم عليــه، ويكــون لــه ولهــم الراتــب الشــهري كمــا بالرباط..."[38].

---

37. الخزانة الحسنية ، محفظة حسنية رقم 446، الوثيقة بتاريخ 19 شعبان 1305 / فاتح مايو 1888 .
38. الخزانة الصبيحية بسلا ، سلسلةII ، حرف ب، مح 529، الوثيقة بتاريخ 15 جمادى الأولى 1309 / 17 دجنبر 1891.

3) مجهودات الدولة

3 - 1 الإرساليات الطلابية إلى الخارج

لقد بدأ التفكير في إيفاد طُلاب وصُناع مغاربة إلى بعض الأقطار المشرقية، ثم الأوربية للتكوين واستكمال الخبرة في تخصصات عسكرية وصناعية، سنوات عديدة قبل استقرار أفراد البعثات العسكرية والتقنية الأوربية بالمغرب للقيام بتكوين وتدريب جنوده وعساكره، وبعض مهرة صناعه.

هذا، وقد سبق أن ألمحنا إلى أن السلطانيين مولاي عبد الرحمان بن هشام، وسيدي مُحمد بن عبد الرحمان، ولأسباب ودوافع سياسية، وظرفية، وشخصية، ظلا يُفضلان الاستعانة بخبرات وكفاءات عسكريين وتقنيين من تركيا أو مصر، بهدف إنجاز مشاريع مختلفة في عدد من القطاعات، وفي مقدمتها قطاع الجيش، وبالخصوص بعد وقعة إيسلي سنة 1844. على أن هذا لم يمنع هذين العاهلين من إرسال عدد من الصناع والطلاب إلى الديار الأوربية للتكوين في مدارسها ومؤسساتها العسكرية والصناعية. وهذا ما نفهمه ممّا أورده صاحب **"جواهر الكمال في تراجم الرجال"**، في سياق حديثه عن أحد مُتَرجَمِيه من مدينة أسفي، ويدعى حيدة بن عبد الله بن المهدي گُرَاو، حيث قال عنه :

> "رابع أربعة من أهل ءاسفي أرسلهم السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام لبلاد أوربا لتعلم الهندسة ونحوها..."[39]

وذكر تقييد بدون تاريخ، يرجع إلى عهد السلطان مولاي الحسن، ما يلي :

> "أسماء المعلمون الجيدون (هكذا) الذي ليس فيهم أحد في خدمة المخزن أعزه الله، وفيهم من كان في بر النصارى في حياة جدنا سيدنا المقدس، فتعلم البناء، وخلط الجير إلى غير ذلك..."[40]

والمقصود هنا، طبعا، بـ "جد سيدنا المقدس" ، هو السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام. ومع اعتلاء ابنه وخلفه سيدي محمد عرش البلاد سنة 1859، وبما أن الرجل كان "متشوقا لعلم الهندسة، والتنجيم، والهيئة ..."، حسب قول المشرفي في "الحلل البهية ..."، فإنه لم يكتف

وانظر كذلك الأمر السلطاني إلى القائد السويسي المذكور، بتوجيه أحد المُعلِّمين سَبَّاطة أو إسماعيل إلى مدينة الدار البيضاء، بعد أن تُوفِّي المعلم الطُّبْجِي السلاوي بها، وبقي طُبْجِيَّتُها بلا معلم.
الخزانة الحسنية ، محفظة حسنية رقم 436، وثيقة بتاريخ فاتح رمضان 8/1311 مارس 1894.

39. الكانوني، محمد بن أحمد العبدي : "جواهر الكمال في تراجم الرجال" المطبعة العربية، الدار البيضاء، 1937، نسخة خاصة، ص13.
40. الخزانة الحسنية ، محفظة حسنية رقم 113

قـط بمتابعـة مجهـودات والـده فـي مجـال تحـديث الجـيش، وتحسـين أداء رجالـه، بـل ضـاعفها، ووَسَّع نطاقها، وعَمَّمَها على مرافق أخرى من هياكل وأجهزة الدولة.

فقد جـاء، مـثلا، فـي قائمـة تضـمنت مـا أنفقـه أمنـاء دار عْـدِيَّل بفـاس، برسـم صـائر شـهر شـوال مـا يلي:

"صـار علـى الشـاوني الـذي يـتعلم بـدار المطبعـة بمصـر مـع البْوُارِدِيَّـة الـذين يتعلمـون هنالك (صنع البارود طبعاً) ..."[41].

وبغـض النظـر عـن مسـألة الأعـداد الحقيقيـة للشـبان والصُّـنَّاع المغاربـة الـذين أُتِيحَـت لهـم فرصـة الدراسـة والتكـوين بالخـارج، علـى عهـد السـلطان مـولاي الحسـن وبالخصـوص فـي الفتـرة مـا بـين 1875 و1888، فمـاذا يـا تُـرى، عـن المقـاييس والاعتبـارات التـي كـان يرتكـز عليهـا المخـزن فـي اختيـاره لهـؤلاء الطُّـلاب؟ وهـل كانـت هنـاك شـروط معينـة لكسـب ورقـة العضـوية فـي الأفـواج التـي كانـت تتوجـه إلـى أوربـا، كالانتمـاء، مـثلا، إلـى فئـة النخبـة الحاكمـة، أو المالكـة، أو الانتسـاب إلـى قبيلـة مـن القبائـل أو جهـة مـن الجهـات؟ الحـق أنـه لا مَجَـالَ البتـة للاعتبـارات العائليـة والشخصـية، أو الفِئَويَّـة، أو الجهويـة والقبليـة فـي اختيـار هـؤلاء الشبـان،إذ المهـم بالنسـبة للسـلطان، هـو أن يكونوا صغيري السن، ومن "أهل الذكاء، والفطنة، والصحة، والجسم ..."[42].

بيـد أن اسـتنطاق الوثـائق المخزنيـة ذات الصـلة بموضـوع البعثـات الطلابيـة إلـى الخـارج، يُتِـيحُ لنـا فُرصة القيام ببعض الملاحظات، نجملها في النقط الآتية :

1) معظـم رسـائل السـلطان، أو الموجهـة إليـه مـن طـرف العُمـال والأمنـاء، تهـم مُـدُنا وجهـات دون غيرهـا **كربـاط الفـتح**، و**سـلا**، و**فـاس**، و**طنجـة**، و**الصـويرة**، و**العـرائش** ...، ولا ذكـر البتـة أو نادراً لمدن **كوجدة**، و**تطوان**، و**الدارالبيضاء**، و**مكناس**، و**مراكش** ... .

2) يبـدو أن قسـطا مـن الإلمـام بمبـادئ القـراءة والكتابـة، كـان يؤهـل صـاحبه أكثـر مـن غيـره للانضمام إلى الفوج الذي وقع على أعضائه الاختيار للذهاب إلى الخارج[43].

---

41. الخزانة الحسنية ،ق .ح، محفظة سيدي مُحمد .رقم 4 ،ويوافقشهرشوال 1283 ،شهرابيرابيرومارس1867.
42. الخزانة الصبيحية بسلا ، سلسلة II ،حرف جد، محفظة 17 ،وثيقة رقم2451 ،وهي عبارة عن رسالة السلطان مولاي الحسن إلى عامل سلا، القائد محمد بنسعيد السلاوي، بتاريخ 23 ذي القعدة 29/1294 نونبر1877.
43. كتب الباحث الأمريكي رُولمان (Rollman) فيأطر وحته تحت عنوان:
"النظام الجديد في مجتمع إسلامي ما قبل الاستعمار: الإصلاح العسكري بالمغرب (1844-1904)، مايلي:
" ..كان يتم اختيار أعضاء هذه البعثات الطلابية المتوجهة إلى أوربا للتعلم والدراسة في معاهدها، من كافة أنحاء البلاد ,واقتداءً بسياسة والده، وحتى لا يُرمى بالتحيز والتعصب إلى فئة اجتماعية معينة، أو تفضيل منطقة على أخرى، أو إثقال كاهل هذه أو تلك بِمَدِّه كل مرة، بعدد من أبنائها للسفر إلى أوربا المسيحة، فإن مولاي الحسن كان يعامل جميع رعاياه على قدم المساواة، لا فرق بين هذا وذاك، أو هذه الجهة والأخرى. بيد أنه في نفس الآن، يَبْدُو أن أهمية خاصة كانت تُعطى لدرجة الإلمام بمبادئ القراءة والكتابة، إذ كانت تُكوِّن مِقياسا من مقاييس اختيارهم، وهو الأمر الذي قد يساعد، ولا شك، على استشفاف أصولهم الاجتماعية..." .

وكما كان منتظرا، فإن إنكَلترا قد نالت حصة الأسد من مجموعة المتعلمين المغاربة بالديار الأوربية، سواء تعلق الأمر بالتخصصات العسكرية، أو بصناعات حربية مرتبطة بها، أو بدراسات هندسية وتقنية أخرى، وهذا راجع طبعا إلى نفوذ سفيرها **جوهي دراموندهي** في الأوساط المخزنية، ودور المستشار الذي كان يضطلع به في هذا المجال وغيره من المجالات الأخرى بالنسبة للحكومة المغربية من جهة، وقرب مدينة جبل طارق من مدينة طنجة التي كان يتلقى بها الموفدون إلى الخارج دروسا في تعلم الإنجليزية، أو الإيطالية، أو الفرنسية، أو الإسبانية من جهة أخرى، مما كان يخفف من وطأة الشعور بالاغتراب والابتعاد عن الأهالي والأحباب.

وأمَّا فرنسا، وهي الدولة الاستعمارية التي كان يهمها تطور الأوضاع بالمغرب، وتعمل جاهدة على ترسيخ وتقوية نفوذها فيه، فقد اسْتُبْعِدَت، أول الأمر، عن إشراكها في استقبال المبعوثين المغاربة إلى أوربا، وذلك لسببين رئيسين؛ أولهما يَكْمُنُ في عَدَم رُكُون وثقة المخزن بالمسؤولين الفرنسيين، وبالخصوص العسكريين منهم، وخوفه من أن يُعامَل المغاربة مُعاملة سيئة في مدارس ومعاهد التكوين الفرنسية، وثانيهما غلاء المعيشة والخدمات في هذا البلد، مُقارنَة مع ما كان عليه الأمر في أقطار أوربية أُخرى كألمانيا مثلا.

وقد حاول أن يتدارك هذا الموقف كُلٌّ من **إركمان**(رئيس البعثة ما بين 1879 و1883)، و**لوفالوا**Le Vallois **(** رئيسها ما بين 1883-1885)، وعملا على التلميح باستمرار، أمام مُحاوريهما من كبار أعوان المخزن، إن لم يكن أمام السلطان مولاي الحسن نفسه، إلى ما قد يجنيه المغرب من فوائد كُبرى، إذا ما أقدم على إيفاد بعثة من الطلاب المغاربة إلى فرنسا للتكوين في تخصصات عسكرية معينة. وهكذا، حاول الرائد **لوفالوا** المذكور إقناع وزير الحرب بباريز بالموافقة على مبدإ استقبال فوج من المتعلمين المغاربة بإحدى المدارس العسكرية الفرنسية، سِيَّما وأنه عرض هذه الفكرة على المسؤولين المغاربة، وتَبَيَّن له استحسانهم لها. ثم اقترح على وزيره إصدار أوامره إلى المسؤولين عن مدرسة الهندسة العسكرية **بمونبوليي**(Montpellier) لاستقبال عشرين إلى خمسة وعشرين شابا، يقضون بها ستة شهور على أكثر تقدير، علما بأن الإنفاق على سفرهم، وغذائهم، ولباسهم، كما هو الشأن بالنسبة للبعثات الطلابية إلى أقطار أخرى، تتكفل به الحكومة المغربية، في حين تتولَّى

- Rollman Wilfrid–John, «The New Order» in a Pre-Colonial Society, Military Reform in Morocco 1844 - 1990, Ph. University of Michigan, 1983, p. 721 et suiv.

السلطات الفرنسية إسكانهم، والإشراف على تكوينهم في فروع وتخصصات الهندسة العسكرية، مذكرا بالمناسبة بِقَصَبِ السبق الذي نالته إنكلترا في هذا المجال منذ سنوات، الأمر الذي أكسبها مكانة متميزة في الساحة المغربية، ومُختتما كتابه بقوله إن "من شأن ذلك أن يُساهم في نشر نفوذ فرنسا في المغرب..."[44].

واستجابت، طبعا، الحكومة الفرنسية إلى رغبة سلطان المغرب، حيث وافقت على استقبال فوج من المتعلمين للتكوين في تخصص الهندسة العسكرية بمدينة **مونبولييه**. هذا، وقد التحقوا بهذه المدينة فعلا في بداية صيف سنة 1885، وبمعيتهم **العلج محمد الممنون**، وهو بُرتغالي الأصل، واسمه قبل اعتناقه الإسلام **دون ميكَل دي كاسترو** Don (Miguel de Castro)، بصفته تُرجماناً ورئيسا للوفد.

وأمَّا ألمانيا التي لم تهتم بالمغرب وشؤونه إلاَّ في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر، فإنها اكتفت باستقبال شبان مغاربة في برلين، وكلوستهال(Klausthal)، وإيسَّن(Essen) لتكوينهم في سلاح المدفعية وتدريبهم على استعمال مدافع كروب (Canons Krupp) الضخمة التي كان المغرب قد اشتراها لتسليح البرج الكبير الذي كان قد شرع في تشييده المهندس الألماني روطنبورغ السابق الذكر، في يونيو 1888 بساحل مدينة الرباط، قرب قصبة الأوداية، ولم يَتَأتَّ نَصْبُها فيه، لأسباب تقنية، وسياسية، ومالية إلاَّ في غضون سنة 1898[45].

وكان السلطان مولاي الحسن يعهد لعدد من التجار الكبار وأبناء أعوانه المقربين بمهام ومأموريات داخل البلاد وخارجها، مُكَلِّفا إيَّاهم بالتفاوض والتعاقد مع الشركات والمؤسسات الأجنبية باسم المخزن طبعا، تفاديا لضغوط وملاحظات وتدخلات رُؤساء المفوضيات الدبلوماسية بطنجة من جهة، ولضمان قدر من الحرية والتصرف مع هذه الأطراف من جهة أخرى. وهذا ما يُفسر إشراك الحاج مُحمد بركَاش، نجل النائب السلطاني في إنجاز وتنفيذ خطط ومشاريع المخزن الهادفة إلى تحديث قطاع الجيش، سواءٌ تعلق الأمر بالبعثات الطلابية إلى الخارج، أو باقتناء العتاد الحربي والذخيرة من الأقطار الأوربية، مُكلفا على الخصوص بالعلاقات مع ألمانيا التي صار أحد المتحمسين الكبار للتعاون معها في هذا المجال وغيرهمن مجالات التعاون. ويبدو أن السلطان مولاي الحسن كان يستشيره في عدد من القضايا والنوازل، كما نلمس ذلك مما ورد في وثيقة بتاريخ 14 جمادى الأولى 1302، الموافق لفاتح

44. A. G. V, 3h4, Lettre du Cdt LeVallois au Ministre de la Guerre à Paris, en date du 20 Août 1884.

45. حول هذه النقطة وغيرها من الجوانب المرتبطة بمسألة تحديث الجيش وتكوين أطره، يُرجع إلى:
الشابي، مصطفى : الجيش المغربي في القرن التاسع عشر(1830-1912) المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، 2008، ج2، ص 327 ومابعدها.

مـارس 1885، حيـث طلـب منـه العاهـل إبـداء رأيـه فـي قائمـة التخصصـات العسـكرية والتقنيـة التـي أبلـغ رئـيس البعثـة العسـكرية الفرنسـية بـالمغرب الرائـد **لوفـالوا** العاهـل باسـتعداد بـلاده الكامـل لاستقبال فوج من الطلاب المغاربة للتكوين فيها بمدارس ومعاهد فرنسية.

ولَـئِن أبَـان الحـاج مُحمـد بركَـاش الإبـن عـن معرفـة واسـعة بقطـاع الصـناعات الحربيـة فـي الأقطـار الأوربيـة، وبنوعيـة ومُسـتوى التعلـيم العسـكري والهندسـي الـذي كـان يُلَقَّـنُ فـي مـدارس ومعاهـد كـل واحـد منهـا، كـإنجلترا، وإيطاليـا، وألمانيـا، وإسـبانيا، وفرنسـا، فإنـه، فـي نفـس الآن، لـم يخـف مشـاعره المناوئـة لفرنسـا، نـاكراً عليهـا خبـرة ودرايـة ومهـارة عسـكرييها وَمتخصصـيها فـي الهندسة العسكرية والصناعات الحربية.

ونستشف شيئا من هذا، مثلا، فيما جاء في الفقرة الآتية :

"... فـيعلم مولانـا أدام الله عُـلاه، أننـا تأملنـا فيمـا أشـار بـه المـذكور(لوفـالوا)، فلـم يظهـر فيـه سـوى الصـائر مـن غيـر كبيـر نفـع يعـود منـه، إذ نحـن فـي غنـى عـن جميـع ذلـك. أمَّـا تَنَجَّرتَ، وَتَحَدَّدَت، وتَخَرَّزت، وتَسَرَّجت أي صـنعة البـرادع، فكلهـا موجـودة بأرضـنا، على وفق ما يُستعمل فيها، في جميع ما يتوقف عليه ...".

وفـي مُقابـل هذا، فـإن هيتبنـم وقفـا مؤيـداً ومتعاطفـا مـع ألمانيـا، معربـا عـن إعجابـه الكبيـر بعسـكرها وأربا بصناعاتها الحربي، ولهذا،

"فالكفيل بهذه العلوم والصنائع وغيرها هو جنس الألمان معقلة الصائر هناك . فينظر سيدنا أعزه الله فيغير هذا صُحْبَتَهما كتبـه باشدور الألمـان فيشـأن العسـاكرية 3 الـذين توجهوا للتعلم فـي برلين، وكم يلزم فـي صـائرهم الشـهري مِمَّـا هو نحـو النصـف من صائر المتعلمين الذين هم بفرنسا نحو الستسنين... ".

ويختم بركَاش رسالت ههذه بإثارة انتباه السلطان مولاي الحسن إلى أن جميع المغاربة الـذين أُتيحت لهم فرصة التعلم والتكوين بمعاهد ومدارس إيطاليا، وألمانيا، وبلجيكا، وإسبانيا، قد نـالوا نصـيبا مهمـا مـن المعرفة والخبرة والتأهيل، فيحين لميحص لأقرانهم الذين سافروا إلى فرنسا على طائل فـي هذا المجـال، اللهم ما اكتسبوه من :

"معرفـة اللسـان التـي يصـلحوا بهـا نجعلهم ترجمانـات للأنـاس الـذين توجهـوا للتعلم بالبلجيكية.."[46].

ومهمـا يكن مـن أمـر، فمـاذا تكون للبلاد قد جنتـه مـن وراء إيفـاده المئـات مـن أبنائهـا للتكوين والتعلم، واستكمال الخبرة في مدارس عسكرية ومؤسسات تقنية أوربية، في إنكلترا، وإيطاليا، وبلجيكا،

46. الخزانة الصبيحية بسلا، حرف ج، محفظة 41 ، وثيقة رقم 6054 ، بتاريخ 14 جمادى الثانية 31/1302 مارس.1885

وألمانيا، وفرنسا، وإسبانيا، وحتى الولايات المتحدة الأمريكية، علما بأن ذلك كان قد تطلب رصد مبالغ مالية هامة، طيلة الثلاثين سنة الأخير، تقريبا، من القرن التاسع عشر؟

فبالنسبة لصاحب "إتحاف أعلام الناس... " مثلا، فإنه يرى أن البلاد لم تستفد شيئا يُذكر من خبرات وكفاءات هؤلاء المتعلمين الشباب، بسبب المعارضة الشديدة التي وُوجِهُوا بها، بمجرد عودتهم إلى البلاد، من قبل بعض أعوان المخزن الكبار الذين رأوا فيهم مُنافسين خطيرين، فخافوا أن يَنْفَلت ويضيع ماكان بيدهم من سلطة ونفوذ، إذ كتب يقول:

" ...ولما زاولوا دروسهم وملئوا بكل نافع حقائبهم، يَمَّمُوا بلادهم ليبثوا فيها ماينفع مُستقبَلهم، فلم يعدموا مُعاكسا وقف في سبيلهم، وحَرَمَ البلاد والعباد ما يُرجى من فوائد معارفهم بفتح المدارس وسلوك هذا السبيل، كما سلكه أهل اليابان لذلك العهد الذي نرافق وهم في دروسهم، فكانت أن تقدم اليابان وتأخرنا، ولله في خَلقه شؤون..."[47].

لاَ شك أن حكم مؤرخ مكناس هذا سديد وينطوي على قسط كبير من الحقيقة، إذ حالت عوائق بنيوية، وثقافية، وتنظيمية، وغيرها دون تمكن المخزن من الاستفادة من ثمار هذه المُبادرة القويمة في حَدِّ ذاتها .فقد عاد هؤلاء المبعوثون بتكوين وتجربة .ولو أتيحت لهم الفرصة ليظهروا كفاءاتهم حتى يلحظهم المخزن، لَوُلِيَّ بعضهم على الإيالات ولساهموا في تحديد قطاع الجيش والنهوض بشؤونه. ثم إنه لمن المؤكد كذلك أن المدربين العسكريين الأجانب قد نجحوا في نسف عمل الأطر المغربية المكونة بالخارج .

3 - 2 تأسيس صناعة وطنية لصنع البنادق والذخيرة

من العيوب والنقائص التي ظل يُعاني منها الجيش المغربي، على امتداد القرن التاسع عشر، افتقاره إلى سلاح ناري حديث ومتطور، على غرار ما كانت تتوفر عليه جيوش عدد من دول أوربا الغربية وقتئذ، من عتاد حربي متنوع وفتَّاك، كان يُساعد على إرهاب وإسكات الخصم، واقتحام معسكره ومعاقله، وتشتيت صفوفه وجموعه.

فإذن، لاعجب والحالة هذه، أن ينهزم المغاربة، كلما اضطرتهم الظروف وملابسات الوقائع والأحداث، إلى خوض غِمَار معركة كبرى ضد جيش من جيوش أوربا الغازية، دفاعا عن العقيدة، والشرف، والكرامة، وحوزة الوطن.

47. ابن زيدان، عبدالرحمان :"إتحاف... "، مرجع سابق ، ج2 ،ص.465 .

ومن المعلوم، كذلك، أن مجهودات الدولة في مجال تأسيس صناعة حربية وطنية، قد مرت بمراحل مختلفة، واصطبغَت كل واحدة منها وتأثرت بشخصية وميولات وانشغالات العاهل الحاكم، وما يكون قد تخلل فترة حكمه من أحداث ووقائع سياسية وعسكرية[48].

ووصولا إلى هذه الغاية، فقد بُذلت مُحاولات أولى على عهد السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام، إذ اتخذت مجموعة من التدابير والترتيبات للشروع في صُنع البنادق والبارود في معامل بعض المراسي والمدن الداخلية **كتطوان**، و**العرائش**، و**مكناس**... ، على أن الحاضرتين الأوليين قد ظلتا نشيطتين في هذا المجال على عهد العاهل المذكور، كما نتبين ذلك من المصادر والوثائق التي تقدم لنا مادة متنوعة ووفيرة عن اهتمام المخزن بصناعة السلاح في المدينتين المذكورتين، علاوة على مدينة **طنجة**، وعن جوانب أخرى مرتبطة بها، وعما كان يصدره السلطان من أوامر وتوجيهات إلى **القائد محمد أشعاش**، باشا **تطوان**، في شأن حَثِّ وحمل "المعَلِّمين" على مضاعفة جهودهم للرفع من إنتاج البنادق، والذي كان لا يتعدَّى أربع عشرة مكحلة في اليوم، كما نفهم ذلك من الفقرة الآتية:

> "...وها أمرنا للسعيدي يُوافيك، وجههله على شأن الإقامة التي ببلاد أنجرة، وامر صانعي العُدة بتضعيف مايدفعون بأن يدفعوا أربعة عشر، وما يدفعونه سَرِّرْه فَوراً، واتركه بالخزين ..."[49]

على أن هذه الصناعة كانت تكتسي طابعا تقليديا وطائفيا، أي أن إنتاج المكاحل، وإنتاج البارود والخرطوش فيما بعد في كل من **فاس**، و**مراكش**، و**مكناس**، كان يتم في إطار تخصصات معينة.

وهكذا، كان يشتغل جنبا إلى جنب "الزنايدية" وهم الصُّناع المختصون في صنع صفائح "آليات القذف"، و"السرايرية" ويختصون في صُنع "القناة الخشبية التي تُركب فيها الجعبة"،

---

48. حول الصناعات الحربية بالمغرب، في الفترة موضوع هذا البحث، وكذا في العصور قبلها، يرجع إلى:
- الخوجة، محمد بن أحمد التونسي : رسالة في طريقة تحديث الجيش المغربي .م .و .م .م،مخ رقم ك2733 ،ص 5 ومابعدها.
- المشرفي، مُحمد بن محمد بن مصطفى : "الحلل البهية ..."، م. س، ص. 315
- المنوني، محمد، "مظاهر يقظة ..."، مرجع سابق، ج 1، ص. 92
- المنوني، محمد، *ورقات عن حضارة المرينيين*، كناش أ. ر، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1996
- المهناوي، محمد، السلاح الناري بمغرب السعديين، د. د. ع، فاس، 1988، ص. 22 وبعدها.
- برادة، ثريا، *الجيش المغربي وتطوره* .. ، مرجع سابق، ص. 297 وما بعدها.
- Delhomme (cap.), *Les Armes dans le Sous Occidental*, Archives Berbère, Vol. 2, Fasc. 2, 1917; p. 123-129.
- Romain Rainero, « La Création de la Fabrique d'Armes de Fès, la Makina », in *la Politique Marocaine de l'Italie, Revue Maroc - Europe*, Rabat, 1994, N° 7, p. 177-196.

49 XXXXXXXXXXXXXX

و"الجعايبية" ويتولون صنع الأنبوب الحديدي الذي يملأ بالبارود، وجميعهم يشتغلون في استقلال تام بعضهم عن بعض[50].

وأيّاً كان الأمر، فإن عهداً جديدا في تاريخ مدينة تطوان، بل المغرب بأكمله، قد دُشِّنَ فعلا على إثر هزيمة المغاربة أمام الاسبانيين سنة 1859-1860، وما أسفرت عنه من عواقب وخيمة على نشاط وحيوية هذه المدينة الجريحة وأهلها على الخُصوص.

وهذا يعني أن فترة تميزها وتفوقها في مجال صُنع العتاد الحربي وغيره من المجالات الإنتاجية قد انتهت وولت، حيث اضطر سلطان المغرب وقتئذ، سيدي محمد بن عبد الرحمان، أمام تهديدات وتحرشات الدول الاستعمارية، إلى التوجه إلى الحواضر الداخلية الكُبرى **كفاس** ومكناس و**مراكش** لإنشاء مجموعة من معامل الصناعة الحديثة، سواء في قطاع صنع العتاد الحربي، أو غيره من القطاعات الإنتاجية الأخرى، دون أن ننسى المنافسة القوية التي صار يواجهها الإنتاج الوطني من العتاد الحربي وغيره من المنتوجات أمام مثيلاتها الأوربية، إذ أخذت تَبُورُ العديد من الصنائع والأنشطة الحرفية في عدد من القطاعات هنا وهناك، وبالخصوص في مدينة تطوان[51].

ثم إن لعدد من المدن والمناطق المغربية تقاليد عريقة وراسخة في مجال صناعة العُدة والذخيرة **كفاس**، و**مكناس**، و**مراكش**، و**تطوان**، و**العرائش**، و**جبال الريف**، و**تازة**، و**سوس** ... أما الحواضر الثلاثة الأولى، فلأنها اتُّخِذَت عواصم للدول التي تعاقبت على الحكم بالمغرب، وذلك منذ نشأتها على يد الأدارسة حتى سنة 1912، الأمر الذي أهلها قبل غيرها إلى احتضان هذا النوع من الصناعة فيما بعد، اعتباراً من ظهور صناعة البارود بالبلاد، أيَّامَ دولة بني مرين من جهة، وانتشار صناعة السلاح الناري بها، أواسط القرن السادس عشر من جهة ثانية[52].

أمَّا المناطق التي ذكرناها هنا، نظراً لاشتهار قبائلها بخدمتها لمادة البارود على الخصوص، إمَّا بسبب الاحتياج إليها من أجل الدفاع عن النفس والعشيرة والممتلكات ضِدَّ الأعداء والخصوم من القبائل المُجاورة، وإمَّا لتسويقها والحصول على منتوجات ومواد أخرى، فمنها

---

50. Alexandre Joly, Tétouan, Archives Marocaines., Vol. 11, 1907, p. 161-197.

51. روجي لوتورنو، "فاس ..."، مرجع سابق، ج 1، ص 54.

52. ذكر الباحث البولوني ذزيوبَنْسْكي، في مقالته حول "الجيش والاسطول الحربي ..." ، أنه اعتباراً من سنة 1549، شرع في إنتاج البارود بمدينة فاس، ثم في سنة 1558 بمدينة مراكش.
وانظر كذلك، حول هذه الصناعة وصناعة الأسلحة النارية بالمغرب :
المهناوي، محمد، *السلاح الناري بمغرب السعديين*. د.د.ع، ك.أ.ف، 1988، ص. 145 وما بعدها.
العيساوي فاطمة ، *جوانب من علاقة المخزن بالحرف 1822-1894* ، د.د.ع، ك.أ.ر، 1989، ج 1، ص. 57 وما بعدها.

اثنتان كانتا تقعان في أطراف البلاد وتخومها، في حين كانت الثالثة وهي تازة ونواحيها تَتَوَغَّلُ في شواهق الجبال، صعبة المنَال والاقتحام، تنشط وتزدهر بها تجارة التهريب، سِيَّما وأن انفتاح الريف وسوس على واجهتين بحريتين كان يُغْرِي أكثر من قبيلة للدخول في علاقات تعامل وتبادل مع الأجانب، علماً بأن هذه الجهات كلها كانت تتوفر على المواد الأولية الضرورية لصنع البارود على الخصوص[53].

وفيما يتعلق بظهور صناعة حربية حديثة بالمغرب، وبمدينة فاس على الخصوص، في القرن التاسع عشر، فقد أحاطت بعدد من جوانبها دراسات وبحوث جامعية، فضلا عما ورد في شأنها من بيانات وتفاصيل عند ثُلَّةٍ من المؤرخين المغاربة القُدامى كصاحب **"البستان الجامع لكل نوع حسن..."محمد بن إبراهيم السباعي**، أو مُؤَلِّف **"إتحاف أعلام الناس..."عبد الرحمان ابن زيدان**، من حيث ظروف وملابسات إنشاء معمل لصنع العدة والذخيرة من هذا الحجم بالمدينة المذكورة، على يد تقنيين وعسكريين إيطاليين، وفي مقدمتهم الليوتنان كولونيل جيورجيو بركَولي (Georgio Bergoli)، من رديف الجيش الإيطالي ومختص في سلاح الخيالة، في الفترة ما بين 1889 و1893، والمشتغلين فيه أيضا من المغاربة، فيهم الشبان والمعلمين المكونين بالبلاد الأوربية، ومن بينهم المتخرجين من الأكاديمية الملكية العسكرية بمدينة طورينو(Torino)، ما بين1879 و1888 على الخصوص[54].

ومعلوم أيضا أن وقوع اختيار المولى الحسن على إيطاليا لإنجاز المشروع لم يكن قط وليد الصدفة، أو ضغوط أجنبية على العاهل المغربي، بل بعد تفكير وإمعان النظر في الموضوع، إذ كان الغرض منه، قبل كل شيء، هو تحقيق هدفين أساسيين بالنسبة للبلاد، أولهما في السعي إلى تطور صناعة حربية حديثة، وأمَّا ثانيهما فكان القصد منه الإفلات من قبضتي الفرنسيين والإنجليزيين على السواء، الأمر الذي ينسجم مع سياسته وتعامله مع الدول الأوربية.

---

53. Robert Montagne, Les Berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc. Edit. Alcon, Paris, 1932, p. 335.
في الفقرة الآتية، يشير المؤلف الذي لا يمكن بأي وجه من الوجوه اتهامه بالانحياز إلى المغرب وحكامه، بسبب مواقفه ومُيولاته المُؤَيِّدَة لمخططات دهاقنة الاستعمار في كل من الجزائر وباريز، إلى هذه الظاهرة، حيث كتب ما يلي : "بقدر ما كان يحتدم التنافس والصراع في صفوف الدول الأوربية، بهدف التدخل في شؤون الأمبراطورية المغربية، بقدر ما كانت تزدهر حركة تسريب الأسلحة إلى الجهات الجنوبية للبلاد. وكانت بعض هذه الدول (إشارة ولاشك إلى إنكلترا وإسبانيا)، تشجع على استيراد البنادق والقرطوس، دون ترخيص طبعا من المخزن، انطلاقا من سواحل الريف وسوس...".

54- السباعي، محمد بن إبراهيم (ت 1914/1332) : البستان الجامع لكل نوع حسن وفن مستحسن، في عَدِّ بعض مآثر السلطان مولاي الحسن. مخطوط المكتبة الوطنية للمملكة المغربية رقم د 1346.
- ابن زيدان، عبد الرحمن : إتحاف أعلام الناس ... ج 2، ص. 495.

هـذا، وقـد انتهـت أشـغال البنـاء فـي المعمـل سـنة 1893، بعـد أن دامـت أربـع سـنوات بالتقريـب، تخللتهـا فتـرات مـن العمـل الـدؤوب والتواصـل والتفـاهم التـام بـين أفـراد البعثـة الإيطاليـة المكونـة، فضـلا عـن رئيسـها بركَـولي المـذكور، مـن النقيـب مـاجور لـويجي فالطـا(Cap. Major Luigi Falta) ،الـــذي عُـــوِّض، فـــي بدايـــة صـــيف 1889، بالرائـــد فـــرارا(Cdt Ferrara)،والميكـــانيكي باتيســـتانوطاري (BattistaNotari) والمخـــزن أحيانـــا، وفتـــرات توقـــف عن العمل وتوتر في العلاقات، وسوء تفاهم بين الجانبين أحيانا أخرى.

وكـان يحـدث هـذا كلـه وسـط مُضـايقات، ودسـائس، ودعايـة مغرضـة، كانـت تُحبـك خيوطهـا فـي المفوضـية الفرنسـية بطنجـة، وكـان يَتَـوَلَّى تنفيـذها أعضـاء البعثـة العسـكرية الفرنسـية بـالمغرب، إذ كـان مـن شـأن نجـاح المشـروع أن يمكـن المغـرب مـن سـد حاجياتـه مـن البنـادق والـذخيرة، وبالتـالي أن يؤدِّي إلى توقف مبيعات فرنسا من هذه المنتوجات إلى المغرب.

وكانـت أشـغال البنـاء بـدار السـلاح هـذه لازالـت مسـتمرة أواخـر شـهر مـايو مـن سـنة1891، إذ تطلعنـا وثيقـة مخزنيـة صـادرة فـي هـذا التـاريخ علـى تعيـين **الأمـين الطـاهر بـن التهـامي سـميرس بنـاني** مكلفـا بـ **"الصـائر علـى الفبركـة السـعيدة"**، وعلـى التعليمـات الصـادرة لـه فـي هـذا الشـأن، وعلـى الأوامـر الموجهـة إلـى سـلطات المدينـة بشـد أزره، وتقـديم كـل الـدعم والعـون إليـه، وبالخصـوص إلـى أمـين **"البنايـات السـعيدة" عبـد السـلام المقـري** بـأن يُمكِّنـه، علـى رأس كـل شـهر، مـن كميـة مـن الجيـر الـذي يـتم صـنعه مـن قبـل "الجِيَّـارة"، والـذي جـرت العـادة بـأن يختص المخزن بثلث ما كان يُنتج منه يومياً[55].

وفي 12 مارس1893، قُدِّمت البندقيتان الأوليان اللتان تم صنعهما بدار السلاح.

وأمَّـا إنتـاج الـذخيرة بالمعمـل الجديـد، فكـان يقتصـر علـى القرطـوس وحـده، تحـت إشـراف المُتعـاونين الإيطـاليين، فـي حـين ظـل البـارود يُصـنع علـى الطريقـة التقليديـة القديمـة، علـى يـد معلمـين آخـرين كـان المخـزن يتعاقـد معهـم شخصـيا علـى مقتضـيات وشـروط إنتاجـه التقنيـة والمالية، وعلى يد أمناء البارود الذين كان يتم اختيارهم من بين التجار النشيطين والحُذَّاق.

ولكـن، مـاذا عـن جـودة القرطـوس والبـارود المصـنوعين محليـا، الأول علـى يـد "حَرَّابَـة الأجنـاس"، والثـاني علـى يـد معلمـين مغاربـة، فـي فـاس، ومكنـاس، ومـراكش ...؟ هـذا مـا تجيبنـا عنـه وثيقتـان مخزنيتـان، تضـمنتا نتيجـة الاختبـار الـذي أُجْـرِيَ علـى عَيِّنَـةً مـن القرطـوس المصـنوع

55- الخزانة الحسنية، كناش 630، ص. 35.

بمعمل السلاح الجديد بفاس، على يد "الحَرَّاب" الإنجليزي ماك لين السابق الذكر ورئيس البعثة العسكرية الفرنسية بالمغرب وقتئذ الرائد شلومبرجي (Cdt. Schlumberger)، بمحضر السلطان مولاي الحسن، وأن النتيجة لم تكن مرضية، حيث لاحظ الضابطان المذكوران ومُساعدوهما المختصون في سلاح المدفعية وعلم القذائف على الخصوص(la balistique)، عدداً من العيوب والنقائص، سَوَاءٌ من حَيْثُ نوعية المواد المستعملة في صُنعِه، أو مقاديرها، نُجملها في النقط الآتية:

1)وزن كابْسُولَة القرطوس لم يتعد 12,50غراما، في حين أن وزن نظيرتها "الرومية" أي المستوردة من الخارج، كان لا يقل وزنه عن 17,50غراماً.

2) غشاء الكَابْسُولَة مصنوع من حديد رهيف، ونُحاسها ناقص الصقل والتلِيين، وقُطرها أصغر من قطر جعبة البُندقية التي صُنِعت قَدِيفةً لها، الأمر الذي يُؤدِّي حتما إلى انشقاقها وانشطار أجزائها وقت الاستعمال، أي الرَّمي.

3) خُلُوُّ حَبَّةِ البارود، أي الرصاص من "اليستري" (le lustre)، وهو طَلاَءٌ طبيعي كان يكتسبه البارود، بعد "تَزْدِيجِهِ"، وذلك بِسَقْيه، من حين لآخر، حتى يظهر عليه شيء من اللَّمَعان، ويُصبح بالتالي أكثر مناعة ضِدَّ الرطوبة التي كانت تَتَسَبَّب في إتلاف كميات هائلة من البارود المخزون هنا وهناك، وبالخصوص في المراسي[56].

واضح، إذن، مِمَّا سبق ذكره، أن القرطوس المصنوع محلياً، لم يكن من النوع الجيد، وهو الأمر الذي تُؤَكِّدُه الوثائق المتوفرة لدينا حول هذا الموضوع خلال هذه الفترة وإلى غاية سنة 1912، حيث نسْتشف من مصادرنا حول صناعة العدة والذخيرة، أنَّ ما استمرت المعامل المغربية تنتجه منها، هنا وهناك، ظل من النوع الرديء، مُقَارَنَةً بما كان يُصنع منهما بالمعامل الأوربية. وهكذا، وفي سياق الحديث عن تجربة أخرى من نفس النوع، أجريت هذه المرة بمدينة مراكش، ثلاث سنوات بالتقريب بعد التجربة السابقة، على عينة من بارود صُنع على يد **المعلم بلحبيب**، وهو ممن قد تدرب على هذه الصناعة وغيرها بإنكَلترا، وبصفته كذلك عضواً في لجنة الاختبار، أبدى الرائد شلومبرجي مُلاحظاته على مُحاولة الصانع المغربي وجميعها سلبية، حيث نَصَّت بالأرقام على عيوب ونقائص البارود المصنوع بمعامل مراكش[57].

56- الخزانة الحسنية، كناش 694، ص. 33، رسالة السلطان مولاي الحسن إلى الأمين المقري، وهي بتاريخ 6 شوال 12/1311 أبريل 1894.
57 A.G.V, 3h 11, Rapp. Du Gdt Schlumberger n° 22, du mois de Juin 1897, p. 8.

مـن جهـة أخـرى، كثيـرة هـي الوثـائق المخزنيـة التـي تـرد بهـا معلومـات ومعطيـات عـن نوعيـة المُسـتخدمين فـي معمـل السـلاح بفـاس، وعـن عـددهم، وأجـورهم، ووثيـرة إنتـاجهم مـن البنـادق فـي الشـهر، والتعليمـات والأوامـر الصـادرة إلـى القيمـين عنـه، وعلاقـات هـؤلاء بـالتقنيين الإيطـاليين. ولا بـأس أن نسـتدل هنـا، علـى سـبيل الاسـتئناس فقـط، لا الحصـر، بمـا تقدمـه واحـدة مـن وثائقنـا مـن معلومـات، حـول هـذه الجوانـب وغيرهـا، فـي الفتـرة المتراوحـة مـا بـين 17 رجـب 1311 و6 صـفر 1313، الموافـق لِــ 24 ينـاير 1894 و29 يوليـوز 1895. وهكـذا، نعلـم أن الإنتـاج خـلال هـذه الفتـرة، ظـل يتـراوحُ مـا بـين 40 و100 بندقيـة فـي الشـهر، مـن نـوع بُـوحَفْرَة، أي مـارتيني - هنـري (Martini-Henry)، كـان يتسـلمها الأمنـاء مـن القـيم الإيطـالي علـى المعمـل، وكـان يشـارك فـي صُـنعها حـوالي 135 عـاملا، كـان يُعْطَـى لكـل واحـد مـنهم حـوالي 25 أوقيـة يومياً، تحت إشراف 12 معلما، راتب كل واحد منهم حوالي 63 أوقية في اليوم[58].

وأيًّـا كـان الأمـر، فـإن المخـزن قـد ظـل يعلـق آمـال عريضـة، ويـولي اهتمامـا خاصـاً لمسـألة انتظـام عمليـة إنتـاج العـدة والـذخيرة بالمعمـل الجديـد، مطالبـا القـيم الإيطـالي عليـه بالإيفـاء بمـا سـبق أن التـزم بـه، باسـم دولتـه، فـي هـذا الصـدد، أي تعهـده بصـنع 100 بندقيـة و20000قرطوسـة فـي الشهر.

بيـد أن الجانـب الإيطـالي، ولأسـباب تقنيـة ومادية ولاشـك، كـان لا يـتمكن، فـي غالـب الأوقـات، مـن الإيفـاء بوعـده، الأمـر الـذي يثيـر حفيظـة السـلطان مـولاي الحسـن، ويحملـه علـى الاحتجـاج علـى السـير البطـيء لعمليـة الإنتـاج "بالفابريكـة السـعيدة"، وعلـى التهديـد بـإغلاق أبوابهـا، وتسـريح جميع العاملين بها، مغارب وأجانب على السواء.

ثـم إن خيبـة أَمَـلِ السـلطان وأعوانـه، كانـت لا تقتصـر فقـط علـى جانـب تعثـر الإنتـاج بالمعمـل المـذكور، بـل نلمسـها أيضـا مـن حكمهـم علـى القيمـة الحربيـة للسـلاح والـذخيرة اللـذين كـان يـتم صـنعهما بـه. فقـد جـاء فـي رسـالة وزيـر الحـرب المهـدي بـن العربـي المنبهـي إلـى أمـين الأمنـاء محمد التازي ما يلي :

> "... فـإن مـا عنـد القائـد الجيلانـي الـدمناتي (عامـل دمنـات وقبيلـة إينولتـان) مـن العُـدَّة هـو مـن عمـل المكينـة (أي معمـل السـلاح بفـاس)، ولا يخفـاك عملهـا، ومـا يحـدث بهـا مـن الفسـاد. ولأجـل ذالـك، طلـب إبـدال مـا بيـده منهـا لإخوانـه الحـاركين معـه بقصـد الغـرض،

58- الخزانة الحسنية، كناش 210، ص. 3 وما بعدها.
تُفيد وثيقة بتاريخ 12 رمضان 1305، الموافق لـ 23 مايو 1888، أن مئونة "الطالب" المختار الرَّغَّاي اليومية، بصفته مُتَرْجِماً "للفسيالات الطاليالبين" قد حُدِّدت في 45 أوقية يَوْميا، علما بأن ثمن خبزة واحدة بمدينة الجديدة، في أبريل 1887، هو 25 أوقية.
- خ.س،ك 140

وعنـد تمامـه، تُحـاز مـنهم، فـإنهم نَفَّاعـة لتقـف فـي ذالـك حتـى يحوزونهـا بالقصـد المذكور"[59].

3 - 3 استيراد السلاح والذخيرة ومحاولة إحياء الأسطول الحربي المغربي

لـيس مـن الصـعب علـى مـن نَقَّـبَ فـي الوثـائق المخزنيـة بالدرجـة الأولـى، أن يَتَبَـيَّن علـى وجـه العمـوم، الظـروف والملابسـات التـي كانـت تُحـيط بعمليـات اقتنـاء المخـزن للعتـاد الحربـي مـن الـبلاد الأوربيـة، علـى امتـداد القـرن التاسـع عشـر. ونقصـد بهـذا، علـى الخصـوص، مـا كانـت تنفـرد بـه سياسـة كـل واحـد مـن سـلاطين الفتـرة، بـدءاً مـن عهـد السـلطان مـولاي عبـد الرحمـن بـن هشـام، وانتهـاءً بعهـد مـولاي عبـد الحفـيظ، وهـي سياسـة سـاهمت فـي بلورتهـا عوامـل سياسـية، واقتصـادية، وشخصـية. ومـن ثمـة، فعـوض التركيـز علـى الجوانـب الكميـة والماليـة لـواردات المغـرب مـن السـلاح النـاري والـذخيرة، فإننـا سـنُحاول التعـرض إلـى قضـايا أخـرى، كمـا تتـراءى لنا من مصادرنا الوافرة العدد حول ما نحن بصدد مُعالجته في مبحثنا هذا.

وأول ملاحظـة تتبـادر إلـى ذهننـا، فـي هـذا الصـدد، أن اعتمـاد المغـرب علـى الـدول الأوربيـة فـي تسـليح مُقاتليـه، يعـود إلـى عشـرات السـنين قبـل الشـروع فـي إنجـاز مشـروعه التحـديثي، أي أن التبعية كانت بنيوية وليست ظرفية.

وأمَّـا الملاحظـة الثانيـة، فَـتَكْمُن فـي ظـاهرة اضـمحلال وتقهقـر أهميـة مراسـي شَـمَالِي المغـرب، أي تطـوان وطنجـة، والعـرائش، باسـتثناء هـذه الأخيـرة، حيـث اسـتطاعت الاحتفـاظ علـى دور المُصَـدِّر والمُسْـتَقْبِل الـرَّئيس لمدينـة فـاس، بمـا كانـت تُصـدره مـن سـلع ومنتوجـات إلـى الخـارج، أو يـرد عليهـا منهـا عـن طريـق البحـر، وذلـك علـى امتـداد النصـف الثـاني مـن القـرن التاسـع عشـر، فـي حـين صـارت مراسـي الواجهـة الأطلسـية، وفـي مقـدمتها الجديـدة، والصـويرة، والـدار البيضـاء، تتـولى استقبال معظم مشتريات المغرب من السلاح والذخيرة[60].

وأمَّـا الملاحظـة الثالثـة والأخيـرة، فتتعلـق بالأشـخاص، مغاربـة وأجانـب، والـذين كانـت تـتم علـى يـدهم عمليـة جلـب العُـدَّة والـذخيرة وغيرهمـا مـن المنتوجـات، والآلات، والمعـدات مـن الـبلاد الأوربيـة، إذ كـان مـنهم بعـض أعْـوَانُ السـلطان الكبـار، **كـالوزير الصـدر الطيـب بـن اليمـاني بوعشـرين، وبعـده الحاجـب موسـى بـن أحمـاد**، وأمـين الأمنـاء محمـد بلمـدني بنـيس، **ومحمـد الزبـدي الربـاطي، والنائـب مَحمـد بركَـاش** بعـد تنحيـة مَحمـد بـن عبـد الله الخطيـب التطـواني مـن

59- مديرية الوثائق الملكية بالرباط ، محفظة 3، الوثيقة بتاريخ 16 ربيع الأول 12/1321 يونيو 1903.

60 XXXXXXXXXXXXXXXXXx

هـذا المنصـب، وثلـة مـن كبـار التجـار النشـيطين **كمصـطفى الـدكالي وولدُهمُحمـد، ومحمـد بـن عبـد الرحمـان بـن عبـد الجليـل الفاسـي** الـذي كانـت تجارتـه ذائعـة ورائجـة بجبـل طـــارق، وفرنســـا، وبلجيكـا، بالاشـتراك مـع الأمـين بنـيس المـذكور. وإلـى هـؤلاء، كـان ينضـاف، بـين الفينـة والأخـرى، وسـطاء آخـرون، سـواء مـن السـلك الدبلوماسـي كالقنصـل الفرنسـي **أوكَسـت بـوميي** (Auguste Beaumier)، أو السـفير الإنجليـزي جـون هـي دراموندهي، أو مـن فئـة التجار الأجانب كالإنجليزي جمسكارتس(James Curtis)[61].

وأمـا فـي عهـد السـلطان مـولاي الحسـن، فقـد زاد الاهتمـام بقضـايا تسـليح الجنـود المغاربـة، وتحصـين بعـض مواقـع الـبلاد السـاحلية، فـي إطـار مشـروعه التحـديثي لقطـاع الجـيش والـذي ارتكـز، كمـا أسـلفنا القـول فـي ذلـك، عـن إيفـاد شـبان مغاربـة إلـى الخـارج للتكـوين والـتعلم فـي عـدد مـن التخصصـات الهندسـية والعسـكرية، وتأسـيس نـواة لصـناعة حربيـة حديثـة بفـاس، ومـراكش، والاسـتعانة بضـباط إنكليـزيين وفرنسـيين لتـدريب بعـض فـرق الكَـيش والعسـكر علـى طُـرق الحـرب العصرية، وأخيراً اقتناء السلاح والعتاد الحربي من أوربا، وإحياء الأسطول الحربي المغربي.

ويتجلـى لنـا ذلـك وبكـل وضـوح مـن مُؤَشِّـرَيْنِ اثنـين، أحـدهما شـكلي، ويتعلـق الأمـر بـوفرة الوثـائق الوطنيـة والأجنبيـة التـي تـرد بهـا أرقـام ومعطيـات عـن مشـتريات المغـرب مـن العُـدة والـذخيرة علـى عهـد هـذا العاهـل. وأمَّـا ثانيهمـا وهـو موضـوعي، ونعنـي بـه أهميـة المخـزون مـن أنـواع الأسـلحة الثقيلـة والخفيفـة، وكـذلك الـذخيرة التـي تركهـا لخلفـه السـلطان مـولاي عبـد العزيـز، بـالنظر إلـى مـا وحده من هذا كله عند اعتلائه عرش البلاد سنة 1873.

فبينمـا لـم يكـن عـددها لا يتعـدى عشـرين قطعـة علـى أكثـر تقـدير، ومـن العينـات القديمـة التـي يرجـع تـاريخ صـنعها إلـى أواخـر الثلاثينـات مـن القـرن التاسـع عشـر، فقـد بلـغ عـددها فـي بدايـة سـنة 1894، أي شـهور معـدودات قبـل وفـاة المـولى الحسـن، حسـب تقـدير النقيـب تومـاس (Cap. Thomas) ، عُضـو البعثـة العسـكرية الفرنسـية بـالمغرب والمخـتص فـي سـلاح المدفعيـة، 63

---

61. مديرية الوثائق الملكية بالرباط ، محفظة 1، رسالة أمناء العدوتين الرباط وسلا، إدريس بنيس، ومحمد بريشة، والعربي فرج، إلى محمد بلمدني بنيس 15 محرم 1277، الموافق لـ 3 غشت 1860، يُخبرونه فيها أنهم دفعوا 10000 ريال إلى التاجر محمد بن عبد الرحمن بن عبد الجليل تنفيذاً لأوامر السلطان بهدف شراء البنادق من أوربا.

- F.O, London, 174/138

رسالة جون هي دراموندهي إلى النائب السلطاني بطنجة مَحمد بركاش، وهي بتاريخ 9 مارس 1867، في شأن "الكَوَاريط"، أي أسرَّة المدافع وعددها 31، والتي كان التاجر مصطفى الدكالي قد طلب صنعها لحساب المخزن إلى رَبِّ معمل لصُنع السلاح بمدينة "اللِّيْلِيْوُلْ"، أي ليفربول (Liverpool) بإنكلترا، وتركها هناك منذ خمس سنوات خلت دون أداء ثمنها.

ـ الخزانة الحسنية ، كناش 70، ص. 90.

في رسالة للسلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن إلى أميني مرسى طنجة، عبد الحفيظ برادة وعبد السلام أحرضان بتاريخ 9 رجب 1288، الموافق لـ 24 شتنبر 1871، نقرأ ما يلي :

"... فإن صاحب فابركة المكاحل بالبلجيك كان وَجَّه لحضرتنا الشريفة على يد خديمنا الطالب مَحمد بركَاش 6 مكاحل، وذلك أن ثمنها 580 فرنكاً. فنأمر كما أن تدفعا له الثمن المذكور، على يد خديمنا المذكور...".

قطعة، ما بين مدافع عادية من مختلف الأحجام والعيارات، ومدافع الهون، ومدافع رَشَّاشة من نوع كَاتلينكَ (Mitrailleuses Gatling)، دون احتساب ما كان مُنتصبا ومخزونا منها بالمراسي، ومدفعين ضخمين من نوع كروب (Krupp) وزن كل واحد منهما 40 طونا، علما بأن المخزن، في هذا التاريخ، لم يكن بَعدُ قد توصل بهما[62].

وأما البنادق، فحسب تقرير آخر أنجزه، هذه المرة، رئيس البعثة نفسه وفي نفس التاريخ تقريبا، فإن عددها الإجمالي قد بلغ حوالي 55000 بُندقية من أحجام وأنواع وجودة مختلفة[63].

ثم يُذَكِّرُ الرائد شلومبرجي بما بذله من مجهودات ومساعي للوصول إلى معرفة دقيقة لما كان المخزن يتوفر عليه من أنواع وكميات السلاح والذخيرة، ولكن بدون جدوى، إذ لا أحد من أعوان المخزن أنفسهم، حسب ادِّعائه، يعرف بالضبط ما كان يُوجَدُ منها في خزائن فاس، ومراكش، ومكناس، والمراسي، مختتما حديثه بالإشارة إلى أن البنادق ذات الرَّمي السريع لا أَثَرَ لها بيد الجُند النظامي، باستثناء ما كان يُعطى منها إلى كبار قواد الكَيش والعسكر وعناصر الحرس السلطاني، في حين أنها كانت منتشرة وعلى نطاق واسع في عدد من القبائل، ولاسِيَّما النائية والجبلية منها. وهكذا، فقد كان منها حوالي 1500 بندقية من نوع ونشستر(Winchester)، وريمنكَتون(Remington)، بيد أهالي قبائل الريف، وشمالي عمالة وجدة، وما بين 5000 و6000 بندقية أخرى من النوع الأول، أي ونشستر، جزء كبير منها من صنع ألماني، كانت بيد عناصر قبائل الغرب، وبني أحسن، وزمور، وزعير، والشاوية. وأمَّا جنوبي مدينة الجديدة، يُضيف الضابط الفرنسي المذكور، فلا وجود لأسلحة نارية مُتطورة، أو من الطراز الرفيع لدى القبائل، كما لا وجود لظاهرة تهريب السلاح والمعدات الحربية.

واضح مِمَّا سبق ذكره، أن شلومبرجي هذا وأضرابه من رؤساء البعثة العسكرية الفرنسية بالمغرب وعدد من أعضائها، بقدر ما كانوا يشوهون سمعة المخزن وممثليه، ويُقللون من سلطته ونفوذه، مشككين في قُدُراته على الـتَّحَكُّمِ في شؤون البلاد وضبط أمور أهلها، ومراقبة كافة أرجائها، بقدر ما كانوا يضخمون إمكانات القبائل القتالية، واستفحال ظاهرة تهريب الأسلحة في بعضها، ولاسِيَّما في المناطق المجاورة لمستعمرتهم الجزائر، ومن ثمة تهويل الأوضاع بها، وتكريس الأُطروحة المُغْرضة التي ما فَتِئَت الأوساط الاستعمارية في فرنسا تُـرَوِّجُ لها ، وهي غياب أي حضور للسلطان، وممثليه في تلكم المناطق.

وأيّاً كان الأمر، فلا بأس أن نقدم هنا فكرة، ولو مُقتضبة، عن المبالغ المالية التي كان يَرْصُدُها المخزن من أجل اقتناء العتاد الحربي، وذلك من خلال مشترياته منه، في الفترة ما بين 1877 و1910، آرتأينا، من باب الإيجاز والاختصار، إجمالها في النقط والملاحظات الآتية :

بلغت نفقات المخزن على مشترياته من السلاح والذخيرة، في التواريخ الواردة ما بين 1877 و1910، 4610842 فرنك فرنسي، علما بأن هذا المبلغ لا يُمثل إلاَّ بعضا ممَّا أنفقه المغرب فعلا في هذا المجال، خلال الفترة المذكورة كلها، ولاسِيَّما إذا أخذنا بعين الاعتبار ما اضطر المخزن إلى اقتنائه مِمَّا ذُكِرَ، بعد اندلاع فتنة الروكَي بوحمارة في أكتوبر 1902.

هذا، وقد ذكر بيير كَيلان في مُؤلفه "المانية والمغرب..."، أن مشتريات البلاد من السلاح قد بلغت **مليونين** من الفرنكات، ما بين 1900 و1902 فقط[64].

وكما هو الشأن بالنسبة للعهدين السابقين، دأب السلطان مولاي الحسن، وبعده كل من المولى عبد العزيز والمولى عبد الحفيظ، على تكليف عدد من التجار المغاربة والأجانب، أو من الأمناء وأعوان الدولة الآخرين، كالحاج مُحمد بركَاشالإبن، والحرَّاب "القائد" ماك لين الإنجليزي، والعربي وعبد الكريم بريشة التطوانِيَيْن، والألماني هاسنر(Hassner) ، والفرنسي كَوتش (Gautsch)،واليهودي روبل ولد الحَزَّان يوسف المالحي، والوزير محمد بن عبد الكريم التازي، وزميله المهدي بن العربي المنبهي، والتاجر الفرنسي المقيم بطنجة براونشفيكَ (Braunchvig) ، والأمين محمد بن عبد السلام المقري يجلب كميات معلومة من العتاد الحربي والذخيرة[65].

وتسمح لنا هذه الملاحظة الأخيرة بالإشارة إلى مظهر من مظاهر سوء نية المتعاملين مع المغرب من بائعي السلاح الأوربيين ووسائطهم في مجال تزويده بما كان يطلبه من بنادق ومدافع، إذ كان معظمهم لا يترددون في بيعه القديم منها، أو العائب، أو ما كان منها على وشك الإقصاء، والتعويض بأحدث منها صنعا وأحسن إتقانا. وهذا ما نلمس صورة عنه من خلال العديد من الوثائق لا يسمح المقام لِسَوْقِ نماذج منها هنا، علماً بأن الدوائر الرسمية الأوربية وبالخصوص الفرنسية منها، وكذلك الجهات الخاصة المتعاملة مع المغرب في هذا المجال، كانت لا تجد أدنى حرج في بيع المغرب هذا النوع الرديء من العتاد الحربي الذي تحدث عنه المؤرخ الناصري قائلا :

"... ومع ذلك، فينقل لنا عنهم أنهم لا يبيعوننا منها إلاَّ ما انعدمت فائدته عندهم، لكونهم ترقوا عنها إلى ما هو أجود منها، واستنبطوا ما هو أتقى وأنفع إلاَّ فيما قَلَّ..."[66].

وبخصوص مُحاولات سلاطين القرن التاسع عشر إحياء الأسطول البحري الحربي المغربي، فإن الباحث يصطدم بعائق منهجي له أهميته في مثل بحثنا هذا، ونعني به نُدرة الوثائق، بل انعدامها حول هذا الموضوع. فباستثناء ما نقرأه في كتابات الأخبار بين المغاربة عن اهتمام هذا العاهل أو ذاك بالأسطول البحري والرفع من عدد قطعه، أو على عكس ذلك العزوف عن كل نشاط أو مُغامرة بحرية والانطواء على النفس، أمام تحرشات وتهديدات الأجنبي، حين كانت تميل كفة التفوق والغلبة لصالحه، وهو ما كان يحدث في غالب الأوقات، أو ما ورد عن هذا الجانب في الدراسات والأبحاث الصادرة في السنوات الأخيرة، فإن ما نتوفر عليه من معلومات ومعطيات عنه يظل غثّاً، لا يسمح بمعالجته بشيء من التفصيل والتوسع.

ولعل مرد هذه الظاهرة بالأساس إلى غياب البحر، أو قُل إن شئت إلى انعدام أي أثر له في حياة المغاربة اليومية، ماديّاً وثقافياً، وفي انشغالات واهتمامات حكومتهم، باستثناء فترات قليلة في تاريخهم، أي في فترات مد الحضارة المغربية. وأيا كان الأمر، فإنَّ آخر أسطول بحري جدير بهذا الاسم عرفه المغرب قبل سنة 1912، كان للسلطان المريني أبي الحسن علي (732-752هـ/1331-1351م) كُلُّ الفضل والمزية في إعداده وتجهيزه لشن حملات عسكرية على نطاق واسع في إفريقيا الشمالية والأندلس، قبل أن يُمنَى بهزيمتين قاسيتين، أولاهما في وقعة طريف والمعروفة أيضا بوقعة ريو دسلادو (Rio de Salado) في الكتابات الأجنبية، والتي جرت أطوارها في 30 أكتوبر 1340، وثانيهما في موقعة القيروان في 10 يبراير 1348، لينتهي أمره بعد مَرْكَبِ العاهل المريني، وهو في طريق العودة من إفريقية، في مطلع سنة 1351، قاصداً المغرب الأقصى[67].

وباستثناء بعض المحاولات المحتشمة والمحدودة في الزمان والمكان، والتي استهدفت إحياء وإنعاش الملاحة البحرية، ومغالبة الخصوم في أعالي البحار، والمتمثلة في الأسطول السعدي على عهد السلطان أحمد المنصور الذهبي (986-1012هـ/1578-1603م)، ومراكب وسفن مُجاهدي "جمهورية سلا"، في النصف الأول من القرن السابع عشر، وما تمكن من جمعه وتجهيزه من ذلك السلطان سيدي محمد بن عبد الله (1171-1204هـ/1757-1790م)، في النصف الثاني من القرن الثامن عشر، فكان الإهمال، والتلاشي والانقراض[68].

ونظـراً لاخـتلال مـوازين القـوة بـين المغـرب ومعظـم الـدول الأوربيـة المتعاملـة معـه أو المهتمـة بشـؤونه لفائـدتها، وفـي إطـار سياسـته الهادفـة إلـى تفـادي كـل أسـباب المواجهـة معهـا، اضـطر المولى سليمان سنة 1817، إلى الإعراض :

> عـن أمـر البحـر رأسـاً بعـد أن كانـت قَرَاصـين المغـرب أكبـر وأحسـن مـن قراصـين صاحب الجزائر وتونس ..."(69).

وبـالرغم مـن مُحـاولات السـلطانيين مـولاي عبـد الرحمـان بـن هشـام وابنـه وخلفـه سـيدي محمـد، إحيـاء سـنة "الجهـاد" فـي البحـر، وذلـك بتشـجيع صـنع وتجهيـز قطـع بحريـة بـأوراش مصـب أبـي رقـراق، وتكليـف عـدد مـن "رؤسـاء" البحـر بالعـدوتين الربـاط وسـلا بالإبحـار بهـا، فـإن ذلـك لـم ينفـع في شيء، أمام تفوق الأوربيين في هذا المجال وغيره.

وأيّـاً كـان الأمـر، فـإن الأسـطول المغربـي لـم يتعـزز بسـفن ومراكـب حديثـة الصـنع وكبيـرة الحجـم إلاَّ فـي الربـع الأخيـر مـن القـرن التاسـع عشـر، بعـد أن فطـن المـولى الحسـن بحدسـه الثاقـب، وتجربتـه الواسـعة، إلـى الأهميـة المتزايـدة التـي صـار البحـر يكتسـيها فـي علاقـات المغـرب مـع الخـارج، وإلـى الفوائـد المختلفـة التـي يمكـن للمخـزن أن يجنيهـا مـن خـلال اسـتغلاله للواجهـة البحريـة الأطلسـية علـى الخصـوص، بهـدف مراقبـة سـواحل الـبلاد، ونقـل الجنـود مـن نقطـة إلـى أخـرى، ومَـدِّهم بـالمؤن، والعُـدَّة، ومـواد أخـرى، قـد يتعـذر، فـي عـدد مـن المناسـبات، إيصـالها إلـيهم عـن طريـق البـر. ونُوِّجَـت مسـاعي السـلطان مـولاي الحسـن الحثيثـة سـنة 1885 بتسـلمه أول قطعـة تكـون منهـا الأسـطول البحـري الحـديث، ويتعلـق الأمـر بالسـفينة البُخاريـة "الحسـني" التـي تـم صـنعها بـأوراش مدينـة ليفربـول الإنجليزيـة، وتكـون طاقمهـا، أول الأمـر، مـن رُبَّـانٍ وتقنيـين إسـبانيين، قبـل أن يُعَوَّضُـوا، سـنة 1895، بـآخرين مـن ألمانيـا، الأمـر الـذي أثـار زوبعـة مـن الاحتجاجات من قبل السفير الإسباني بالمغرب وحكومته.

وفضـلا عـن سـفينة الجَـرِّ والنقـل علـى مـدى مسـافات قصـيرة "التريكـي"، وسـفينةَ "التُّركِـي" اللتـين توصـل بهمـا المغـرب سـنتي 1892 و1894، فتبقـى سـفينة "البشـير" التـي تسـلمها فيمـا بعـد، أهـم وأحـدث سـفينة حربيـة تَعَـزَّزَ بهـا الأسـطول الحربـي المغربـي فـي هـذه الفتـرة، إذ هـي أحسـن قطعـة مـن نوعهـا أمكنـه الحصـول عليهـا، بعـد انتظـار دام عشـر سـنوات بالتقريـب، حتـى بـادر إلـى بيعهـا والـتخلص منهـا، حيـث اشـترتها منـه الحكومـة الكولومبيـة، فـي شـهر يبرايـر مـن سـنة 1902، ونفـس المصـير سـبق وأن عرفـه "الحسـيني" سـنة 1900، حيـث بيـع لشـركة ملاحيـة مقرهـا بالجزائر العاصمة مقابل 20000 ريال[70].

بيد أن كل هذه الجهود الهائلة والمساعي الحميدة التي بذلها المولى الحسن في سبيل إنعاش وتطوير قطاع البحرية العسكرية، لم تؤت أُكُلَهَا، وذلك لأسباب بشرية، ومادية، وتنظيمية.

حدث هذا، طبعا، في ظروف عصيبة ودقيقة كان يجتازها المغرب، وساهمت في تعقيد مهمة السلطان مولاي عبد العزيز الذي وجد نفسه، بغتة، على إثر وفاة الوزير الصدر أحمد بن موسى في 17 مايو 1900، أمام مشاكل كبرى وشائكة، قد يستعصي أمر التغلب عليها حتى على من كان أكبر منه سِنّاً وأكثر تجربة.

في ختام عرضنا هذا، والذي حاولنا من خلاله تلمس واقع المغرب السياسي، والاجتماعي، والثقافي، في القرن التاسع عشر، وكذا مجهودات الدولة ومساعيها في سبيل تحسين وتطوير وسائل وأساليب عمل الجنود المغاربة، نتبيَّنُ، وبكل وضوح، أن المجهودات والمحاولات التي بُدلت قد باءت بالفشل، وذلك لأسباب مرتبطة بأوضاع البلاد الاجتماعية، والاقتصادية، والإدارية من جهة، وبموقف الدول الاستعمارية الأوربي السلبي من حركة التحديث والتجديد التي كانت قد دُشِّنَت غداة وقعة إيسلي سنة 1844 من جهة ثانية.

دور الشهيد امحمد أحمد بن عبود في تحرير الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي (1947)

د. امحمد بن عبود[1]

لم يحظ دور الشهيد امحمد أحمد بن عبود، في تحرير المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي بما يستحقه من اهتمام المؤرخين المغاربة وغيرهم، رغم بروز هذا الدور في أوثق المصادر وأقربها زمنا من هذا الحدث المتميز.

لن أركز على الأسباب الظاهرة والخفية لهذا الصمت المقصود في بعض الحالات، أو الناتج عن تجاهله من طرف بعض المؤرخين المحترفين، وغيرهم من المهتمين بالموضوع من جهة أخرى.

سأكتفي هنا بتحديد تفاصيل هذا الحدث البارز، وتقييم مادته التوثيقية المتنوعة لإخراج رواية معتمدة على منهجية تاريخية أكاديمية بعيدة عن الأساليب الصحفية السطحية، والحزبية الضيقة، والحوافز الذاتية، والمصالح الشخصية.

سوف يتمحور الموضوع الذي وقع اختياري عليه، على مجموعة من الأسئلة الأساسية، الغرض منها تحديد منهجيتي في هذا العرض، منها الآتية:

لماذا ركزت على دور الشهيد امحمد أحمد بن عبود، في تحرير المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي؟ من هو امحمد بن عبود هذا الذي ربطت إسمه بشخصية وطنية تحولت إلى أسطورة على الصعيد الدولي؟ ما هو هذا الدور بالذات؟ وما هي قيمة الوثائق والمصادر الأساسية التي اعتمدتها لتركيب هذا الحدث التاريخي؟ ما هي أنواع هذه الوثائق وأصنافها، وما هي المقاييس العلمية التي سأعتمدها لتقييم هذه المادة التوثيقية وتقويمها؟ ما هي قيمة هذه المادة التوثيقية، بالمقارنة مع المادة التي اعتمدها بعض المؤرخين في دراستهم للموضوع نفسه؟ وما هي الاستنتاجات والتأويلات التي يمكن للمؤرخ أن يخرج بها اعتمادا على هذه المادة التاريخية وغيرها لفهم هذا الحدث وتحليله، ولتكوين صورته التاريخية، قصد اقترابنا من واقعه التاريخي؟ هل يمكن أن نتناول هذا الموضوع أو أي موضوع ارتبط بشخصية المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي، بدون الخلط بين بعدين متداخلين حتما وهما: بعده التاريخي من جهة، وبعده الخرافي والأسطوري من جهة ثانية؟

---

1 جامعة عبد المالك السعدي بتطوان .

وأخيرا، هل يمكن للمؤرخ أن يناقش هذا الموضوع دون أن يمس بعض جوانبه، أو تشويه حقائقه ودلالاته، نظرا لاقترابنا الكبير منه زمنيا، ونظرا لإدراج شخصية محمد بن عبد الكريم الخطابي في الذاكرة الجماعية المغربية، بصفته أحد مكونات الهوية الثقافية الوطنية على الصعيدين الرسمي والشعبي؟ هل حان الوقت لطرح مثل هذه القضايا التاريخية، بصراحة وبحرية، في إطار إعادة كتابة تاريخ الحركةالوطنية المغربية؟ أم وجب تركه للمؤرخين في المستقبل حيث يمكنهم ابتعادهم الزمني عن الأحداث من طرح أسئلة ربما تقلق بعض الشخصيات التي ارتبطت بالأحداث وتزعجهم أو تمسهم شخصيا؟

إن الصراحة المطلقة في الإجابة عن الأسئلة، قد تستحيل رغم ادعاء عكس ذلك. ومع هذا سوف نحاول الإجابة عن مجموعة من الأسئلة المرتبطة بدور الشهيد امحمد أحمد بن عبود، في تحرير المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي، والنقاش الهادئ والبناء، هو هدفنا الحقيقي في نهاية المطاف.

بإمكان المؤرخ مناقشة جوانب متعددة لموضوع تحرير المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي، وهو في طريقه من جزيرة لارينيون، حيث ظل منفيا من 1926 إلى 1947، إلى مارسيليا مرورا بقناة السويس صحبة أخيه السي امحمد، وعمه السيد عبد السلام، وأبنائه وبناته وغيرهم من أفراد عائلته، كلهم على متن باخرة كاطومبا خلال شهر ماي 1947.

يمكن مناقشة أسباب هذا الحدث ذي الأبعاد المتعددة، كما يمكن تفسير عواقبه وتحليلها، إلا أنني سأكتفي هنا بالتركيز على دور الشهيد امحمد أحمد بن عبود في تحرير المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي حتى أتعمق في الموضوع أكثر.

لو انطلقنا من المنهج السيميولوجي لمعالجة موضعنا، لتركناه منذ البداية بصفته موضوعا تاريخيا غير قابل للدراسة. إن هذا المنهج، يرتكز على الدلالات والرموز للتعبير عن الواقع، وإذا طبق على الأحداث التاريخية أو التحليل التاريخي فسوف يعتبر المناهج التاريخية باطلة مادامت تعتمد اللغة وسيلة للتعبير، ومادامت اللغة تغير الواقع على مستوى الخطاب والكلمة، وهذا هو الغرض الأساسي من تحليل النصوص انطلاقا من المنهج السيميولوجي اعتمادا على تحديد دلالات الكلمات ورموزها. إلا أن المؤرخ بإمكانه أن يحلل نتائج هذا المنهج انطلاقا من المنهجية التاريخية، معتمدا في ذلك تقنياته الخاصة مثل مقاييسه لتحليل النصوص أو تقييم المادة التوثيقية، محددا هدفه النهائي في الاقتراب من الواقع التاريخي لا غير.

لقد تطرقت لموضوع دور الشهيد امحمد أحمد بن عبود في تحرير محمد بن عبد الكريم الخطابي في مقالات نشرت في مجلات تاريخية متخصصة، كالمقالة التي نشرتها بالعربية والفرنسية بالاشتراك مع المؤرخ الدكتور جاك كاني، بعنوان "بدايات نشاط مكتب المغرب العربي بالقاهرة: عملية ابن عبد الكريم"[2] ، ونشرت بعض الوثائق المرتبطة بالحدث، كالرسائل المتبادلة بين الزعيم عبد الخالق الطريس من القاهرة والأستاذ الطيب بنونة الأمين العام لحزب الإصلاح الوطني بتطوان، كما نشرت استجوابات مع بعض الوطنيين من شهود عيان للحدث مثل المرحوم الأستاذ عبد المجيد ابن جلون، أو خبر الحدث في الصحافة المصرية وعلى رأسها جريدة " الأهرام "، علاوة على الصحافة الدولية مثل جريدة "لوفيغارو" الفرنسية، إضافة إلى الصحافة الوطنية العربية والفرنسية منها جريدة " العلم " الناطقة باسم حزب الاستقلال وجريدة الأمل، L'نسبوير، التي كان يصدرها علي يعتة باسم الفرع المغربي للحزب الشيوعي الفرنسي خلال الأربعينيات.

> كما اعتمدت في دراستي على شهادات بعض الشخصيات التي ارتبطت بحدث تحرير المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي مباشرة أمثال الزعيم عبد الخالق الطريس والزعيم علال الفاسي والمناضل عبد المجيد ابن جلون والرئيس التونسي السابق الحبيب بورقيبة بصفتهم شهود عيانا. إضافة إلى شهادات بعض العسكريين الفرنسيين المكلفين باستقبال باخرة كاطومبا بميناء مارسيليا، وأعني الضابط العسكري ليون كابرييلي الذي أشار إلى دور ابن عبود في العملية قائلا[3] :
>
> « لقد زعموا أنه كانت لابن عبود، الزعيم الوطني في المنطقة الإسبانية، يد كبيرة في مغامرة الهارب (عبد الكريم الخطابي) من «كاتومبا». وليس هذا أمرا مستحيلا. فبعض مظاهر السياسة الإسبانية خلال تلك الفترة تؤيد هذا الادعاء ».
>
> « On a prétendu qu'il fallait voir dans l'aventure de l'évadé (Abdelkrim) du «Katoomba» la main de Ben Aboud, le leader nationaliste de la zône espagnole Le fait n'est pas impossible , certains aspects de la politique espagnole de l'époque ne le rendent pas invraisemblable ».

إذن، إن الغرض من هذا العرض ليس تقديم وثائق جديدة في موضوع دور ابن عبود في تحرير المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي، بل هو تقييمها كما سبق الذكر.

تنقسم المادة التوثيقة التي أبرزت دور الشهيد امحمد أحمد بن عبود في تحرير المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي إلى عدة أصناف كالمقالات الصحافية والرسائل السياسية والشخصية وشهادات المعاصرين للأحداث والصور. سوف نقيم كل صنف من هذه الأصناف مع تحديد قيمته لموضوعنا:

---

2. امحمد بن عبود وجاك كاني، "مؤتمر المغرب العربي سنة 1947 وبداية نشاط مكتب المغرب العربي في القاهرة: عملية ابن عبد الكريم"، *المجلة التاريخية المغربية*، العدد 25-26، يونيو 1982، ص. 7-29.

3. Léon Gabrielli, *Abdelkrim et les événements du Rif*, 1924-1926, Casablanca, 1953, p. 223-224.

أولا، الصحافة المصرية وعلى رأسها جريدة " الأهرام " القاهرية. لم تتطرق هذه الصحافة بطبيعة الحال لتوصل أعضاء مكتب المغرب العربي بالقاهرة بخبر توجه باخرة كاطومبا من عدن باليمن إلى قناة السويس بواسطة الصحفي الفلسطيني علي ماهر مع أن هذا الخبر صدر في بعض الصحف، إلا أن خبر استقبال المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي بميناء السويس نشر في حينه[4]:

> في السويس: السويس في 30 (ماي) ـ لمراسل الأهرام ـ وصلت حوالي منتصف ليلة أمس إلى ميناء بور توفيق الباخرة الاسترالية «كاتومبا» تنقل المجاهد المراكشي الكبير الأمير عبد الكريم يصحبه أعضاء أسرته وأفراد حاشيته.
> وقد استقبله على ظهر الباخرة حضرات محافظ السويس، والسيد محمد أحمد بن عبود رئيس الوفد المراكشي، والأستاذ وحيد الدين الدالي، مندوب الجامعة العربية، والأستاذ الشيخ محمد الحضر حسين، رئيس جبهة الدفاع عن شمال إفريقيا والأستاذ بشارة يواكيم، وممثلوا الجمعيات العربية وغيرهم.
> وفي الساعة السابعة من صباح اليوم واصلت الباخرة سفرها إلى بور سعيد .

كما أن الصحافة المصرية لم تذكر محاولات الشهيد امحمد بن عبود وزملائه بمكتب المغرب العربي للتمهيد لعملية التحرير، نظرا للطابع السري لهذه التحركات الواردة في مصادر أخرى، إلا أن " الأهرام " نشرت خبر نزول المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي في بور سعيد في يوم 1 يونيو 1947 في الخبر التالي[5]:

> نزول الأمير في بور سعيد: بور سعيد في 31 (ماي 1947) ــ لمراسل الأهرام ــ وصلت الباخرة التي تنقل الأمير عبد الكريم في الساعة الحادية عشرة والربع من مساء أمس، فصعد إليها صاحب العزة القائم مقام محمد حلمي حسين موفدا من صاحب الجلالة الملك فأبلغ الأمير تحيات جلالته وتمنياته. وكان يصحبه سعادة فؤاد شيرين باشا محافظ القنال نائبا عن دولة رئيس الحكومة والأمير الابن محمود ثابت باك حكمدار البوليس والأستاذ الشاذلي المكي مندوب حزب الشعب الجزائري في الشرق العربي والأستاذ محمد بن عبود رئيس الوفد المراكشي بالجامعة العربية والسيد الحبيب بورقيبة رئيس الحزب الحر الدستوري التونسي والسيد محمد علال الفاسي رئيس حزب الاستقلال المراكشي والأستاذان سعد الدين عبد اللطيف وسليم الحسيني مندوبين عن مفتي فلسطين والأساتذة محمد المهدي صبر وعبد الحي العراقي عن حزب الشورى والاستقلال المراكشي ووفد جماعة الاخوان المسلمين وكثير غيرهم

لقد نقلت جريدة " الأهرام " خبر وصول كاطومبا إلى ميناء السويس يوم 30 مايو 1947 ثم في بور سعيد يوم 31 ماي 1947، ثم خبر لجوئه السياسي بمصر، وهنا يرد إسم الشهيد امحمد بن عبود بصفته مرافقه من بور سعيد إلى القاهرة على متن سيارة رسمية مصرية نحو التشريفات للإمضاء الرسمي قبل التوجه إلى مكتب المغرب العربي، حيث وجد الزعماء

---

4. جريدة *الأهرام*، 1 يونيو 1947، ص. 1.
5. جريدة الأهرام، 1 يونيو 1947، ص. 1.

السياسيين المغاربة والصحافة المصرية والدولية لاستقبال الخطابي، هكذا ورد الخبر في " الأهرام " يوم 31 ماي 1947.

أشارت " الأهرام " أيضا في نفس العدد إلى مغادرة الزعيم الخطابي لبور سعيد متوجها إلى القاهرة مصحوبا بالسيد محمد بن عبود[6]:

> في القاهرة: وبعد الساعة الخامسة وصل الأمير عبد الكريم إلى القاهرة يرافقه شقيقه وعمه سيدي عبد السلام الخطابي، والأستاذ محمد بن عبود وبقية أفراد الأسرة والحاشية

هنا نتساءل: لماذا لم ترافقه بعض الشخصيات الوطنية التي كانت موجودة في بور سعيد والتي كان لها وزنها الكبير في الحركة الوطنية المغاربية أمثال عبد الخالق الطريس وعلال الفاسي والحبيب بورقيبة والتي كان الشهيد امحمد بن عبود أقل منها سنا ومكانة سياسية في حينه؟.

يكمن الجواب أولا في صفته الرسمية رئيسا للوفد الممثل لخليفة السلطان مولاي الحسن بن المهدي، في اللجان الثقافية لدى الجامعة العربية، وثانيا في دوره البارز في مكتب المغرب العربي بالقاهرة بصفته أحد مؤسسيه، وثالثا في اتصالاته بالديوان الملكي، وإقناع السلطات المصرية بمنح المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي حق اللجوء السياسي في مصر. ولقد كان هذا الشرط أساسيا لموافقة الشرطة المصرية بميناء بور سعيد، للسماح لابن عبد الكريم الخطابي وأفراد عائلته بمغادرة بور سعيد إلى القاهرة في صباح يوم 1 يونيو بعد رفضها هذا الطلب عند محاولة ابن عبد الكريم والزعماء الوطنيين الأولى لإقناعهم بذلك يوم 30 ماي.

وأخيرا، لقد كان الشهيد امحمد بن عبود قد اتصل بالأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي على متن كاطومبا بميناء السويس في يوم 30 ماي 1947. ولكن عندما رفض أن ينزل سافر الشهيد امحمد بن عبود إلى القاهرة، ثم توجه في سيارة نحو بور سعيد صحبة الزعيم عبد الخالق الطريس وعلال الفاسي و"الحبيب بورقيبة وعبد المجيد ابن جلون لإقناع الأمير جماعة بواجب لجوئه إلى مصر وهذه معلومات تؤكدها مصادر أخرى غير الصحافة.

ثانيا، الرسائل المتبادلة بين عبد الخالق الطريس والكاتب العام لحزبه الأستاذ الطيب بنونة.

تعتبر المراسلة السياسية مصدرا فريدا لنشاط الحركة الوطنية المغربية، لما تنفرد به من تلقائية نظرا لطابعها السري. نذكر ضمن هذا الصنف المرتبط بنشاط الحركة الوطنية المغربية بالمشرق، مراسلة الشهيد امحمد بن عبود مع أخيه محمد والأستاذ الطيب بنونة بتطوان، ومع

---

6. جريدة الأهرام، 1 يونيو 1947، ص. 1.

الشيخ عبد الله گنون بطنجة، التي نشرنا بعضها في كتاب "النضال الوطني للشهيد امحمد بن عبود: شهادات ووثائق"[7]. ولقد تمكنا من العثور على رسالة بعثها الأستاذ عبد الخالق الطريس إلى أعضاء اللجنة التنفيذية لحزب الإصلاح الوطني يجيب فيها عن السؤال الذي يهمنا عن تفاصيل العملية، ودور السيد امحمد أحمد بن عبود في تنفيذها.

وتتبثق أهمية هذه الرسالة أولا من كونها جاءت من أحد المشاركين في العملية، وثانيا من كونها كتبت في 4 يونيو 1947، أي أربعة أيام فقط بعد لجوء الزعيم الخطابي إلى مصر. تلقي رسالة الأستاذ عبد الخالق الطريس إلى الطيب بنونة في 4 يونيو 1947 أضواء جديدة على تحرير المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي عموما، ودور الشهيد امحمد بن عبود على وجه الخصوص. فيما يلي اقتباس من هذه الرسالة[8] :

> وبعد أن تمت الاستقبالات العامة ومن ضمنها زيارة مندوب الملك فاروق وبقية ممثلي الهئيات اختفى الأخ بن عبود الذي فعل في هذه القضية ما لم يفعله أحد، و تحمل من الأتعاب ما يكل عنه جمع من الأقوياء في الباخرة بنية السفر معه لغاية بور سعيد. ومنذ الساعة الثالثة والنصف وهو في حديث مستمر مع الأمير وأخيه لإقناعه بالنزول. وقد لقي أخونا من تردد الأمير وشكوكه الشيء الكثير. ولكي تأخذوا صورة عن ذلك أذكر لكم جزئية واحدة. وهي أن الأمير، بتأثير بن عبود، بدأ يكتب البرقية المطلوبة للملك فاروق المتضمنة الرغبة في الالتجاء مرتين، وكلما قرب من إتمامها مزقها وبجهد جهيد توصل معه إلى كتابة رسالة مختصرة يقدم فيها فروض التحية والإجلال إلى جلالة الفاروق، ويحيل البقية من الحديث على حامله، وهذه الرسالة باسم رئيس الديوان، فلما حصل ابن عبود على هذه التحية، وكانت الساعة السابعة والباخرة لا تزال راسية في السويس، أخذ مركبا من تلك الزوارق التي تباع للسواح، وعاد للبر، غير واثق من عزم الأمير، ومصمما على بحث القضية معنا على أساس جديد قد يتضمن حتى اختطافه عند الوصول إلى بور سعيد. وبمجرد وصوله إلى البر استقل سيارة خاصة إلى القاهرة، اجتمعنا في نفس الصباح بالأتيل وقررنا الاتصال من جديد بالحكومة، وبرغم الجمعة وهو يوم العطلة تمكن بعضنا من زيارة شخصيات كبيرة. واستطعنا الحصول على قبول الضيافة إذا اقتنع الرجل بمصلحته في النزول. وفي المساء سافرنا إلى بور سعيد: علال الفاسي، وامحمد بن عبود، وعبد المجيد بن جلون، والحبيب بورقيبة وأنا، فوصلنا قبل رسو الباخرة بعشر دقائق، فوجدنا التعليمات قد وصلت والتدابير متخذة. وبمجرد رميها للمخطاف كنا على ظهرها فاختلينا بسيدي امحمد شقيقه الكبير، ويلاحظ أن له تأثيرا كبيرا على أخيه. وبعد مداولات كنت أختار فيها لهجة القوة وتبيين المصلحة العامة والخاصة، قال سيدي امحمد الخطابي: إذا كنتم قد اتفقتم على نزولنا، وقررتم ذلك فنحن رهن إرادتكم. ولا تسألوا عن أحوالنا في هذه اللحظة، فقد كان هذا القرار حسب الجو سبقا بعيد الإمكان، فما كدنا نسمع قوله حتى علانا البشر ولكننا ضغطنا على شعورنا وأخفينا فرحنا حتى لا يشعر أحد بشيء لأن الباخرة مليئة بالعيون رغم

---

7. امحمد بن عبود، *النضال الوطني للشهيد امحمد بن عبود: شهادات ووثائق*، طنجة، منشورات جمعية تطاوين أسمير، 1997.
امحمد بن عبود، *مكتب المغرب العربي في القاهرة: دراسات ووثائق*، الرباط، مطابع عكاظ، 1992.

8. الرسالة التي بعثها الزعيم عبد الخالق الطريس إلى اللجنة التنفيذية لحزب الإصلاح الوطني والذي يوجد نصها الأصلي في مكتبة المرحوم الطيب بنونة، نشرنا نصها الأصلي مع صورة للوثيقة الأصلية ضمن مقدمة كتاب امحمد بن عبود : *مركز الأجانب في المغرب*.

أنها ليست تحت ملك الفرنسيين، وبعد أن نزل جميع المستقبلين، ذهبنا نحن الخمسة، عبد الكريم سيدي محمد الخطابي علال الفاسي امحمد بن عبود وأنا إلى الغرفة الصغيرة التي ينامون فيها بالباخرة وحددت لعبد الكريم نفسه ما قر عليه قرارنا من وجوب النزول وأن استئناف السفر جناية على المغرب والملك وسمعته العظيمة ومصلحته الحاضرة ومستقبل أبنائه وقد تأثر حتى بكى ـ وحقا إنه تأثير عظيم وهذه العظمة تشاهد في الرجل في جميع أحواله ـ واكتفى بأن قال إنني معكم ولما أعرفه عنكم لن تفعلوا إلا ما فيه الخير، وفي تلك اللحظة وكانت الساعة الثانية ليلا نزلنا جميعا إلى البر فذهب توا على المحافظة، حيث سجل رغبته التي رفعت إلى القصر ثم رجع إلى الباخرة هو وأولاده، كأن النزول كان للتجول فقط، ورجع للنوم معه هناك البطل ابن عبود، على أساس النزول في الصباح الباكر دفعة واحدة، رجالا و نساأ وأطفالا وعتادا. ولا يمكنكم أن تتصوروا كيف كانت ليلتنا، فقد ملكنا الاضطراب خوفا من رجوع التردد، أو حدوث شيء ليس في الحسبان ولكن الله جل شأنه حقق أملنا ففي الساعة السادسة والنص ابتدأ النزول ولم يشعر أحد في الباخرة، حتى كان الأمير عبد الكريم الخطابي وحاشيته وعتاده الخفيف فوق اليابسة

هنا يجب أن نتأمل بشأن مصداقية هذه الرسالة التي تميزها العناصر التالية:

أولا، لقد كتب الطريس هذه الرسالة في وصف تحرير الخطابي بالقاهرة يوم 4 يونيو 1947 أربعة أيام فقط بعد لجوء الخطابي إلى مصر حيث كانت صورة الحدث الذي شارك في صنعه مازالت طريا.

ثانيا، إن صاحب هذه الرسالة شخصية وطنية بارزة، ومثقف من الدرجة الأولى. تتضح مستواها في إبداعه الأدبي فهو مؤلف مسرحية "انتصار الحق على الباطل" مثلا، كما تبرز في خطبه السياسية الفصيحة التي كان يحرك بها الجماهير. لذلك جاءت روايته للحدث الذي نناقشه في لغة عربية ممتازة، وأسلوب أدبي راق عبر فيه بكل صدق ووضوح عن أدق تفاصيل الحدث من جهة، وعن الحماس الوطني الذي نتج عنه.

ثالثا، مما يزيد من مصداقية هذه الرسالة التاريخية، أن الطريس كتبها في القاهرة للأستاذ الطيب بنونة بتطوان، وبعثها له ضمن مراسلتهما الشخصية، فلا يحتمل أن يكون قد بالغ في سرده للأحداث ناهيك عن تزييفها، كما أن دور الشهيد امحمد بن عبود البارز في هذه الرسالة يؤكد صحتها، فلو أراد الاستفادة منها سياسيا لبالغ في دوره، وهو الزعيم الوطني الأبرز دورا آنذاك عن دور ابن عبود، كما حدث في رواية علال الفاسي والحبيب بورقيبة لنفس الحدث.

رابعا، إن بعض تفاصل الحدث الدقيقة تؤكد مصداقية الوثيقة، فمن الصعب جدا تحديد أدق التفاصيل دون وجود صاحب الرسالة في عين المكان، من ذلك مثلا، تردد المجاهد محمد بن عبد الكريم في قرار اللجوء إلى مصر، وتغيير موقفه بعد إلحاح الوطنيين الذين التحقوا به في باخرة كاطومبا بميناء بور سعيد، ثم الغضب الذي عبر عنه عندما نزل من الباخرة واتجه إلى مركز الشرطة ليخبر الضابط المسؤول أنه يرفض السماح له بمغادرة الباخرة.

خامسا، لا تتعارض المعلومات الموجودة في هذه الوثيقة بما يوجد في غيرها من الوثائق المعتمدة، بل تتطابق وتتكامل معها.

وتعتبر الشهادات الشفوية مصدرا آخر لتوثيق دور الشهيد امحمد بن عبود في تحرير المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي، على أن تخضع شأنها في ذلك شأنها جميع المصادر، للنقد والتقييم، ونذكر وثيقة هامة أخرى سلطت الضوء على هذا الحدث. وأعني شهادة المناضل التونسي ومدير مكتب المغرب العربي في دمشق دور الشهيد امحمد أحمد بن عبود في تحرير المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي في قوله[9]:

> .. ومنه اتصلنا هاتفيا بزميلنا امحمد بن عبود ممثل منطقة الريف المراكشي في نكتب المغرب العربي بالقاهرة وفي لجان الجامعة العربية وفي الحين تحولنا إلى منزله في قاردنسيتي حيث تدارسنا الوضع واستقر الرأي على أن يتكفل ابن عبود بالاتصال بالقصر الملكي لتأمين حق اللجوء نظرا لعلاقات ابن عبود الطيبة مع الملك فاروق ...

وتوجد إشارة إلى دور الشهيد امحمد بن عبود في عملية تحرير زعيم الثورة الريفية في كتيب صدر ضمن منشورات مكتب المغرب العربي بالقاهرة بمناسبة مرور أربعين يوما على استشهاد وفد المغرب العربي في المؤتمر الاقتصادي للدول الإسلامية المنعقد في كراتشي من 26 نوفمبر إلى 10 دجمبر1949، فيما يلي نص هذه الشهادة الهامة[10]:

> لقد سيطر نشاطة الوطني على حياته كلها، فلم يقلع عن العمل والتفكير لأجل تحقيق مصالح بلاده، وقد عاش بقية حياته لشيء واحد هو المغرب العربي، فكانت الوطنية جزأ من طبيعته. وقد كان أكبر عمل قام به الإشراف على حركة تحرير سمو الأمير عبد الكريم الخطابي والتجائه إلى جلالة الفاروق، فقد كان نصيبه في ذلك نصيب الأسد

وفي سنة 1980 طرحت مجموعة من الأسئلة على الأستاذ عبد المجيد ابن جلون الأديب والدبلوماسي عن الموضوع الذي نناقشه، و نشرته سنة 1980 في المقدمة التي وضعتها للطبعة الثانية لكتاب " مركز الأجانب في مراكش " للشهيد امحمد بن عبود. وتتجلى أهمية هذا الاستجواب في النقط التالية[11] :

> « سؤال: ما هي الظروف التي تنقل فيها السيد امحمد بن عبود إلى مدينة السويس، وكيف تم اتصاله بالزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي، وهل واجهته صعوبات؟

---

9. يوسف الرويسي، «نشاط مكتب المغرب العربي في دمشق»، العدد 15-16، *المجلة التاريخية المغربية*، 1979، ص. 114.
10. عبد المجيد بن جلون، *الثلاثة الذين استشهدوا في كراتشي بمناسبة الذكرى الأربيعن، 21 يناير 1950*، القاهرة 1950، ص. 14-15.
11. امحمد أحمد بن عبود، *مركز الأجانب في المغرب: دراسات قانونية لوضعية الأجانب في المغرب قبل عهد الحماية وخلاله*، الطبعة الثالثة، مطابع عكاظ، 1988، ص 20-25.

جواب: الظروف التي تم فيها الاتصال كانت ظروفا سهلة، حيث إن السيد امحمد بن عبود كان مصحوبا خلال تنقله هذا ببعض ممثلي السلطات المصرية التي كانت قد رافقته كذلك على متن الباخرة.

سؤال: كيف تم اتصال السيد امحمد ابن عبود بالمجموعة التي صاحبته إلى بور سعيد لإقناع الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي بالنزول من «كاتومبا»؟

جواب: الإخوان الذين ذهبوا إلى بور سعيد كانوا كلهم من الأفراد الذين كانت لهم نشاطات داخل مكتب المغرب العربي. وكان لكل واحد منهم مكتب خاص به في بناية المكتب التي كانت توجد في 10 شارع ضريح سعد، وكان من بينهم مغاربة و تونسيون. أما فيما يخص الرد الذي حظي به السيد امحمد بن عبود من طرف إخوة المكتب، فكان القبول الفوري مع الترحيب.

سؤال: لماذا أوقفت الشرطة المصرية السيارة التي حملت الجماعة المتوجهة إلى بور سعيد لاستقبال «كاتومبا»؟

جواب: أوقفت السيارة لأن قناة السويس كانت منطقة عسكرية محتلة من طرف الجيش الإنجليزي، ولهذا كانت عملية المراقبة ضرورية وواجبة على كل المارة. وعملية المراقبة قام بها عسكريان واحد مصري والثاني إنجليزي، و العسكري المصري هو الذي كان يتكلم. مركز المراقبة كان موجودا قبل الوصول على بور سعيد بحوالي 2 كلم.

سؤال: كيف كانت وضعية الإنجليز في السويس وبور سعيد في سنة 1947؟ لماذا لم تذكرهم في عرضك لعملية تحرير زعيم الثورة الريفية؟

جواب: فيما يخص الاحتلال العسكري، يجب التذكير بأن مركز القوة الإنجليزية كان قد تضعضع في القناة، ولهذا السبب كانوا يفضلون عدم إثارة المشاكل حتى يبقى وجودهم خفيا ما أمكن، ومن الجائز أنهم كانوا يعرفون ما كان يدور حول هذه العملية، ولكن وجودهم كان منعدما خلالها.

سؤال: بالضبط، ماذا اعتقد الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي عندما منعه محافظ بور سعيد من مغادرة الباخرة وأمره بالعودة إلى «كاتومبا»؟

جواب: هذه الحادثة جعلت الأمير تتوارد عليه شكوك، حيث ظن أن هناك من يريد توريطه في مؤامرة. ومن جهة أخرى، واعتبارا لموقف السلطات الفرنسية فقد رفض حيث أنه في هذه الأثناء كان الملك محمد الخامس رحمه الله حديث العهد بمدينة طنجة، حيث ألقى خطابه التاريخي فيها. فأراد الفرنسيون أن يضغطوا على الملك إذا تمكنوا من الإتيان بالأمير عبد الكريم إلى جنوب فرنسا لاستعماله أو لاستعمال اسمه من أجل الضغط على جلالة محمد الخامس، وهذا كله كان معروفا.

سؤال: ما رأيكم في عدم وجود حراسة فرنسية على الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي وعائلته؟ فهل من المحتمل أن هذه الخطة كانت مقصودة، أم هو مجرد إهمال؟

جواب: لم يكن ذلك ليعنيهم في شيء وهم في قلب المياه المصرية. و في اعتقادي أنه إهمال لأن المتآمر يكون دائما معرضا لارتكاب الأخطاء، وزيادة على ذلك لم الفرنسيون على إلمام كبير بقوة الحركة الوطنية المغربية في الشرق. و من جملة ما كانوا يرددونه أن الحركة الوطنية في الشرق وفي القاهرة بصفة خاصة، هي عبارة عن شغب تقوم به جماعة من الطلبة المغاربة. لم يكن الفرنسيون يدركون بأن هؤلاء «الطلبة» كانوا على اتصال بالحكومة المصرية والبوليس المصري وكذلك بالقصر الملكي.

سؤال: ما هو صدى نجاح عملية إنقاذ الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي على الصعيد المحلي وعلى الصعيد الدولي؟

جواب: كان صداها كبيرا جدا، حيث أن المتتبعين للحركة الوطنية اعتقدوا بأن العملية من المستحيل أن لا يكون لبعض الدول الأجنبية دخل فيها. و بصراحة فالعملية كانت غامضة جدا، ولهذا نشك في احتمال تدخل أيدي أجنبية فيها. و ما زلت أتذكر بأن مكتب المغرب العربي كان يتلقى مكالمات تليفونية من الولايات المتحدة من بعض الصحفيين وكذلك من أوروبا للاستفسار عن الحادث، وكنا نجيبهم بأجوبة صحفية.

سؤال: هل هذه العملية خدمت القضية الوطنية. كيف؟

جواب: العملية استطاعت إحباط المؤامرة الفرنسية، كما سبق لي أن أوضحت، فقد كانت السلطات الفرنسية تريد استعمال اسم الأمير وهو أسير عندهم للضغط على جلالة الملك محمد الخامس.

أولا، إن عبد المجيد ابن جلون، أحد مؤسسي مكتب المغرب العربي بالقاهرة، ومديره بعد وفاة الشهيد امحمد بن عبود في 12 دجمبر 1949 صاحب المجموعة التي سافرت في السيارة من القاهرة إلى بور سعيد، وصعدت إلى باخرة كاطومبا لإقناع المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي بوجوب لجوئه إلى مصر، وكانت هذه المجموعة تتكون من الشهيد امحمد بن عبود" والزعيم عبد الخالق الطريس والزعيم علال الفاسي والرئيس الحبيب بورقيبة وهي أسماء وطنية لامعة كان عبد المجيد ابن جلون شاهد عيان للحدث .

ثانيا، إن المعلومات الدقيقة حول القضية في استجواب ابن جلون تنطبق مع المعلومات الواردة في المصادر الموثوقة.

ثالثا، لم ينشر عبد المجيد ابن جلون هذه المعلومات بمبادرة منه، الأمر الذي قد يوحي بدوافع ذاتية وراء ذلك، بل بطلب مني وتلبية لرغبتي مما جعله يتكلم بحرية وتلقائية زادت من مصداقية كلامه، ولقد أكدت شهادات وطنيين مغاربة كانوا موجودين بالقاهرة أمثال: الأستاذ عبد الكريم غلاب ما جاء في شهادة ابن جلون. ومن المصادر التي تطرقت لتحرير المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي بالقاهرة مع تركيزها على دور الشهيد امحمد بن عبود الصحافة الفرنسية. أذكر على سبيل المثال مقال الصحفي الفرنسي في المقالة التي نشرها في جريدة لوفيغارو إثر الحدث بعنوان..... القاهرة، بل هناك تصريح طريف في كتاب ألفه الضابط العسكري الفرنسي كابرييلي الذي كلف باستقبال الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي على متن باخرة كاطومبا وأفراد عائلته بميناء مرسيلية ولكنها لم تستقبل إلا التابوت الذي كان يحمل جثة والدة المجاهد الخطابي.

تطـرق هـذا العسـكري الفرنسـي إلـى دور الشـهيد ابـن عبـود قـائلا: « يحتمـل أن يـد ابـن عبـود فـي القضية كانت طويلة ».

وأخيـرا، لـم تنحصـر الإحـالات إلـى دور الشـهيد ابـن عبـود فـي تحريـر المجاهـد الخطـابي فـي المصـادر التاريخيـة، بـل نجـد دوره مخلـدا فـي الكتابـات الأدبيـة. أشـير فـي هـذا الصـدد علـى وجـه الخصـوص إلـى القصـة القصـيرة التـي خلـد فيهـا الأديـب عبـد المجيـد ابـن جلـون هـذا الحـدث والتـي نشرها بعنوان في مجموعته القصصية *لولا الإنسان*.

ولـم ينحصـر وجـود بـن عبـود فـي أدب عبـد المجيـد ابـن جلـون فـي هـذه القصـة القصـيرة، بـل تحـاور معـه بعـد مماتـه، وعبـر عـن عواطفـه الرقيقـة بأسـلوبه الأدبـي الرائـع فـي مقالـة نشـرها فـي جريـدة " المغرب " بعد وفاة الشهيد امحمد بن عبود.

إن تقيـيم المـادة التوثيقيـة التـي تطرقـت إلـى دور الشـهيد امحمـد بـن عبـود فـي تحريـر محمـد بـن عبـد الكريم الخطابي يستوجب الملاحظات والاستنتاجات التالية:

أولا، إن هذا الدور كان دورا فعالا أكدته مصادر ووثائق متنوعة موثوقة كما أوضحنا سالفا.

ثانيـا، لقـد كـان حضـور ابـن عبـود فـي العمليـة حضـورا ملموسـا منـذ نشـأة الفكـرة والتخطـيط لهـا إلـى تنفيـذها، وهـو مـا لا ينطبـق علـى الشخصـيات الوطنيـة المغاربيـة التـي شـاركت بـدورها فـي العملية.

ثالثـا، إن دور ابـن عبـود كـان ضـروريا لإنجـاح العمليـة خصوصـا عنـدما اقتضـت الضـرورة إقنـاع السـلطات المصـرية للسـماح لمحمـد بـن عبـد الكـريم بـاللجوء إلـى مصـر وذلـك بعـد نزولـه مـن البـاخرة، ورفـض السـلطات المصـرية السـماح لـه بـذلك يـوم 31 مـاي لـيلا، هنـا كـان ابـن عبـود هـو مفتـاح المشـكل لأنـه حصـل علـى موافقـة الـديوان الملكـي المصـري فـي الصـباح البـاكر مـن يـوم 1 يونيـو بفضـل اتصـالاته الهاتفيـة بـرئيس الـديوان، وكـان هـذا الاتصـال ممكنـا باعتبـار الشـهيد امحمـد بـن عبـود رئـيس للوفـد المغربـي فـي اللجنـة الثقافيـة لـدى الجامعـة العربيـة، وكانـت النتيجـة إيجابيـة بفضـل شخصـيته القويـة، وقدرتـه علـى الإقنـاع اعتمـادا علـى الأسـلوب الدبلوماسـي وبشاشـته مـع الإلحاح.

وفـي هـذه المسـألة، أقـدم شـهادة شخصـية وطنيـة مغربيـة وشـهادة شخصـية مصـرية متميـزة، قـال الـزعيم عـلال الفاسـي عـن شخصـية ابـن عبـود فـي كلمـة تأبينيـة نشـرها فـي جريـدة العـالم يـوم ينـاير 1950:

كـان رحمـه الله مثـال القـوة فـي التنفيـذ والجـرأة فـي العمـل فلـم أعـرف فـي حيـاتي أحـدا مثلـه فـي التجـرؤ علـى كبـار الشخصـيات النـادرة، ومـن عـاش فـي المشـرق وعـرف طبيعة الاتصال بالناس فيه يقدر الخصلة قدرها ويفهم مغازيها ....

أمـا الأسـتاذ عبـد الـرزاق السـنهوري باشـا وهـو لا يحتـاج إلـى التعريـف لـدى المتخصصـين فـي القـانون الـدولي، فلقـد وصـف قـدرة الشـهيد ابـن عبـود فـي الأوسـاط السياسـية المصـرية مـن أجـل الدفاع عن القضية الوطنية المغربية قائلا:

فـي الختـام، إذا كنـت ركـزت علـى دور الشـهيد امحمـد بـن عبـود فـي تحريـر المجاهـد محمـد بـن عبـد الكـريم الخطـابي دون غيـره مـن الـوطنيين، فهـذا لا يعنـي نفيـي لهـذا الـدور. يمكـن القـول إن هـذه العمليـة كانـت مـن إنتـاج مؤسسـة وطنيـة هـي مكتـب المغـرب العربـي بالقـاهرة، حيـث كـان للشـهيد ابـن عبـود دور بـارز بصـفته أحـد مؤسسـيها ثـم أحـد مـديرها، كمـا يمكـن اعتبـار حلـم اسـتقلال المغـرب، بـل اسـتقلال المغـرب العربـي سياسـيا و المحـرك الرئيسـي لابـن عبـود وزملائـه فـي تنظيم هذه العملية، وحسب هذا التفكير والطرح فإن دور الفرد يذوب في القضية.

كمـا يمكـن القـول، إن تحريـر محمـد بـن عبـد الكـريم يكتسـي أهميـة كبـرى بسـبب نتائجـه أكثـر منـه فـي ذاتـه، ذلـك أنـه مكـن أعضـاء مكتـب المغـرب العربـي والقضـية الوطنيـة المغاربيـة مـن جلـب اهتمـام وسـائل الإعـلام المصـرية والعربيـة والدوليـة، مقـدما بـذلك خدمـة عظيمـة للقضـية الوطنيـة والكفاح ضد الاستعمار في المغرب العربي.

و مـن نتـائج هـذا الحـدث أيضـا، تحـول نشـاط الحركـة الوطنيـة السياسـية فـي القـاهرة خـلال الأربعينيـات إلـى نشـاط المقاومـة المسـلحة خـلال الخمسـينيات، فلقـد كـان لجـوء محمـد بـن عبـد الكريم الخطابي إلى مصر تمهيدا للمقاومة المسلحة في المغرب وخصوصا في الجزائر.

ولقـد كـان هـذا الإشـكال سـبب خلافـا عميقـا بـين المجاهـد محمـد بـن عبـد الكـريم، وبعـض الزعمـاء الـوطنيين المغاربـة ـ زعمـاء الأحـزاب الوطنيـة ـ كمـا أثـر تحريـر محمـد بـن عبـد الكـريم الخطـابي فـي القـاهرة فـي طبيعـة العلاقـة الدبلوماسـية بـين الـدولتين المسـتعمرتين للمغـرب وفرنسـا و إسـبانيا اللتين تحالفتا عسكريا ضده في حرب الريف عشرين سنة قبل تحريره بالقاهرة.

ويمكـن أن ننـاقش تـأويلات مختلفـة متناقضـة فـي بعـض الحـالات، تأويـل الحـدث الـذي نناقشـه فـي إطار العلاقات الفرنسية الإسبانية، أو المنظور الوطني لهذا التأثير.

ورغم أهمية موضوع تأثير الحدث في الأوضاع الدولية، فإن المسألة التي ركزت على مناقشتها، هي دور الشهيد امحمد بن عبود في تحرير المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي بالذات.

لذلك أريد أن أختتم هذا العرض بمناقشة طبيعة العلاقة بين الرجلين بعد الحدث، وبالذات خلال المدة القصيرة ــ مدة سنتين ونصف تقريبا (1يونيو 1947 / 12 دجمبر 1949) ــ التي عاش خلالها الشهيد امحمد بن عبود قبل استشهاده من أجل استقلال وطنه في حادثة الطائرة يوم 12 دجمبر بعيدا عن القاهرة، وبعيدا عن تطوان مسقط رأسه في منطقة نائية بين مدينتي لاهور وكراتشي الباكستانيتين.

يمكن أن نلمس هذه العلاقة من خلال الصور التي أخذت لهما معا في مكتب المغرب العربي في نفس اليوم، عندما اجتمع الخطابي بالزعماء الوطنيين وبالصحفيين، أو صورة احتفالهما بعيد العرش ضمن السلك الدبلوماسي العربي بالقاهرة سنة 1948، أو صورتهما والشهيد امحمد بن عبود يقدم وساما لرئيس الديوان المصري، أو صورة الشهيد امحمد ابن عبود يقدم وساما للأستاذ عبد الرزاق السنهوري في مكتبه سنة 1948 في حضور الزعماء الوطنيين المغاربة وأبناء الخطابي وأولاد عمه، أو تلك الصورة المثيرة التي نشرت على غلاف مجلة « المصور » في نهاية دجمبر 1949، حيث يشاهد السي امحمد الخطابي ومجموعة من الوطنيين وهم يقرأون الفاتحة أمام الصندوق الذي كان يحمل جثة الشهيد امحمد بن عبود الطاهرة، وختم أخيه الدكتور أحمد بن عبود فوق الصندوق في طريقه من كراتتشي إلى طنجة حيث دفن بضريح سيدي بوعراقية عندما منعت السلطات الاستعمارية الإسبانية دفنه في مسقط رأسه تطوان، لأن ابن عبود حسب تعبير المقيم العام الجنرال بريلا كان منفيا حيا وميتا.

وهناك بعض التفاصيل الموجودة في الرسائل الخاصة المتبادلة بين الشهيد امحمد بن عبود من القاهرة وأخيه محمد بتطوان، تعبر عن طبيعة العلاقة الشخصية بين الرجلين، تلك التي طلب فيها على حد تعبيره:

ويمكن الاستعانة أيضا بالشهادة الشفوية لتركيب صورة العلاقة الشخصية بين الرجلين.

إن والدتي الحاجة زبيدة أفيلال وهي في العشرين من عمرها، مازالت تحتفظ بذكرى بعض الزيارات الشخصية للمجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي لشقة زوجها الشهيد امحمد بن عبود بحي گاردن سيتي. كان الخطابي حسب شهادتها يستحم قبل تناول الأكل في الأيام الأولى بعد نزوله بالقاهرة، وكانا ينطقان بعض الجمل بالفرنسية حتى لا يفهما.

تفتخر والدتي لكون المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي كان يثني على طبخها التطواني الأصيل، فكان الشهيد امحمد بن عبود يبلغها ذلك. ومن الطبيعي أن تبهر تلك الفتاة بمشاهدة بطل حرب الريف، يتناول الغذاء مع زوجها، فلم تمر سنين كثيرة على مشاركتها بالمدرسة الأهلية بتطوان في أداء الأناشيد الوطنية.

و أخيرا، أريد أن أختتم هذه المداخلة، ببلاغ نشره المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي في جريدة " الأهرام " القاهرية دجمبر 1949، يتقدم فيه بالشكر إلى الذين قدموا له تعازيهم بمكتب المغرب العربي بالقاهرة في شهداء المغرب العربي: الدكتور الحبيب تامر من تونس والشهيد علي الحمامي من الجزائر والشهيد امحمد بن عبود من المغرب، النص[12]:

> تلقينا من سمو الأمير عبد الكريم الخطابي النعي التالي: أنعي إلى الأمة الإسلامية والأمة العربية وخاصة المغرب العربي بمزيد الحزن وبالغ الأسى استشهاد ثلاثة من أخلص رجالنا وأبرهم بقضية الحرية التي ندافع عنها فقد أودى حادث مشؤوم بحياة شهدائنا الأبرار الدكتور الحبيب ثامر، والأستاذ علي الحمامي والأستاذ امحمد ابن عبود أثناء عودتهم إلى مصر ملاذ الأحرار بعد أن مثلوا شعوبهم في المؤتمر الإسلامي بكراتشي وإني إذ استمطر عليهم شآبيب الرحمة أتقدم إلى شعوب المغرب العربي بأجزل العزاء وأقدم تعازي الحارة إلى جلالة ملك مراكش وجلالة باي تونس وإلى شعب الجزائر المناضل .

ولقد اطلعنا مؤخرا على أرشيف الجنرال فريلا بمدينة قادس، واعتمدناها لدراسة هذا الموضوع وسنقوم بنشر هذه الدراسة قريبا عن شاء الله. ونلاحظ أن هذا الأرشيف الإسباني يؤكد ويعزز ما وصلنا إليه اعتمادا على الوثائق العربية الوطنية في هذا العرض.

12. جريدة *الأهرام*، 14 دجمبر 1949.

المسرح المغربي في عهد الحماية : ملامح من بنية الخطاب

رشيد بناني مشيطة

لقد قر في بعض الأذهان أن المسرح المغربي خلال فترة الحماية، لا سيما في مدينة فاس، قد كان مسرح نضال سياسي ومواجهة مباشرة وعنيفة مع السلطات الاستعمارية؛ وتؤكد على ذلك بحرارة العديد من الكتابات التي تناولت هذه المرحلة المبكرة من تاريخ المغرب الحديث؛ غير أن المتأمل في اليوميات التي توثق لبدايات المسرح المغربي والتي كتبت عنه في حينه، يكتشف أن هذا الأخير لم يكن، في أغلب لحظاته، أداة معارضة مباشرة أو عنيفة للسلطة الاستعمارية القائمة، بقدر ما كان تعبيرا فنيا عن هموم المدينة والإنسان في تنوعها وتشعبها واختلافها، كما كان في نفس الوقت أداة تجمع ما بين هاجس المتعة والتسلية وهدف التوعية والتربية والبناء الاجتماعي. وإذا كانت بعض الأعمال التمثيلية قد تحولت، في وقت معين، إلى أداة للمواجهة السياسية المباشرة والقوية للاستعمار، إبان فترات الغليان الوطني واشتداد معركة الاستقلال في خمسينيات القرن 20 ، فإن ذلك لم يحول السياسة إلى هاجس وحيد أوحد لفنانينا الدراميين، ولم يشغلهم عن الإخلاص لأصول فنهم والرغبة في الإبداع فيه؛ وهذا ما سنحاول بسطه في هذه المقالة.

ملامح الخطاب في مسرح ما بعد الحرب العالمية الأولى :

لقد ساهمت مجموعة من الكتابات المتأخرة (التي كانت بداياتها في ستينيات القرن 20) في بروز ذلك الحكم التعميمي غير المعلل، مع ما صاحبه من ترسيخ لأسطورة استشهاد محمد القري بسبب ما سمي معارضة مسرحه للاستعمار الفرنسي، نذكر من أوائل هذه الكتابات ما صرح به عبد الله الستوكي :[1]

> أحس الطلبة بالتيار الأدبي المجدد الذي ظهر في المشرق، فأخذ بعض الطلبة الوطنيين بعض الترجمات الشرقية لموليير واجتهدوا لإعطائها مدلولا سياسيا عند العرض... وذهب ضحية هذا التيار أحد المسرحيين اللامعين، فقد توفي القري إثر تعذيبه معاقبة له على تلك العروض السياسية.

وربما ساهم في ميلاد هذا الاعتقاد ثم انتشاره ورسوخه استشهادالمؤلف المسرحي محمد القري عقب مشاركته في المظاهرات الوطنية التي اندلعت بمدينة فاس سنة 1937. ومعلوم أن محمد القري قد شارك في تأجيج وقيادة هذه المظاهرات باعتباره خطيبا يمثل الحركة القومية (حزب الشورى والاستقلال لاحقا)، ويؤجج ثورة الناس قبل خروجهم للمظاهرة في الشوارع؛ لذلك

---

*A Compléter

1. العلم، الأحد، 20 أكتوبر 1968.

فإن سجنه ثم وفاته داخل معتقل (كولميما) العسكري خلال نفس السنة المشار إليها، لم يكونا نتيجة مباشرة لنشاطاته الأدبية وعروضه الفنية داخل الفرق المسرحية، كما يعتقد الكاتب، وإنما كانا بسبب نشاطه الوطني الحزبي العام، وتزعمه للمظاهرات الاحتجاجية المذكورة.[2]

وقد أصدر الأستاذ عبد الإله الكتاني، خلال عقد السبعينيات، سلسلة من المقالات التي نشرتها مجلة فنون[3]، يوثق فيها بالصورة والشهادة والقصاصة الصحفية لبدايات الحركة المسرحية في عدد من مدن المغرب؛ وتتضمن هذه المقالات مجموعة من أوصاف العروض وملخصات المسرحيات المعروضة وتفاعلات الصحافة المعاصرة لها معها، وكلها تسير في اتجاه جديد مخالف؛ ولكن صدور هذه المقالات التوثيقية، وإقبال المثقفين على قراءتها، لم يؤد دوره التصحيحي، ولم يساهم في تغيير ذلك الاعتقاد المضلل وذلك الحكم التعميمي، واستمرت معظم الكتابات اللاحقة تؤكد على هيمنة السياسة على الخطاب المسرحي في المغرب خلال فترة الحماية.

لقد حاول الأستاذ عبد القادر السميحي أن يدخل بعض الموضوعية المحدودة على هذا الحكم، حيث استثني منه فرقا مسرحية يعرفها عن قرب، وهي تلك التي كانت ناشطة في منطقة طنجة خلال الحكم الدولي، حين يقول[4] :

> والواقع أن سياسة الإدارة الدولية القائمة على قمع الروح الوطنية، كانت تدعو الوطنيين إلى التقية الفكرية، من حيث تجنب إثارة الآراء السياسية والاجتماعية في صيغة مباشرة. وكان الرمز وسيلة لإثارة الأفكار التغييرية بواسطة المسرحيات التاريخية العربية...

غير أن عبد القادرالسميحي نفسه لا يلبث أن يعود ليؤكد على نفس الأحكام الخاطئة المتداولة بالنسبة لبقية مناطق المغرب، وعلى رأسها مدينة فاس، قائلا[5] :

> وعلى العكس المسرح الفاسي في نفس هذه الفترة... كان مسرح المجابهة العنيفة، يثير المواقف الحاضرة المتصلة بالوضع القائم إلى درجة أن الرقابة كانت تمنع عرض الكثير منه. وقد استشهد المرحوم محمد القري بسبب آرائه الحرة المباشرة في مسرحياته.

وقد بقيت هذه الأحكام متداولة، إلى يومنا هذا، وكأنها أمر بديهي لا يحتاج إلى دليل، حتى بين الجامعيين أنفسهم[6] ؛ وبناء على هذه الأحكام نفسها تم التقليل من القيمة الفنية لهذه

---

2. للاطلاع المفصل على ملابسات اعتقاله وموته أنظر كتابنا: *حفريات في ذاكرة المسرح المغربي*، محمد *القري*، الدار البيضاء، 2000.
3. مجلة *فنون* كانت تصدر بالرباط عن وزارة الثقافة.
4. عبد القادر السميحي، *نشأة المسرح و الرياضة في المغرب*، الرباط، مكتبة المعارف، 1986، ص. 149.
5. نفس المرجع والصفحة.
6. يقول حسن المنيعي في كتابه : *المسرح المغربي من التأسيس إلى صناعة الفرجة*،، فاس، منشورات كلية الآداب ظهر المهراز، 1994، ص 7، ما يلي : " إن كان تجذر المسرح في العديد من المدن المغربية قد أدى برواده إلى العمل ضمن قناعات سياسية، فإن هذا التجذر اعتمد في الأساس على نصوص عربية ذات نزعة سلفية (صلاح الدين الأيوبي؛ نجيب الحداد) تعبر عن مواقف وطنية محمومة تنادي بالتغيير والمطالبة بالاستقلال. وهذا يعني أن البداية إبان فترة الاحتلال كانت ترتبط بالنضال الوطني".

الممارسة المسرحية برمتها، في اعتبار دارس مثل عبد الواحد عوزري الذي نجده يقول عن هذه الحقبة[7] :

في مرحلة أولى... لم يكن المسرح سوى خطاب سياسي وطني، ونوع من المرافعة ضد الوجود الاستعماري بالمغرب؛ إنها فترة ميلاد مسرح المقاومة .

ثم يستنتج الكاتب، في نفس الكتاب، حكما لا يقدم عليه دليلا، كالتالي :كان مسرحا تحتل فيه الجوانب التقنية أهمية ثانوية... ولأنه بدون قاعدة تقنية أو طموح جمالي، فقد اعتبر هذا المسرح بحق مسرحا ساذجا (نفسه، ص 27).

ورغم هذه التأكيدات المتواترة، فإن من يعود إلى الوثائق التي تؤرخ لبدايات المسرح في فاس متمعنا في عامة مواضيعه، وفيما كتبته عنها الصحافة التي واكبته في إبانه، والأوصاف التي نشرتها عن مختلف أعماله، سوف يجد ما كان يعرض على المسرح بفاس متشابها تماما مع ما كان يعرض في طنجة أو في الرباط أو في تطوان أو في الدار البيضاء، أو في غيرها؛ فقد كان هذا المسرح يطرح أكثر المواضيع الإنسانية بهجة وإمتاعا للمتفرج المغربي، مثل مواضيع الغرام والمغامرة والتاريخ والحلم الرومنسي ؛ نذكر كأمثلة على هذا النوع مسرحية شهداء الغرام (1928) المقتبسة عن روميو وجولييت، والمنصور الذهبي (1928)، والشهيدة(1929) المقتبسة عن غادة الكاميليا لألكسندر ديماس الإبن، وهارون الرشيد مع خليفة الصياد (1931)، والحب فداء الغرام (1932)، وأميرة الأندلس(1933) لأمير الشعراء أحمد شوقي...

لقد كانت لهذا المسرح أيضا مواجهاته الرمزية الذكية ومناوراته الحذرة لسلطات استعمارية لا تتساهل في متابعة ومراقبة وإسكات كل الدلالات السياسية الخطيرة على وجودها؛ نذكر كمثال على ذلك مسرحية صلاح الدين الأيوبي (1927). لقد كانت هذه المسرحية المستمدة من التاريخ تثيرشعورالاعتزاز والحمية والنخوة الوطنية في نفوس كل من شاهدها من المغاربة؛ ولكنها، بالرغم من ذلك، لم تعلن المواجهة الرافضة للأجنبي المحتل بقدر ما كانت تدعو إلى المصالحة والاحترام المتبادل بين المسيحيين والمسلمين[8].

كما نذكر، كمثال ثان، مسرحية طرتيف التي ترجمها المهدي المنيعي وعبد السلام التويمي، وقدمتها فرقة قدماء تلاميذ ثانوية مولاي إدريس بفاس سنة 1928. لقد أحدثت هذه المسرحية رجة اجتماعية غير مسبوقة، وحركت احتجاجات بعض رجال الطرق الدينية الذين رأوا فيها

7. عبد الواحد عوزري، *المسرح في المغرب : بنيات وتجليات*، ترجمة عبد الكريم الامراني، الدار البيضاء، دار طوبقال، 1998، ص 203.
8. انظر دراسة لهذه المسرحية في كتابنا: *حفريات في ذاكرة المسرح المغربي، تجارب وأعلام*، الدار البيضاء، 2001، ص. 53 -74.

انتقادا لشيوخهم؛ وكان بعض هؤلاء الشيوخ من المتعاملين مع سلطات الحماية، مما اضطر هذه السلطات إلى منع عروضها؛ ولكن طرتيف، رغم الرجة الاجتماعية التي أحدثتها، لم تكن هي بدورها تحمل العداء أو الرفض أو المواجهة المباشرة للسلطة الحاكمة. وقد كتب روجيه لوتورنو مقالة يتذكر فيها هذه الحادثة، بعد عشر سنوات من وقوعها، ويقول فيها[9] :

لقد تم تقديم مسرحيات موليير مرات عديدة قبل الآن بفاس، من طرف المغاربة المسلمين؛ بل لقد قدمت طارتوف، مند عشر سنوات، فأثارت من الانفعال مثل الذي أثارته بباريس مند قرنين ونصف.

وإذا تركنا جانبا هذين العملين اللذين تلونا جزئيا بالطابع السياسي، ولو دون أن يكونا مسرح مواجهة مباشرة للسلطات الحاكمة، فإننا نجد معظم المجهود المسرحي الذي بذله المغاربة، في المرحلة الأولى من عهد الحماية، يكتسي بالأساس طابع الدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي، وتربية الفكر والسلوك، وتحديث المجتمع المغربي، ونشر الثقافة العربية.

لقد كان المسرح شكلا فنيا حديثا وممارسة ثقافية واجتماعية جديدة على المغاربة؛ تعرفوا عليه، أولا، من خلال نشاط الفرق الفرنسية التي كانت ترد على بلادهم لإمتاع الجاليات الأجنبية المقيمة في المغرب؛ ثم تعرفوا عليه، ثانيا، من خلال الدروس التي تلقاها شبابهم المتعلم في المدارس العصرية التي أسستها سلطات الحماية؛ كما تعرفوا عليه أساسا وبشكل ملموس من خلال الجولات الفنية التي قامت بها بعض الفرق المصرية والتونسية داخل المغرب؛ لذلك كان إنشاء الفرق وإنتاج المسرحيات يشكل في حد ذاته إضافة نوعية، وخطوة في سبيل تحديث المجتمع المغربي وإغنائه بشكل فني تعبيري عصري لم يكن له وجود من قبل؛ وهذا ما قامت به الشبيبة المغربية المتعلمة في المدارس العصرية ودعمته سلطات الحماية في البداية، باعتباره إنجازا من إنجازاتها في مجال نشر التعليم وتحديث الثقافة؛ وهذا ما يعبر عنه أحد الصحفيين في تعليقه على مسرحية صلاح الدين الأيوبي، المشار إليها أعلاه، حين عرضتها فرقة ثانوية مولاي إدريس أول مرة بفاس سنة1927 [10]:

وقد علمت الشبيبة فيما علمت، يوم أن كانت كارعة في حياض التعليم، أن من الفنون الجميلة فن التمثيل الذي يغرس الفضائل في النفوس ويربي ملكات الشعور والإحساس، ويدعو النفوس إلى المعالي، ويأخذ بزمامها إلى الكمالات، فكلفت به كلف المجنون بليلاه، وتمنت أن يشرق على ربوع وطنها يوما من الأيام نوره اللامع.

وما كانت تظن أن ذلك الكمال الذي تبتغيه لوطنها سيتم له على يدها ويكون السرور مزدوجا.

9. Roger Le Tourneau, "Moliere à Fès", *Bulletin de l'enseignement public*, n° 159, Rabat, avril-mai 1938, p. 261.
10. "التحي النهضة الفاسية و ليحي الشباب الناهض"، *السعادة*، 1927/4/2.

ولكـن الفـن المسـرحي، وإن كـان ممارسـة ثقافيـة حديثـة، فإنـه لـم يفـرق بـين خريجـي المـدارس العصـرية وزملائهـم مـن خريجـي جامعـة القـرويين، بقـدر مـا جمـع كلمـتهم حـول هـذا الفـن الحـداثي الـذي سيسـاهم فـي بنـاء مجتمـع متقـدم وواع؛ لـذلك كـان أول مـن احتفـى بمسـرحية صـلاح الـدين الأيـوبي السـالفة الـذكر، وبالفرقـة التـي قـدمتها هـو الشـاعر الأسـتاذ عـلال الفاسـي الـذي نظـم قصـيدته المعروفـة بعنـوان إلـى الشـباب الممثـل وضـمنها مجموعـة مـن الخـاطرات النقديـة، ومـن الوصـايا الاجتماعيـة للفرقـة الناشـئة، وللشـباب الممثـل، تتمثـل أساسـا فـي اسـتعادة الثقـة بـالنفس، والاعتـزاز بالوطن ورموزه، والتمسك باللغة العربية[11] :

كل صعب على الشباب يهون — هكـذا همة الرجال تكون
مثلوا ما مضى من فخـــار — ليرى ما أتاه دهر خؤون
آه لو دام ذلك العزم فينا — كان للعالمين منا شؤون
يا شباب البلاد أحييتمونا — فلنـا فيكم رجـاء متـين
قد بعثتم رجاءنـا فأديمـوا — سركم و اعملوا ولا تستكينوا
واحفظـوا ما ورثتم من لسـان — فهو روح الحياة والأكسجين
لـغة الـعرب أتـقنوها فمنها — كـل مـا تـبـتـغونـه يـستـبين

ومباشـرة بعـد ذلـك، لـم يبـق النشـاط المسـرحي فـي يـد خريجـي الثانويـات وحـدهم، فسـرعان مـا التحـق بهـم خريجـو جامعـة القـرويين؛ وقـد اشـتهر بيـنهم الشـاعر محمـد القـري (1900 – 1937) الـذي بـرع فـي كتابـة نصـوص مسـرحية ذات طعـم أدبـي، خصـص معظمهـا للإصـلاح الاجتمـاعي؛ ويكفـي أن نطلـع علـى موضـوع مسـرحيتيه الأساسـيتين العلـم ونتائجـه)1928 (و الأوصـياء)1932(، والصـدى الـذي خلفتـه كـل واحـدة منهمـا، لنتعـرف علـى التوجـه الـذي اتخـذه نشـاط هـذا الشـاعر الفنـان، ولنعـرف أيضـا أن المواضـيع الناجحـة التـي تناولهـا المسـرح فـي مرحلـة مـا قبـل الحرب العالمية الثانية قد كانت أساسا هي مواضيع إصلاح المجتمع وتنوير أبنائه[12].

لقـد كـان محمـد القـري واعيـا بطبيعـة المرحلـة وأخطـار المواجهـة المباشـرة للاسـتعمار خلالهـا، كمـا كـان مؤمنـا بضـرورة البـدء أولا بإصـلاح المجتمـع وتأهيـل أبنائـه تـدريجيا حتـى تـتمكن الـبلاد مـن

11. *ديوان علال الفاسي*، ج. 1.
12. للاطلاع على حياته وأعماله أنظر كتابنا: *حفريات في ذاكرة المسرح المغربي، محمد القري*، الدار البيضاء، 2000.

الاعتماد عليهم في المستقبل؛ ويعبر هو نفسه عن ذلك بوضوح في مقالة يوجهها إلى الكتاب، صاغها سنة 1933 تحت عنوان الموضوعات الكتابية، يقول فيها[13] :

فالمواضيع الكتابية لا تنحصر في المسائل الدينية أو المواضيع التي قد تهيج أفكار الشعب... بل المواضيع الكتابية منها السياسي، وهذا لم يحن وقته بعد، وحتى إذا حان فعن تعقل واحتراس مما لا يسوء الأمة، ولا الدولة الحاكمة فيها. ومنها الأخلاقي، وهذا الوقت هو عنفوان القول فيه، وهو أوان غرسها في النشء النامي والجيل المستقبل الذي يحمل مسؤولية الشعب نحو الحياة.

الخطاب المسرحي بعد الحرب العالمية الثانية:

ينبغي انتظار نهاية عقد الأربعينات لنعاين التقوي التدريجي لاستعمال التمثيل كأداة سياسية مباشرة في نشر أفكار الحركة الوطنية الصاعدة، لقد تكاثرت الفرق المسرحية بين الشباب والتنظيمات الوطنية، الذي بدأ مع نهاية الأربعينات، ثم تقوى مع حصول المغرب على استقلاله؛ مما جعل بعض الفرق الشابة، أو فرق الأحياء، لا تلتفت إلى المقومات الفنية لأعمالها بقدر ما تعنى بالهم السياسي الذي كانت تفرضه المرحلة. وترسم جريدة السعادة صورة انتقادية لهذا النوع من التمثيل بقولها[14] :

ولا نذيع سرا إذا قلنا أن جماعة من شبان الحي يجتمعون في الأزقة، ثم يؤلفون فرقة تمثيلية، ثم يكترون المسرح ويعلقون إعلانات تحمل اسم الرواية أو فكرة الرواية، وربما يؤلفون الرواية داخل المسرح وبين الكواليس، ويوزعون الأدوار ويخرجون إلى الجمهور دون خجل. ولماذا الخجل ما داموا يعرفون نقطة الضعف في نفسية الجمهور البسيط ، ونقطة الضعف هذه لا تتجاوز طعن خصمه بخنجر ثم يقف على رأسه خطيبا يتلفظ ببعض الفقرات منها "هذا جزاء الخائنين أعداء الوطن... .

غير أن التعميم هنا أيضا غير صالح لمن يريد امتلاك صورة موضوعية عن المسرح المغربي ومظاهر حيويته وتنوعه. وقد حاولنا في عمل سابق أن نصنف أنواع النشاط المثيلي

13. محمد القري،"الموضوعات الكتابية"، *مجلة المغرب* ، عدد 8، مارس-أبريل 1933، ص. 26-27.
14. "نريد فرقة قومية تشرف عليها وزارة التعليم"، *السعادة*، 3 فبراير 1956 .

التـي كانـت سـائدة فـي مرحلـة مـا قبـل الاسـتقلال[15]، وخلصـنا إلـى تمييـز خمـس عينـات تتقـاطع فيمـا بينها وتتبادل التأثير، هي :

1 ــ التمثيـل العفـوي والتقليـدي: الـذي يمارسـه فنـانون شـعبيون، ونصـادفه فـي أنمـاط التعبيـر الموروثـة التـي كانـت متداولـة فـي السـاحات العموميـة وفـي عـدد مـن الاحتفـالات الدينيـة والاجتماعية، مثل الحلقة والبساط وسيدي الكتفي وسلطان الطلبة...

2 ــ التمثيـل شـبه الاحترافـي: الـذي يتـراوح بـين الـدراما والكوميـديا والاسـتعراض، وكـان يقـوم بـه فنـانون معروفـون يقبـل علـى أعمـالهم الجمهـور مثـل عبـد الواحـد الشـاوي والبشـير العلـج وبوشـعيب البيضاوي...

3 ــ المسـرح الأدبـي : المكتـوب والمنشـور فـي المجـلات القليلـة آنـذاك، ومـن أسـمائه عـلال الهاشمي الفيلالي، وأبو بكر اللمتوني، وأحمد عبد السلام البقالي...

4 ــ التمثيـل الإذاعـي : لاسـيما عنـد مـيلاد قسـم التمثيـل العربـي فـي الإذاعـة المغربيـة سـنة 1949 على يد عبد الله شقرون ومن يؤازره من الفنانين الآخرين.

5 ــ المسـرح الهـاوي والجـاد : الـذي كـان يمارسـه عـدد مـن المتعلمـين، وتدعمـه فـي الغالـب تيـارات الحركـة الوطنيـة؛ وكـان مـن أهـم أعلامـه فرقـة المنـار فـي الـدار البيضـاء، وفرقـة الـنجم المغربـي في مدينة فاس...

وقـد كـان عـدد مـن الفـرق المنتميـة إلـى الصـنف الأخيـر يعمـل تحـت إشـراف الأحـزاب الوطنيـة المغربيـة التـي احتضـنت الأعمـال الأولـى لعـدد مـن الفنـانين الـذين داع صـيتهم فيمـا بعـد، نـذكر علـى رأسـهم الفنـان أحمـد الطيـب العلـج الـذي بـرزت أعمالـه الجيـدة الأولـى داخـل فرقـة تابعـة لحـزب الشورى والاستقلال بمدينة فاس في بداية الخمسينات.

إن الاطـلاع عـن كتـب علـى الأعمـال التـي قـدمتها هـذه الفـرق، هـي نفسـها، يجعلنـا نكتشـف أن المسـرح المغربـي لـم يكـن، فـي هـذه الفتـرة بـدورها وفـي نماذجـه الجيـدة، مسـرح مواجهـة سياسـية مباشـرة للسـلطة الاسـتعمارية، بقـدر مـا كـان طرحـا لقضـايا المدينـة ــ بمـا فيهـا القضـايا السياسـية الساخنة ـ ومناقشة لها بطرق فنية متعارف عليها في تقاليد الإبداع.

وللتـدليل علـى مـا سـبق نـورد نمـاذج مـن ربرتـوار فرقـة المنـار التـي كانـت ناشـطة فـي الـدار البيضـاء فـي الأربعينيـات فـي كنـف الحركـة الوطنيـة؛ فقـد تضـمن هـذا الربرتـوار مسـرحيات ذات

15. انظر كتابنا: *المسرح المغربي قبل الاستقلال، دراسة دراماتورجية*، فاس، منشورات جامعة سيدي محمد بن عبد الله، 2008، ص. 46 -67.

قيمة أدبية عالية، تتخذ الرمز التاريخي لتبليغ ما تريد قوله، نذكر منها : فتح الأندلس، وصلاح الدين، وعبد الرحمن الناصر، أو تتخذ الحكاية الشعبية كأمثولة تحيل على زاوية نظر إلى الواقع السياسي، مثل مسمار جحا لعلي أحمد باكثير...[16]

كما نشير، للتدليل على ذلك، إلى المضمون العام لمسرحية الحاج بناصر، رئيس الغرفة التجارية التي كتبها وشخصها الفنان أحمد الطيب العلج سنة 1951، وكانت عبارة عن عرض كاريكاتوري ينتقد بشكل ساخرالطرق المغشوشة التي يتم بواسطتها انتخاب رؤساء وأعضاء المجالس المنتخبة من طرف سلطات الاستعمار.

16. لا توجد دراسات مفصلة لنشاط هذه الفرقة المتميزة، وللاطلاع على بعض معالم فنها، أنظر: عبد الله شقرون، "المسرح المغربي بين الهواية والاحتراف"، *المشاهد*، عدد 51، الرباط، 15 فبراير 1961، ص. 26.

المجالات الحدودية في تاريخ المغرب

عكاشة برحاب*

تمهيد

عرفت المجالات الحدودية المغربية عبر العصور مدّاً وجزراً تبعاً لقوّة الدولة أو ضعفها، وفي كل الحالات حافظت الدولة المغربية على كيانها واستمراريته منذ قيام دولة الأدارسة، وهذه خصوصية تفرّدت بها بلاد المغرب، فبعد أن اتسعت رقعة الدولة في عهد الموحدين إلى أبعد مدى لها، حيث شملت كل الشمال الإفريقي، تَشكّل في عهد السعديين ما يمكن أن نسميه تجاوزا الدولة الوطنية بحدود معلومة بناء على مقاييس معتمدة لدى المخزن، وهي البيعة والخطبة باسم السلطان يوم الجمعة واستخلاص الجبايات وتعيين قواد القبائل في كل نواحي البلاد بما في ذلك مجال الهوامش، ومعلوم أن المجال الحدودي امتد من الشمال الشرقي (ساحل البحر الأبيض المتوسط) إلى الجنوب الشرقي (بلاد شنقيط)، ويمكن تعريف المجال الحدودي باعتباره مجالا جغرافيا يفصل بين كيانيْن سياسيّين بناء على خط حدودي متفق عليه، وكثيرا ما كان هذا المجال مصدرا للتوترات والصراعات بحكم الغموض الذي ميزه، خاصة منذ قيام الدولة السعدية. ويقتضي موضوع المجال الحدودي البحث في العلاقات السياسية والتبادل التجاري ووضع سكان مناطق الحدود، غير أن مسألة الحد تبقى هي العنصر المُحدد الرئيس للمجال الحدودي، وهو الذي يؤثر على كل الجوانب الأخرى من قبيل حسن الجوار وكل ما يرتبط به، وتبعا لذلك سوف نركز في هذا العرض على مسألة الحد. ويمكن أن نميّز بهذا الخصوص بين عدة مراحل في تاريخ المغرب الحديث والمعاصر.

1 ـ مفهوم الحدود في إطاره الإسلامي : من عهد السعديين إلى بداية عهد العلويين

يُطرح بهذا الصدد سؤال محوري، هو كيف ومتى ظهر مفهوم الحدود في بلاد المغارب؟ إن الإجابة عن هذا التساؤل يقتضي التذكير بتاريخ المجال الحدودي منذ مطلع القرن السادس عشر، وخاصة منذ دخول الأتراك العثمانيين إلى بلاد الجزائر، حيث أدى ذلك إلى التمييز بين المغرب الأوسط (أي الجزائر) الذي سيطر عليه العثمانيون والمغرب الأقصى الذي كان تحت حكم السعديين[1]، وترتب عن هذا الوضع صراع بين الأتراك وملوك الدولة السعدية الناشئة. وفي بداية الأمر، استطاع السلطان محمد الشيخ بسط سلطته على تلمسان سنة 1549 بعد أن استغاث به أهلها، لكن الغلبة كانت في نهاية المطاف للدولة العثمانية التي سيطرت على

*A Compléter

1. Abdallah Laroui, *Les origines sociales et culturelles du nationalisme marocain (1830 - 1912)*, Paris, F.Maspéro, 1977, p. 58.

المدينـة وأحوازهـا سـنة 1552. وأعقـب ذلـك بعـثُ سـفارة عثمانيـة إلـى فـاس بهـدف الصـلح وضـبط الحـدود بـين البلـدين، غيـر أننـا نجهـل مـآل هـذه السـفارة[2]، ومـن المـرجح أنهـا فشـلت فـي ضـبط معـالم الحـد بشـكل دقيـق، وهـذا مـا كشـفه واقـع الحـال لاحقـا. وفـي عهـد أحمـد المنصـور السـعدي وبعـد أن صـفا الجـو السياسـي بـين الدولـة العثمانيـة والشـرفاء السـعديين، صـارت وجـدة مدينـة الحـدود المغربيـة، بينمـا صـارت تلمسـان تشـكل حـدود الأتـراك فـي بـلاد الجزائـر[3]. ويتبـين مـن هـذا التحديـد مـدى الغمـوض الـذي طبـع المجـال الحـدودي بـين دولتـيْن إسـلاميتين، فـي وقـت كانـت فيـه أوربـا تعـرف نشـأة الدولـة الوطنيـة بكـل مقوماتهـا مـن حـدود واضـحة المعـالم معـززة بخـرائط طبوغرافيـة، وهـو مـا كانـت تجهلـه الـبلاد الإسـلامية. وتكشـف المصـادر المغربيـة أن نفـوذ أتـراك الجزائر امتد إلى شمال شرق المغرب بعد أن أصاب الوَهن الدولة السعدية في أواخر أيامها.

صـاحَبَ قيـامُ الدولـة العلويـة تطـورٌ ملحـوظ بشـأن مسـالة الحـدود، وخاصـة منـذ منتصـف القـرن السـابع عشـر مـيلادي، بعـد أن بسـط السـلطان مـولاي مَحمـد بـن الشـريف سـلطته علـى شـمال شـرق المغـرب، بـل تجـاوزه إلـى مدينـة تلمسـان، وهـو مـا أغضـب داي الجزائـر[4]، الـذي أوفـد سـفارة إلـى تافيلالـت، فتعهـد لـه السـلطان حينئـذ بعـدم تجـاوز واد تافنـا، وهـو مـا نقلـه أحمـد بـن خالـد الناصـري على لسان هذا العاهل بقوله :

"إنـي أعاهـد الله تعـالى لا أعـرض بعـد هـذا اليـوم لـبلادكم، ولا لـرعيتكم بسـوء، وإنـي أعطـيكم ذمـة الله وذمة رسوله لا قطعت واد تافنا إلى ناحيتكم إلا فيما يرضي الله ورسوله."[5]

وصار هذا الالتزام بمثابة اتفاق ضمني بين أتراك الجزائر والدولة العلوية.

ويحـق لنـا أن نتسـاءل هـل يرقـى هـذا التعهـد إلـى مسـتوى الاتفاقيـات الدوليـة، وهـل انعكـس أثـره علـى أرض الواقـع عبـر معـالم واضـحة للحـد، مـا هـو واضـحٌ هـو مجـرى واد تافنـا، الـذي صـار يشـكل حـدا طبيعيـا لا يزيـد طولـه عـن 150 كلـم (مـن جنـوب شـرق مغنيـة إلـى مصـبّه فـي البحـر بموقـع يُـدْعى بنـي انصـاف)، بينمـا ظلـت أجـزاء أخـرى غيـر واضـحة المعـالم جنـوب هـذا الـواد، ونسـتنتج مـن ذلـك أن الالتـزام الـذي قطعـه السـلطان علـى نفسـه لا يكتسـب مقومـات الاتفاقيـات الدوليـة. ويفسـر هـذا التقـاعس فـي ضـبط معـالم الحـدود بشـكل دقيـق إلـى انتمـاء الـدولتين إلـى أمـة واحـدة يوحّـد بينهـا الإسـلام، هـذا فضـلا عـن الـروابط التـي كانـت تجمـع بـين قبائـل هـذا المجـال الحدودي .

---

2. محمد الإفراني المراكشي، *نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي*، تصحيح هوداس، باريس، مطبعة أنجي، 1888، ص. 41-42.
3. محمد حجي، *الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين*، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، مطبعة فضالة، 1978، الجزء الثاني ص. 431.
4. أبو القاسم الزياني، *البستان الظريف في دولة مولاي الشريف*، مخطوط المكتبة الوطنية رقم د 1577، ص. 22-38.
5. أحمد بن خالد الناصري السلاوي، *الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى*، الدار البيضاء، دار الكتاب، 1956، الجزء السابع ص. 20-21 .

ورغم هذا التحديد المجالي بين الدولتيْن، فإن التوتر كان هو السائد في علاقة الدولة المغربية بأتراك الجزائر، وبلغ هذا التوتر ذروته في عهد السلطان مولاي إسماعيل الذي نظم عدة حمالات إلى شرق المغرب، تجاوز خلالها وادي تافنا. فطالب دايات الجزائر المولى إسماعيل بالتزام الحد الذي اعترف به أسلافه، ومن كان قبلهم من ملوك الدولة السعدية، وبعثوا له بكتاب أخيه مولاي مَحمد بن الشريف، الذي كان بعث به إليهم مع رُسلهم، كما بعثوا له كتاب أخيه مولاي الرشيد، الذي فيه الحدّ بينه وبينهم، فوقع الصلح على ذلك[6] .

ومن الثابت أن السلطان مولاي سليمان قد فرض سلطته الفعلية بشكل نهائي على شمال شرق المغرب في نهاية القرن الثامن عشر، واعترف داي الجزائر بسلطة المخزن على المناطق الواقعة غرب واد تافنا، فخاطبه بهذه العبارة: تركنا لكم ما كان لكم من قديم الزمان[7]. وهذا تأكيد على اعتبار واد تافنا هو الحد بين الدولتين، وهذا الوضع بعيْنه عاينه رحّالة إسباني زار المنطقة في بداية القرن التاسع عشر[8]. وبذلك يتضح أن الطرفيْن التزما في نهاية المطاف باعتبار واد تافنا حدّا يفصل بين كيانيْن سياسييْن.

غير أن قبائل هذا المجال الحدودي لم تكن تأبَهُ لهذا الحد، نظرا للسلطة الإسلامية التي كانت تسود في هذا الجانب وذاك، وشجعها على ذلك موقعها في الهامش، فضلا عن العلاقة الاجتماعية والاقتصادية وروابط الدم التي جمعت منذ قرون بين قبائل هذا الطرف وذاك. إلا أن الوضع قد تغيّر بعد سنة 1830، حيث اعتبرت فرنسا نفسها وريثة للحكم التركي بالجزائر، وعلى ضوء ذلك نهجت سياسة في التخوم المغربية–الجزائرية باعتبارها امتدادا لسياسة الترك، واستفادت بالخصوص من غياب حدود واضحة المعالم قد تعرقل أطماعها التوسعية في شرق المغرب. وهو ما طرح مشكل الحد من جديد، لكن بناء على تصوّر غير معهود لدى الدولة المغربية.

2 - فرض تصوّر جديد للحدود بعد سنة 1845

من الثابت أن رسم حدود جديدة بين المغرب والجزائر المحتلة سنة 1845، كان مبنيا على القوة والغلبة، ولم يستند بتاتا إلى التاريخ والجغرافيا، خاصة بعد انتكاسة الجيش المغربي في معركة إيسلي سنة 1844 إثر دفاعه عن الحد المعلوم أيام الترك -أي واد تافنا- فصار المغرب -الدولة الإسلامية- في موقع دفاع عن دار الإسلام من جهة الشرق، حيث أضحى

6. أبو القاسم الزياني، *البستان الظريف في دولة مولاي الشريف*، مرجع سابق، ص. 33-42.
7. أبو القاسم الزياني ، *الترجمان المُغرب عن دول المشرق والمغرب*، مخطوط المكتبة الوطنية، الرباط رقم د 658 ص. 425.
8. Domingo Badia y Leblich, *Voyage en Afrique et en Asie pendant les années 1803-1807*, Paris, Diodot, 1914, vol 1, p. 332-334.

مسلمو الجزائر تحت حكم دولة غير إسلامية، وتبعا لذلك تصدر مشكل الحد اهتمامات المخزن المغربي، ومن المعلوم أن السلطان عبد الرحمان لما استجاب لبيعة أهل تلمسان سنة 1830، كان يدرك أنه تجاوز الحد المعلوم أيام الحكم التركي، وهو ما يُستفاد من توجيهاته لخليفته بتلمسان فخاطبه بما يلي: فإن الأرض ليست لكم ولا تعرفوا صالحها من طالحها، وهذا إقرار صريح بالحد الذي سبق أن تعهّد به مولاي مَحمد[9]. ومعلوم أن التوتر بين المغرب وفرنسا بلغ أشُدّه بعد أن تجاوز الجيش الفرنسي وادي تافنا في بداية سنة 1844. وأعقب الهزيمة العسكرية معاهدة صلح (طنجة 10 شتنبر 1844)، حيث نصّ الفاصل الخامس منها على بقاء الحدود كما كانت أيام الحكم التركي بالجزائر، وهو ما أكده البند الأول من اتفاق مغنية حول الحدود سنة 1845.[10]

ودون الخوض في تفاصيل هذه الاتفاقية، فإنها رسمت لأول مرة في تاريخ المغرب حدودا سياسية وجغرافية كانت لها تداعيات كثيرة استمرت طيلة النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وترتبت عنها التزامات كثيرة، من أبرزها المهادنة والتخلي عن الجهاد واحترام حسن الجوار، غير أن السلطان تحفظ على بعض بنودها وطالب بمراجعتها، غير انه لم ينجح في مسعاه هذا.[11]

ومن أخطر تداعيات هذه الاتفاقية أنها تسببت في عداوة بين السلطان عبد الرحمان بن هشام والأمير عبد القادر الجزائري، الذي استمال إليه جل قبائل شرق المغرب بالدعوة إلى الجهاد، بعد أن استفتى علماء مصر الذين أفتوا بوجوب الجهاد، بينما دعا السلطان تلك القبائل إلى ترك الجهاد اعتماد على مبدأ مشهور لدى المالكية، وهو أن الضرورات تبيح المحظورات، وهو ما يُعبَّرُ عنه بلغة العصر بالمصلحة العليا للدولة[12]. ويعكس الجدل بين عبد الرحمان بن زيدان في كتابه إتحاف وصاحب تحفة الزائر نجل عبد القادر الجزائري حدة الخلاف بخصوص مسألة الجهاد، حيث عَدّ هذا الأخير قرار السلطان عبد الرحمان بمثابة تعاون وتأمر مع فرنسا ضد المقاومة الجزائرية[13]، ولا زال صدى هذا الجدل قائما في البرامج التعليمية بالجزائر، بل ساهم الأدب الجزائري في إحيائه من خلال رواية الأمير لصاحبها واسيني الأعرج[14].

---

9. عكاشة برحاب، *من قضايا الحدود بين المغرب والجزائر*، الرباط، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، 2004، ص 15-16.
10. انظر نص معاهدة الصلح واتفاق مغنية في دورية الوثائق، مديرية الوثائق الملكية، العدد الأول 1976، ص 468-475.
11. عكاشة برحاب، *شمال المغرب الشرقي قبل الاحتلال الفرنسي*، منشورات جامعة الحسن الثاني– الدار البيضاء، 1989، ص. 99 – 100.
12. عبد الرحمان بن زيدان، *إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس*، الجزء الخامس، المطبعة الوطنية، الرباط، 1933، ص. 73..
13. محمد بن عبد القادر الجزائري، *تحفة الزائر في تاريخ الجزائر والأمير عبد القادر*، بيروت، دار اليقظة العربية، الطبعة الثانية، 1964، ص. 452-449.
14. واسيني الأعرج، *كتاب الأمير*، بيروت، مطبعة دار الآداب، 2005.

ومـن تـداعيات اتفاقيـة الحـدود اقتطـاع أجـزاء كثيـر وضـمّها إلـى التـراب الجزائـري فـي منطقـة التـل، بالإضـافة إلـى تقسـيم القبائـل والقصـور الواقعـة شـمال فكيـك، بينمـا ظلـت المنـاطق الواقعـة جنـوب واحـة فكيـك دون تحديـد بـدعوي أنهـا صـحراء لا تسـتغل. ويكشـف هـذا المخطـط الفرنسـي بشـأن ضـبط الحـدود أن فرنسـا كانـت تجهـل المجـال الحـدودي، ومـن ثـم عـدلت عـن ضـبط دقيـق لخـط الحـدود. وقـد أدرك الحسـن الأول مخـاطرغموض خـط الحـدود جنـوب منطقـة التـل، فطالـب بإنشـاء لجنـة مشـتركة يعهـد إليهـا تمييـز الحـدود حتـى تصـير واضـحة للخـاص والعـام، إلا أن الحكومـة الفرنسـية لـم تسـتجب لهـذا الطلـب تحـت ذريعـة عـدم تـوفر المغـرب علـى مختصـين بمقـدورهم القيـام بالأشـغال الطوبوغرافيـة الضـرورية لوضـع خـرائط للمجـال الحـدودي، وكانـت آخـر محاولـة لإشـهار معـالم الحـدود فـي بدايـة عهـد السـلطان عبـد العزيـز سـنة 1896 إلا أنهـا آلـت إلـى الفشـل أيضـا[15]. وتعكـس جهـود الدولـة المغربيـة الراميـة إلـى إبـراز معـالم الحـدود بشـكل مضـبوط وعـي الحكـام بالتصـور الجديـد للحـد، وتجلـى ذلـك فـي رفـض السـلطان الحسـن الأول خريطـة وضـعتها الحكومـة الفرنسـية تخـص الحـدود فـي الجنـوب الشـرقي، كمـا أن مـولاي عبـد الحفـيظ احـتج بشـدة سـنة 1910 علـى نشـر خريطـة للمسـتعمرات الفرنسـية فـي القـارة الإفريقيـة، وضـمت منـاطق مغربيـة فـي الجنـوب الشـرق، وطالـب بحـق الـرد فـي جريـدتي السـعادة والـدبيش الفرنسي اللـتان نشرتا الخريطة المذكورة[16].

ترتبـت عـن اتفـاق مغنيـة أيضـا آثـار سـلبية علـى الاقتصـاد، وخاصـة المبـادلات التجاريـة، حيـث رفـض السـلطان عبـد الرحمـان توقيـع اتفـاق تجـاري، خوفـا مـن أي يكـون مطيـة لامتـداد النفـوذ الفرنسـي وتمهيـدا لاحـتلال أجـزاء أخـرى مـن التـراب المغربـي، بـل ذهـب أبعـد مـن ذلـك عنـدما أصـدر أوامـره بمقاطعـة التعامـل مـع النصـارى وتوعّـد كـل مـن خـالف ذلـك بأقسـى العقوبـات. وقـد تبـيّن لاحقـا أن سياسـة المقاطعـة التجاريـة كانـت وراء ظهـور نشـاط التهريـب عبـر الحـدود البريـة، مما خلق متاعب جديدة للدولة المغربية.

قبـل احـتلال الجزائـر كانـت الهجـرة مـن المغـرب إلـى الجزائـر أو العكـس محـدودة، وتقتصـر فـي غالـب الأحيـان علـى فئـة التجـار وطلبـة العلـم، لكـن بعـد سـنة 1830 تـوفرت دواع كثيـر للهجـرة مـن الجزائـر إلـى المغـرب، وكانـت وجـدة وفـاس وتطـوان هـي أكثـر المـواطن المسـتقبلة للمهـاجرين الجزائـريين، ومـن مسـوّغات هـذه الهجـرة اضـطهاد الكفـار الـذين احتلـوا بـلاد المسـلمين، بالإضـافة إلـى النفـور مـن العـيش تحـت سـلطة غيـر إسـلامية، وقـد صـدرت فتـاوى كثيـر تحـرّم العـيش فـي

15. عكاشة برحاب، *شمال المغرب الشرقي*، مرجع سابق، ص. 287-289.
16. رسالة السلطان عبد الحفيظ إلى وزير خارجيته الحاج محمد المقري بتاريخ 24 شوال 29/1328 أكتوبر 1910، مديرية الوثائق الملكية، الرباط، ملف الحدود .

كنف دولة غير إسلامية، وقد تشبّه المهاجرون الجزائريون بالصحابة الذين هاجروا من مكة إلى المدينة[17].

ويستفاد من الأرشيف المغربي والفرنسي أن اتجاه الهجرة في البداية كان في اتجاه المغرب، ومما شجع هذه الهجرة انتماء البلديْن إلى الأمة الإسلامية، فضلا عن التاريخ المشترك منذ أمد بعيد، وقد حظي هؤلاء المهاجرون بعطف كبير على المستوى الشعبي والمستوى الرسمي، وخصّتهم الدولة بمساعدات منتظمة، وهو ما يكشف عن عمق التضامن والتآزر بين مسلمي البلدين[18].

أما هجرة المغاربة نحو الجزائر، فقد كانت وراءها ظروف اقتصادية، خاصة أثناء فترات القحوط والمجاعة، كما أن السلطات الفرنسية بالجزائر كانت في حاجة إلى يد عاملة طيّعة ورخيصة لإنجاز مشاريع كبرى. وكانت الجزائر المحتلة تعرف أوْراشاً كبرى في قطاع النقل الطرقي والنقل السككي، بالإضافة إلى حاجة كبار المستثمرين في القطاع الزراعي إلى اليد العاملة في استصلاح الأراضي وجني حقول الكروم والقيام بأشغال الحصاد. ومن دواعي الهجرة إلى الجزائر أيضا تعسف وبطش رجال المحزن، خاصة بمناسبة استخلاص الضرائب، وكانت نواحي جبال الريف أكثر المناطق المصدّرة للمهاجرين نحو الجزائر، وقد فاق عدد المهاجرين في مطلع القرن العشرين خمسين ألف نسمة، أغلبهم عمال مؤْسميُّون[19] .

ويتبيّن مما سبق جانبا من تداعيات رسم خط الحدود على مستوى الدولة وعلى المستوى الشعبي، وتبقى المقاومة الشعبية لخط الحدود أهم ظاهرة، ظل صداها محفوظا في الذاكرة الشعبية، رغم أن المخزن كان يدعو إلى السلم والمهادنة، وأنه قادر على حل المشاكل التي تقع بين القبائل المغربية والجيش الفرنسي المتمركز على طول الشريط الحدودي، وقد ازدادت هذه المقاومة ضراوة بعد اتفاق باريس حول الحدود سنة 1901 وملحقاته الموقعة بالجزائر سنة 1902، والتي بموجبها تم اقتطاع أجزاء أخرى جنوب واحة فكيك وضمها إلى التراب الجزائري[20].

3 - المجال الحدودي بعد سنة 1912

17. محمد بن العربي المشرفي، *طرس الأخبار بما جرى للمسلمين في آخر القرن الثالث عشر* مع الكفار، مخطوط المكتبة الوطنية، الرباط، رقم ك496.
18. عكاشة برحاب، *من قضايا الحدود*، مرجع سابق، ص 98-107.

19. عكاشة برحاب، *من قضايا الحدود*، مرجع سابق، ص. 106-110.
20. عكاشة برحاب، *المجال الحدودي بين المغرب والجزائر في مطلع القرن العشرين (1900 – 1912)*، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالمحمدية، 2002، ص. 43-68.

فـي فتـرة الحمايـة (1912-1956) أصـبحت سـلطة اسـتعمارية واحـدة متحكمـة فـي المغـرب والجزائـر، فوقـع التنسـيق بـين الإقامـة العامـة للمغـرب والحكومـة العامـة للجزائـر مـن أجـل رسـم حـدود بشـكل يخـدم مصـالح الدولـة المسـتعمرة، فـتم اعتمـاد (سـنة 1914) مشـروع مشـهور باسـم صـاحبه -ويـدعى مـوريس فـارْنيي- (Maurice Varnier)، وكـان يشـغل منصـب المنـدوب السـامي لمنـاطق الحـدود، وقـد صـار هـذا المشـروع قاعـدة معتمـدة لتمييـز خـط الحـدود بـين المغـرب والجزائـر المحتلـة، غيـر أن هـذا المشـروع اقتصـر علـى رسـم خـط الحـدود مـن جنـوب فكيـك إلـى الحـوض الأسـفل لـوادي كيـر[21]. وبعـد انتهـاء عمليـات الاحـتلال خضـعت التخـوم المغربيـة-الجزائريـة الواقعـة جنـوب فكيـك إلـى عـدة تغييـرات، طبقـا لتقسـيمات إداريـة وعسـكرية تحكمـت فيهـا ظـروف آنيـة، وجـدير بالإشـارة إلـى أن السـلطات الفرنسـية لـم تأخـذ بعـين الاعتبـار مشـروع رسـم الحـدود، الـذي وضـعه الضـابط اترينكـي (Trinquet) سـنة 1938، وهـو مشـروع مـتمم لمشـروع فـارنيي[22]، بـل عمـدت إلـى استصـدار عـدة مراسـيم، اقتطعـت بموجبهـا أجـزاء عديـدة مـن التراب المغربي وألحقتها بالتراب الجزائري، الذي كان يعتبر آنذاك مقاطعة فرنسية[23].

وغـداة اسـتقلال المغـرب سـنة 1956 دخلـت مسـألة الحـدود فـي سـياق جديـد، مـن خصوصـياته اسـتمرار خضـوع عـدة منـاطق فـي التخـوم المغربيـة الجزائريـة للاسـتعمار الفرنسـي، كمـا أن الاسـتعمار الإسـباني كـان مـا زال جاثمـا علـى جنـوب المغـرب (إفنـي– طرفايـة – السـاقية الحمـراء ووادي الـذهب)، فضـلا عـن الجيـوب المحتلـة فـي أقصـى الشـمال، ورغـم التصـريحات الرسـمية وغيـر الرسـمية بمغربيـة المنـاطق التـي ضُـمّت إلـى التـراب الجزائـري إبّـان الاحـتلال الفرنسـي (بنـي ونيـف– بشـار– القنادسـة– تنـدوف)، فـإن الحكومـة المغربيـة رفضـت التفـاوض مـع الحكومـة الفرنسـية بشـأن اسـترجاع هـذه المنـاطق، مـا دامـت الجزائـر لـم تنـل اسـتقلالها، وقـد اختـار الجانـب المغربـي التنسـيق مـع الحكومـة المؤقتـة للجزائـر بصـفتها طرفـا مسـؤولا عـن مصـير قضـية الحـدود بـين البلـديْن، وفـي هـذا الإطـار تـم توقيـع بروتوكـول اتفـاق بـين الطـرفيْن يـوم 6 يوليـوز 1961، يقضي بفتح ملف الحدود وتصفيته مباشرة بعد حصول الجزائر على استقلالها[24].

تلكـأت الجزائـر المسـتقلة عـن الوفـاء بتعهـدها بشـأن تصـفية مسـألة الحـدود مـع المغـرب، فوقـع صـدام عسـكري بـين البلـدين سـنة 1963 (حـرب الرمـال). وبـذلك لـم يسـترجع المغـرب الأراضـي الـذي كـان يطالـب بهـا فـي عهـد الـرئيس بنبلـّة، ولمـا تـولى هـواري بومـدين زمـام السـلطة فـي

21. M.Varnier, *Exposé de la situation au Maroc Oriental à la fin de l'année 1912*, Oran, Edit D.Heintz, 1914.
22. Mohammed El Maazouzi, *l'Algérie et les étapes successives de l'amputation du territoire marocain*, Casablanca, Dar El Kitab, 1976, p. 90-92.
23. عكاشة برحاب، *من قضايا الحدود*، مرجع سابق، ص. 157 – 158.
24. Benjamin Stora, *Algérie-Maroc : Histoires parallèles*, Editions Zellige, 2002, p. 25-26.

الجزائـر سـنة 1965، انبعـث الأمـل مـن جديـد فـي المغـرب بشـأن مطالبـه الترابيـة فـي منـاطق التخـوم[25]. حيـث انعقـدت قمـة بمدينـة إيفـران يـوم 15 ينـاير 1969، جمعـت بـين الملـك الحسـن الثـاني والـرئيس هـواري بومـدين، وكـان هـذا الاجتمـاع منطلقـا لحـل مشـكل الحـدود بـين البلـديْن[26]. وأعقبـت ذلـك قمـة ثانيـة بتلمسـان يـوم 27 مـايو 1970. وتكشـف مـذكرات عبـد الهـادي بوطالـب أن الملـك الحسـن الثـاني قـد سـلم للجزائـر المنـاطق التـي كانـت محـط نـزاع، وتقـرر قيـام الطـرفيْن بوضـع معـالم حجريـة علـى الحـدود القائمـة، كمـا أفضـت هـذه القمـة إلـى إقامـة شـراكة مغربيـة جزائريـة بشـأن مـنجم غـار جبـيلات غيـر بعيـد عـن تنـدوف، واتفـق الجانبـان علـى اقتسـام إنتاجـه مناصـفة، وأن يـؤمّن المغـرب للجزائـر المـرور عبـر خـط للسـكة الحديديـة لنقـل الإنتـاج المعـدني إلـى ميناء مغربـي علـى المحيط الأطلسـي لتصـديره وتسـويقه[27]. ويسـتفاد مـن مـذكرات عبـد الهـادي بوطالـب أن تسـوية ملـف الحـدود تمـت لصـالح الجزائـر، إذ قـدّم المغـرب تنـازلات ترابيـة دون الحصـول علـى مقابـل لهـا، وقـد بـرر عبـد الهـادي بوطالـب ذلـك بكـون الملـك الحسـن الثـاني كـان يسـعى إلـى حـل المشـاكل مـع الجيـران بالحسـنى للتفـرغ إلـى معالجـة الأوضـاع الداخليـة. وتـوّجت المفاوضـات المغربيـة الجزائريـة بـالتوقيع علـى اتفـاق يُنهـي مشـكل الحـدود بـين البلـدين يـوم 15 يونيـو 1972 بالربـاط. وقـد تـأخر الإعـلان عنـه إلـى سـنة 1992، بعـد تكتـُّم دام زهـاء عشـرين سنة، إذ نشر في الجريدة الرسمية المغربية يوم 24 يونيو 1992[28] .

يتبـيّن مـن سـرد أهـم المراحـل التـي مـر بهـا مشـكل الحـدود، أن تـدبير هـذا الملـف كـان غيـر موفـق فـي كـل أطـواره، ففـي القـرن التاسـع عشـر كانـت كفـة القـوة تـرجّح فـرض إرادة المسـتعمر علـى سـلاطين المغـرب، ممـا أفضـى إلـى اقتطـاع أجـزاء واسـعة مـن التـراب المغربـي وضـمها إلـى الجزائـر المحتلـة. وبعـد اسـتقلال البلـدين تحكمـت ظـروف جديـدة فـي تسـوية الملـف، ويكشـف بعـض أصـحاب المـذكرات الـذين عايشـوا مشـكل الحـدود سـوء تـدبيره، ويزكـي هـذا الطـرح اسـتمرار المشـاكل المرتبطـة بالحـدود بـين البلـدين إلـى وقتنـا هـذا، وخاصـة مـا يتعلـق بحسـن الجـوار وحريـة تنقـل الأفـراد ونقـل السـلع عبـر الحـدود البريـة. ومعلـوم لـدى المهتمـين أن الظـل كثيـرة فـي مـواطن كـل مـا يتعلـق بالحـدود بعـد اسـتقلال البلـدين، ويبقـى الكشـف عـن الوثـائق الرسـمية للدولـة بشـأن هـذا الملـف (سـنة 1914) هـو الكفيـل بالإحاطـة بكـل خبايـاه، وهـو مـا يتطلـع إليـه كـل باحـث مهـتم بالعلاقة المغربية-الجزائري

.

25. عبد الهادي بوطالب، *نصف قرن في السياسة*، الدار البيضاء، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، 2001، ص. 158.
26. انظر معاهدة الأخوة وحسن الجوار والتعاون المبرمة بإيفران ضمن ملاحق كتاب مؤرخ المملكة عبد الوهاب بن منصور تحت عنوان: *مع جلالة الحسن الثاني في فاس وتازة ووجدة وتلمسان*، الرباط، المطبعة الملكية، الرباط، ص. 160-163.
27. عبد الهادي بوطالب، مرجع سابق. ص. 212.
28. *الجريدة الرسمية*، عدد 4156 الصادرة بتاريخ 22 ذي الحجة 24/1412 يونيو 1992، ص. 746-749.

الثقافة السياسية الوطنية في ضوء تمثل الإصلاحية المغربية للإسلام

المصطفى بوعزيز*

مفهوم الثقافة من المفاهيم التي تثير العديد من الإشكالات ليس فقط ما يتعلق بجدل "الثقافة العالمة" و"الثقافة الشعبية" وهي إشكالية تحاول المطابقة بين الحقل الثقافي والحقل الاجتماعي، بل أساسا فيما يتعلق بمقابلة "العقلية" بمفهوم المؤرخ لوكوف و"الكفاءة" بمفهوم السوسيولوجي بورديو. والمقابلة هنا أيضا جدل وليس تعارضا. "فمستوى تاريخ العقليات هو مستوى المعاش اليومي والتلقائي، مستوى ما ينفلت للفاعلين الفرديين في التاريخ لأنه يؤشر على مضمون في فكرهم يفوق الأفراد. فهو ذاك المشترك بين يوليوس قيصر وآخر جندي في لفيفه... في هذا المستوى يدرك طابع مرحلة، أي في أعماق المعيش اليومي.[1] أما الكفاءة فهي حصرية بالأساس ومرتبطة بنوع من الوعي الفردي أو الفئوي بامتلاكها، فهي خلاف العقلية ليست جامعة بل مميزة. فالكفاءة السياسية مثلا "كفاءة خاصة" تستلزم "القدرة"، وهي قدرة قد تكبر أو تصغر، على تمييز المسائل السياسية كسياسة، و معالجتها بهذه الصفة، والإجابة عليها سياسيا، أي انطلاقا من مبادئ سياسية محضة (وليس أخلاقية مثلا). لاتنفصل هذه القدرة عن شعور حاد، بهذا القدر أو ذاك، لدى الفرد بكفاءته بكل ما تحمله الكلمة من معنى، أي الاعتراف الاجتماعي له بأنه مؤهل ليهتم بالشؤون السياسية، و إبداء رأيه اتجاهها، بل حتى تغيير مجراها: يمكن فعلا افتراض أن الكفاءة، بمعنى الكفاءة التقنية (أي الثقافة السياسية) تتطور مثلها مثل الكفاءة بمعنى القدرة المعترف بها اجتماعيا عبر التفويض أو التفويضات القانونية التنظيمية.[2]

بين ما يجمع وما يميز سنحاول مقاربة تشكل العقلية المهيمنة وسط الوطنيين المغاربة وتبلور ثقافتهم السياسية عبر حصر ملامح فعلهم السياسي وخصائص ممارستهم الحزبية. وقد سبق لنا أن قدمنا تدقيقات هذه المقاربة أعلاه[3]، و نكتفي هنا بالإحاطة العامة.

1- الإصلاحية المغربية:

توصف عادة "ثقافة الوطنيين المغاربة" بكونها عربية إسلامية، و مؤخرا يضاف نعت "أمازيغية" كتأقلم مع الجاري في الحقل الثقافي.

---

*

1. Jean-Pierre LeGoff**,** « les mentalités, une histoire ambiguë », *Faire de l'histoire***,** éditions Gallimard, Paris, 1974.

2 Pierre Bourdieu, *La Distinction*, Les éditions de Minuit, Paris, 1979.

3 Mustafa Bouaziz, *Aux origines de la koutla démocratique*, Publication de la faculté des lettres et des sciences humaines Ain chock, 1997.

ونتساءل، من منظور معالجتنا للموضوع، هل ظلت "عقلية" الوطنيين المغاربة، وفي محدداتها الرئيسية، هي نفسها خلال القرن العشرين؟ و نقصد بالمحددات الرئيسية: النظرة إلى الكون والعلاقة مع الطبيعة وأنماط التدين وتمثل الأسرة والذات والآخر والعلاقات الاجتماعية وشرعية السلطة...بعبارة مكثفة منظومة القيم المستبطنة والمخيال الفاعل. وإذا كانت هذه "العقلية" مستقرة في القرن العشرين، أو في جزء فقط منه، فهل تتزامن ظرفيات التحول مع التحولات السياسية التي عرفها القرن العشرين؟ في دراسات سابقة[4]، و تأثرا بعبد الله العروي، كتبت أن احتلال فرنسا للجزائر سنة 1830، سيكون بمثابة الصدمة التي ستحدث ارتجاجا في البنية الثقافية المحافظة، إذ ستختلط مفاهيم الأمة والوطن ومفاهيم أرض الإسلام وأرض المغرب، و مفاهيم بيعة الإمام وبيعة السلطان القطري. واعتبرت وقتها أن هذه الصدمة، بالرغم من أن أداتها كانت هي الاستعمار، فإن أصلها الحداثة الغربية بعدها الكوني. وتأسيسا على ذلك كنت أعتقد، و كنت مخطئا في ذلك، أن تموجات "العقلية المغربية" مقارنة بما هو مروج عن"العقلية العربية الإسلامية" تعود للقرن التاسع عشر. وجه الخطأ يعود أولا للشمولية الاختزالية التي تقدم "العقلية العربية الإسلامية" موحدة منسجمة، و ثانيا لتكثيف الفعل الخارجي المربك للبنى المادية والعقلية في القرن التاسع عشر. ويحلل الزميل لطفي بوشنتوف في أطروحته المجددة *العالم والسلطان*[5] كيف أربكت ظاهرة الجهاد من أجل تحرير الثغور المحتلة في القرن السادس عشر من طرف الإيبيريين، منظومة الإمامة وتمثل أنتلجنسيات ذلك العصر لشرعية السلطان، وخصوصا لوحدانيته. ففي سابقة تاريخية من نوعها، ستشرعن أنتلجنسيات عربية إسلامية بامتياز، إذ يتعلق الأمر بعلماء في الشرع الإسلامي المالكي، لجواز مبايعة سلطانين في نفس الآن. صحيح أن تاريخ السلالات الحاكمة للمغرب مليء بالنزاعات حول الخلافة السلطانية، و تحفظ الإسطوغرافيا المغربية العديد من الأمثلة التي تزامن فيها سلاطين متنازعون على السلطة، إلا أن كل طرف كان مدعوما بفقهاء وعلماء يبررون بيعته ويسفهون بيعة المنافسين، والجميع ينضبط بدون نقاش ولا تفكير لقاعدة "الإمام الواحد". أما في هذه الظرفية، فقد حصل ما يشبه الاستثناء، إذ أجاز العلماء، المناصرون للسلطان الوطاسي، والمناصرون للسلطان السعدي، المجتمعين على ضفاف أم الربيع، شرعية سلطانين في نفس الآن. لا يهم هنا كيف تم التبرير الشرعي لهذه الإجازة، بل الأساسي، بالنسبة لنا ومن منظور العقليات، هو حصول تعديل جوهري في "المعتاد" الفقهي والسياسي للأنتلجنسيات انطلاقا من واقع ميداني. فالقاعدة الفقهية هي إمام واحد صالح يتم إقراره بقوة

4 Mustafa Bouaziz, « La modernité marocaine, histoire d'une ambiguïté », dossier H.D, *Opcit*, vol II.
5 بوشنتوف لطفي: **العالم و السلطان**، منشورات كلية الآداب و العلوم الإنسانية عين الشق الدار البيضاء.

التأويل المالكي للإسلام، أو بقوة الحديد والنار في الميدان، وغالبا بهما جميعا. فعند التعدد، هناك منطق واحد يعتمد هو المنطق الثنائي صلاح الإمام أو عدمه وفي هذه الحالة الثانية يقال ويعوض بإمام واحد صالح.

ما نفهمه من أطروحة لطفي بوشنتوف هو أن أواسط القرن السادس عشر شهد انتقالا من المنطق الثنائي المانوي إلى المنطق الثلاثي، أي جواز شرعية سلطانين في نفس المكان والزمان.. فبين "الحلال" و "الحرام" هناك منزلة "الجواز"؟ ألا يذكر هذا بالمنزلة بين المنزلتين إثر صراع علي ابن أبي طالب ومعاوية ابن سفيان؟ نعم، لكن في الحقل الإديولوجي فقط، أما الواقعة المغربية فسياسية: لقد اجتمع ممثلو السلطانين، وتداولوا، و توصلوا إلى مساومة سياسية، وحرروا محضر اتفاق. صحيح أن الأمر كان بمثابة قوس سيغلق في سيرورة الزمن الطويل. إلا أنه مؤشر على إرث في المخيال العام ولو أنه سيظل "حبيس الثنايا العقلية"[6] زمنا طويلا. فسؤال التعدد و الاختلاف لازال راهنا، و استبطان هذا الواقع الموضوعي في "معتاد" المغاربة لازال برنامجا للإنجاز.

الحديث عن "العقلية" وإن كان حديثا عن التقليد بما يفيد الطرق التي يعاد بها ذهنيا إنتاج المجتمعات، والتفاوتات الناتجة عن تباطؤ الأذهان في التأقلم مع التغيير، وعدم تساوي سرعة تطور القطاعات التاريخية المختلفة[7] فهو أيضا حديث عن محاولات التجديد بغض النظر عن تحقيقها لقطيعة تاريخية أو تسهيلها لإعادة إنتاج نفس البنى.

عقلية الوطنيين المغاربة منحدرة من هذا الإرث، و هي حصيلة تاريخية في الزمن الطويل، إلا أن وتيرة هذا الزمن متفاوتة، فهي عموما بطيئة لدرجة السكون، مما يجعل من الصعوبة وضع الأصبع على لحظات الارتباك، كالتي أشرنا إليها، وهي في بعض الظرفيات متسارعة و كثيفة. فالنصف الثاني من القرن التاسع عشر (منذ الاتفاقية التجارية مع بريطانيا العظمى 1856)، واستقرار الحمايتين بالمغرب (1912)، ونهاية الحرب العالمية الثانية (1945) ونهاية الحرب الباردة (1989) كلها ظرفيات تسارع وتيرة هذا الزمن الطويل الصاقل للعقليات.

يمكن المغامرة بالقول إن إحدى تجليات عقلية الوطنيين المغاربة تتجسد فيما نسميه "الإصلاحية المغربية" وهو تجديد في الثقافة المحافظة، بالرغم من تعدد تعبيراته الإيديولوجية والسياسية. فالتفكيك العميق الذي سيتعرض له النظام الاقتصادي المغربي منذ دخول الاتفاقية

6 Jean LeGoff, *Op.cit*, p. 81.
7 *Idem*, p. 81.

التجارية لسنة 1856 حيز التنفيذ، سيؤدي إلى إفلاس الحرفيين، حيث لم يصمد نمط إنتاجهم أمام إغراق السوق بالمنتوجات المانيفاكتورية[8]، وأمام المنافسة غير الشريفة من لدن المحميين. وفي سياق الأزمات الاجتماعية التي أفرزها هذا الواقع الجديد ستبرز من جهة فكرة "رابطة القانون" وتساوي المغاربة أمامه، و نزوع نحو تحويل رابطة البيعة من ولاء مطلق إلى تعاقد سياسي، وهذا ما عبرت عنه، ولو بشكل جنيني وضمني أحداث "انتفاض الدباغين بفاس سنة 1873" . أما التقاطب الحاد الذي شهده المغرب في بداية القرن العشرين بين "دعاة الإصلاح والتجديد" في ظل القوى الأجنبية الغربية واستنساخ نموذجهم الاقتصادي والسياسي (مولاي عبد العزيز) و"دعاة المحافظة و الاستقلال" برفض الغرب وهيمنته وعلمه وفنونه (المولى عبيد الحفيظ)، فقد فتح المجال، ولو بشكل هامشي، لمجموعة حضرية محدودة ومستترة لاقتراح "مشروع دستور سنة 1908" الذي نشرته مجلة لسان المغرب الطنجية.

لقد عجل الصراع بين "الإنتفاعيين" و"الهوياتيين" بفقدان المغرب لاستقلاله وباستقرار الحمايتين الفرنسية والإسبانية بالمغرب، وشكل ذلك صدمة قوية لأنتلجنسيات تلك الحقبة. وبالإضافة إلى الصدمة، وهي عنصر مساعد على تحول العقليات، أحدث إستقرار الحمايتين، أساسا الفرنسية، تغييرا مهما في كل البنى المغربية المجالية والاقتصادية والاجتماعية والسياسية، فتغيرت حركة النقل مع السكك الحديدية ومع شبكة الطرق، كما تغيرت علاقات البادية والحاضرة بتحول عدة قرى إلى مدن جديدة (سيدي قاسم، القنيطرة، خريبكة...)، بل تغيرت البوادي نفسها مع اقتحام المعمرين لها. وحتى المدن ستتغير بنياتها وتوزع ساكنتها بنمو الأحياء الأوربية والمناطق الصناعية ورديفها الطبيعي آنذاك: أحياء الصفيح. كل هذه التحولات العميقة ستغير المعيش اليومي للمغاربة، وستخلق عادات اضطرارية ستتداخل مع العادات المستبطنة للواقع الاستعماري وسيحول المغاربة إلى" حالة الدونية"[9] . نعت المغاربة عام، وهو يغطي في الواقع فئات اجتماعية مختلفة ومتنوعة، قديمة وجديدة، وبالتالي فمعيشها اليومي مختلف، وكمثل على ذلك، اختلاف عيش الفلاح الرعوي الذي تقلصت مساحات رعيه، عن عيش الفلاح الذي طرد واضطر إلى النزوح للمدينة والعيش في حي صفيحي عالي الكثافة. ويمكن أن تتعدد الفئات التي تعود إلى نفس الأصل والتي اختلف عيشها اليومي في هذا الزمن المتسارع، كساكنة المدينة القديمة بالدار البيضاء وساكنة حي الحبوس المستحدث بنفس المدينة، ومع كل هذه الاختلافات كان الجميع يعيش "حالة الدونية" ويستبطنها ولو كان من المقربين من سلطات الحماية. وستولد "الإصلاحية المغربية" بالضبط ، كرد فعل إيجابي على

8 *D. Benali*, Le role de l'organisation urbaine dans le blocage de la F.E.S, *Revue juridique,politique,et économique du maroc*, F.D.S.E de Rabat, N°2, juin 1977, p. 111 et p. 113.
9. René GALLISSOT, *Le Maghreb de traverse*, Editions Bouchene, Paris, 2000, p. 77-196.

الاستبطان السلبي لهذه الدونية، وستشكل كما أسلفنا إحدى التجليات الجديدة لعقلية الوطنيين المغاربة. جاءت الإصلاحية المغربية، بعد عقد من الذهول أمام "جبروت" المستعمر، كمجهود مزدوج وواع من طرف أنتلجنسيا معينة، تجاه الذات لمساءلتها واعتصار عناصر المقاومة والصمود منها، واتجاه الآخر، المسيطر والمهيمن، لفهم عناصر قوته وتفوقه. هكذا برزت السلفية المغربية، والليبرالية المغربية، والشيوعية المغربية والشعبوية المغربية، وفيما بعد (وهو زمن قصير بالنسبة للعقليات) الاشتراكية المغربية والماركسية المغربية. وقد شددنا عن قصد على نعت مغربية بتكراره حتى ندقق حمولة المنعوت. فالمرجعية الإيديولوجية التي تشير إليها أقل أهمية من القراءة المغربية وخصوصا من التمثل المغربي لها. فالاستعارة تتم عبر "عتاد ذهني" واحد هو الذي نسميه "روح المقاومة" وهو الذي يعطي لكل هذه التوجهات المتنوعة وحدتها.

الإصلاحية المغربية تعبير عن الحركة الوطنية المغربية بالمفهوم الواسع للمصطلح، وهي تجديد في الثقافة المغربية المحافظة، من حيث النظرة للعلم كمنتوج إنساني كوني مفصول عن هيمنة المستعمر، والتدين كممارسة بشرية خاضعة للنقد (الطرقية) مفصولا عن العقيدة وقدسيتها، ومنظومة قيم المجتمع كتقنين إنساني ظرفي للسلوك العام يستلزم المراجعة كواجب "اجتهاد" والسياسة كالتزام بالشأن العام و"كجهاد".

لقد فصلنا في أماكن أخرى هذه الحمولة التجديدية ونشدد الآن على أن لها سقوفا حدت من تطورها. لم تخترق هذه السقوف إلا من طرف بعض الانتفاض في الهامش، قد يطول زمنيا وقد يتجسد في حركة اجتماعية ملموسة، لكن كقوس في الزمن الطويل للعقلية، إذ سرعان ما يغلق في سيرورة انتقال القوى المحمولة بهذه الحركة الاجتماعية من الهامش إلى مركز الحقل، وكمثال "الشبيبة المتعلمة" و"الحركات الإسلاموية" واليوم ومستقبلا "الحركات الأمازيغية".

السقوف التي حدت و تحد الإصلاحية المغربية، بمختلف مشاربها، ثلاثة: الإسلام ، والملكية، والقومية.

أ. الإسلام:

يشكل الإسلام سقفا للبعد التجديدي للإصلاحية المغربية لا كعقيدة، بل كعلاقة مع الممارسة المدنية، لذلك لازالت الخطابات حول "الدين و السياسة"، "الإسلام والديمقراطية"، "الإسلام

السياسي"، "فصل الحقل الديني عن الحقل السياسي"، راهنة. فهي تطرح جدل الفضاء العام والفضاء الخاص وما يترتب عن ذلك من ترددات في طرح إشكالية فصل الدين عن الدولة.

تحتفظ أدبيات الوطنيين المغاربة بما يكفي من الدراسات والمقالات والتصريحات التي قد تفيد في مقاربة تشكل هذه الترددات، وسنحيل على بعضها في تحديد هذا السقف.

السلفية المغربية قراءة تجديدية للتراث الإسلامي، وتأويل مفيد لبعض النصوص، فالإسلام حسب علال الفاسي، إسلام السلف الصالح، يربي شخصية المسلم على المبادئ القدسية، ويهتم بنهوض الأمة وإعدادها للخلافة التي يخص بها الله الصالحين من عباده[10] والسلفية توجه يحث على المجهود الفردي لإصلاح المجتمع، ويدعو فكر الإنسان للتفتح حتى يستوعب كل جديد تتجسد فيه المصلحة العامة، وهو في الأخير يهدف إلى إحياء عظمة المسلمين الأوائل في إطار الدين والعمل.[11]

تذكر عملية الإحياء والانبعاث هذه بتجربة النهضة الأوربية وسعيها الأول لإعادة الروح إلى العصر الذهبي الذي توارى خلال العصور الوسطى، ونعرف كيف تطور هذا السعي إلى وعي باستحالة إحياء القديم، أي وعي بالموت، فتمكن هذا الوعي من ابتكار الجديد. إلا أن علال الفاسي وفي سياق رواد السلفية العربية يسارع إلى تمييز الإسلام (الصحيح المحفوظ) عن مسيحية القديس بولس، غير الأصيلة. فإذا كان الإطلاع، يقول علال الفاسي، على الآداب والثقافة الغربية يظهر الصراع الكبير بين العلم والدين الذي شهده القرن الثامن عشر، فيجب الاحتراس من السقوط في صراع لا علاقة له بالإسلام، فالدين الإسلامي لا يمكن إلا أن يشجع العلم والعلماء[12] ويضيف الفاسي أن التخلف الذي يعيش فيه المسلمون هو نتاج إسلام غير صحيح، إسلام أهل الزوايا والطرقية الذي يجب مقاومته بفكر السلفية المغربية[13]. يدعو هذا الفكر إلى الصراع ضد التقليد بضرورة تجديد البنيات العقلية والاجتماعية، وبالنسبة لهذه الأخيرة يوضح علال الفاسي أنه يجب أن تبنى على قاعدة العدل والإنصاف ليس بمفهوم الأسلاف خلال العصور المظلمة بل بمفهوم إنساني هذا القرن[14].هكذا يحيط علال الفاسي، عالم القرويين بفكر الإنسانيين الغربيين، ويلمس الفرق المفاهيمي بين نعتي إنسي وإنساني اللذين تحملهما نفس الكلمة في العربية، وله يعود الفضل في ابتكار مصطلح"أنسنة" كتعريب لهومانيسمي حتى لا يختلط مع الحمولة الأخلاقية للفظ هومانيتéé. إن لمس علال الفاسي لهذا

10. الفاسي علال، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، الطبعة الرابعة، الرباط 1980، مطبعة الرسالة، ص 135.
11. نفس المرجع، ص. 135.
12.الفاسي علال، النقد الذاتي، الطبعة الأولى بالقاهرة سنة 1952، الطبعة الخامسة، الرباط 1979، مطبعة الرسالة، ص 116
13. نفس المرجع، ص 19
14. الفاسي علال: النقد الذاتي...م.س.، ص 20

الفرق المعرفي لم يسم إلى إدراك البعد التاريخي، ولاغرابة في ذلك، فقد حصل هذا اللمس بالقاهرة نهاية الأربعينيات وبداية الخمسينيات من القرن العشرين، والفاسي بعيد عن الصراع اليومي بالمغرب ومنغمس بحركة نشيطة للإخوان المسلمين. ويحكى أنه اكتشف كارل ماركس في مكتبة جامعة القاهرة وقرأ كتاب الرأسمال وتأثر به وعلق: لا ينقص هذا الرجل إلا اعتناق الإسلام![15] و يفهم في شروط الإنتاج هذه تراكب البعد النقدي مع البعد التبريري في "النقد الذاتي"، المؤلف المتميز لعلال الفاسي. فبين البعد عن المغرب والقرب من "الإخوان" حصلت إشراقة كادت أن تبشر بميلاد "أنسنة مغربية أصيلة" وربما كنا على مرمى حجر من صياغة مغربية لشعار: ما لله لله وما لقيصر لقيصر. فالإنسانيون الغربيون كانوا، كعلال الفاسي، قبل كل شيء رجال دين. يكتب هذا المثقف المغربي الأصيل بنوع من الحسرة، وفي نفس المؤلف، بأن مركزية الجهاد من أجل الاستقلال تعطي الأسبقية للمعالجة السياسية على المعالجة النظرية، ولذلك سيخفت مجهود تطهير الإسلام من الخرافات والبدع، وسيتم التأقلم مع بعض العادات المتجذرة داخل الشعب بينما يرفض العقل، يقول الفاسي، مقاومتها.[16]

يشكل علال الفاسي النموذج الأمثل لما سأسميه "المنزلة ما قبل" والتي سماها سابقا الباحث المقتدر جاك بيرك "الغير مكتمل"(ل'يناچهيپé) أعني منزلة ما قبل القطيعة مع الذهنية المحافظة، ومنزلة ما قبل العبور إلى العصر. سيظل علال الفاسي في هذه المنزلة، وسيظهر ذلك في كل حالات اجتهاده، سواء تعلق الأمر بمسألة المرأة والأسرة والفارق بين اختراقاته في "النقد الذاتي" وترددات عند صياغة الفقهاء المحافظين لأول مدونة للأحوال الشخصية لما كان وزيرا للأوقاف والشؤون الإسلامية، أو سواء لما صاغ "التعادلية" في أواسط الستينيات، وكاد شعاره المركزي "من أين لك هذا" أن يؤسس لمواطنة مدنية متحررة من أي رهن قدسي.

"المنزلة ما قبل"، حالة غير مستقرة، وغالبا، إذا ما لم تتطور إلى قطيعة، فإنها تتراجع إلى إعادة إنتاج ما قبلها أي المحافظة بالنسبة للسلفية المغربية. وعلى مدى أربعة عقود بعد إشراقات علال الفاسي، سيواجه الاستقلاليون، ورثة التوجه الثقافي والذهني للزعيم، ما واجهه هو في القاهرة، أي نمو تيار إسلاموي أصولي كان قد بدأ ينازعهم الشارع والأتباع. وفي خضم الصراع اليومي سيتوارى التجديد أمام محاولات تملك الموروث الثقافي. ففي مهرجان من المهرجانات المتعددة التي قرر حزب الاستقلال عقدها في مجموع ربوع المغرب تحت شعار "يوم الأبطال" أعلن السيد أمحمد الدويري بالناضور بصفته نائبا للأمين العام لحزبه،

15. شهادة الأستاذ الفلسطيني مسلمي بكلية الآداب عين الشق الدار البيضاء، مايو 1988، و قد كان هذا الأستاذ طالبا بجامعة القاهرة
16. علال الفاسي، النقد الذاتي،م.س، ص 30

وتخليدا لذكرى معركة أنوال ولبطلها محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي تبناه الحزب كأن عداءهما التاريخي تبخر وانمحى، أعلن: أن حزب الاستقلال هو أولا و قبل كل شيء حزب مسلم، حزب يعمل لبث مبادئ الإسلام، كما أنه انبثق من الإسلام و من مبادئ الإسلام، وكان علال الفاسي دائما يقول : حزب الاستقلال لم ينشأ سنة 1944 أو سنة 1937 تاريخ إنشاء الحزب الوطني" أو سنة 1934 تاريخ تأسيس كتلة العمل الوطني. حزب الاستقلال أنشئ مع نزول الوحي على النبي (صلعم) لأن حزب الاستقلال أنشئ للدفاع عن الإسلام ولنشر الرسالة الإسلامية ولتثبيت مبادئ الإسلام.[17]

ونفس القيادي الاستقلالي هو الذي سيفرض على "القيادة العليا للكتلة الديمقراطية" في بحر أبريل 1996 أن يتصدر المطالب الدستورية المرفوعة للملك، مطلب تعديل الفصل الأول للدستور المغربي الذي ينص على "أن الإسلام دين الدولة" ليصبح: الإسلام دين الدولة لذلك يجب اعتماد مبادئ الشريعة الإسلامية في صياغة القوانين وبعد مناقشة حادة عوضت شريعة بالنص التالي: لقد نص الدستور المغربي في تصديره على أن المملكة المغربية دولة إسلامية، ونتيجة لذلك نقترح أن ينص الدستور في تصديره على أن قوانين البلاد لا تتعارض مع تعاليم الإسلام، ومن المعلوم أن القوانين المغربية حرصت دائما على الإستضاءة بالإجتهادات المتفتحة[18]. و بالرغم من اعتراضات بعض الأطراف، فقد فرض مضمون هذا المطلب في المذكرة التي بعثت بها الكتلة الديمقراطية للملك، وكان ذلك ليس فقط "مساومة سياسية ظرفية" للحفاظ على حليف له وزنه السياسي والإنتخابي، بل أيضا تعبيرا عن هذا السقف الذي يصعب اختراقه.

يصنف محمد بالحسن الوزاني كليبرالي، وغالبا ما تقترن هذه الصفة بدراسته العلوم القانونية بمعهد العلوم السياسية بباريس، وغالبا أيضا ما يقدم كالمقابل "العصري" لعلال الفاسي "التقليدي". وطبعا كانت بين الشخصيتين منافسة سياسية، وكان بين حزبيهما (حزب الشورى والاستقلال وحزب الاستقلال) تسابق وتطاحن وإقصاء. و بالرغم من اختلاف نسبي في مرجعياتهما، وميول الوزاني إلى الاستفادة من فكر الأنوار وفكر الثورة الفرنسية بانتقائية كبيرة[19]، فإن العقلية التي تحكمهما واحدة. لقد كان حزب الشورى والاستقلال يتضايق، خلال الأربعينيات من القرن العشرين، من اتهامه بالشيوعية، وكثيرا ما كانت صفحات جريدته

17. أمحمد، جزب الإستقلال بين مؤتمرين (خطب وأحاديث) منشورات الشركة المغربية للطباعة والنشر، الرباط، 1994، ص. 19-20 ، ص. 30.
18. حضرت شخصيا هذه الإجتماعات. أنظر نص المذكرة في "حركة المطالبة بدستور ديموقراطي
19. أنظر المساهمات القيمة للأستاذ محمد معروف الدفالي في موضوع: أطروحة السلك الثالث حول "حزب الشورى و الإستقلال" و " أطروحة الوزاني ،و مساره"تدقيقات

الـرأي العـام مليئـة بمقـالات توضـح الفـرق بـين الفكـر الشـيوعي والفكـر الشـوري. صـحيح أن هـذا الفكـر يمتـاز بميولاتـه الدسـتورانية وبتصـور لدولـة القـانون، لكـن فـي إطـار الإسـلام المـأول تـأويلا عصـريا. فالإسـلام يقـول الـوزاني، لـيس فقـط دينـا بـل أيضـا منهجـا شـاملا لحيـاة البشـر. فهـو يعـم عـالم الـروح وعـالم المـادة، ووعـي الفـرد وفضـاء الجماعـة، والمشـاعر الفرديـة ونظـام السـلطة والدولة[20]، فالفكر الشوري كالإسلام يتموقع ما بين البطش والثورة.

فـبطش الرأسـمالية يتجسـد فـي تضـحيتها بـالفقير لصـالح الغنـي، أمـا الثـورة فتتأسـس علـى العنـف وتفضـي إلـى الإضـرابات وإلـى الفوضـى[21]، فالصـراع الطبقـي الـذي يحركهـا يتنـافى مـع المبـادئ الإسلامية للوئام والسلام.

انـدثرت الحركـة الشـورية منـذ 1959 ولـم تبـق فـي المشـهد السياسـي المغربـي إلا كبقيـة متكلسـة، إلا أنهـا اسـتمرت كفكـر وانتعشـت داخـل الدولـة المغربيـة فـي ظـل الملكيـة. ويمكـن اعتبـار الأسـتاذ عبـد الهـادي بوطالـب، بـدون مغـامرة، إحـدى التطـورات المتطابقـة للفكـر الشـوري مثلـه مثـل الفيلسـوف محمـد عزيـز لحبـابي، وكلاهمـا فيمـا يتعلـق بإشـكاليتنا، وبـالرغم مـن إجتهـاد كـل منهمـا، يقفان عند سقف الإسلام بل يبرران عدم فصل الدين عن الدولة[22].

انفصـل عـن حـزب الاسـتقلال، كمـا هـو معـروف، سـنة 1959، فصـيل مهـم مـن أطـره و قواعـده، أخـذ لنفسـه بعـد مرحلـة صـراع عـن رمـوز الحـزب، اسـم "الإتحـاد الـوطني للقـوات الشـعبية" وقـدم نفسـه علـى أنـه "البـديل الثـوري" علـى "التخـاذل البورجـوازي" داخـل الحركـة الوطنيـة المغربيـة. وشـكل هـذا التيـار فعـلا بـديلا سياسـيا مـن حيـث راديكاليـة المواقـف وأسـاليب الصـراع، وإن كـان قـد نهـل هـو أيضـا، وبانتقائيـة مـن الفكـر الإشـتراكي العـالمي، فقـد تجنـب طـرح الأبعـاد النظريـة والثقافيـة فـي مرجعيتـه الاشـتراكية وخصوصـا مسـألة الـدين والدولـة. فطيلـة السـتينيات والسـبعينيات همشـت هـذه المسـألة لصـالح المسـائل الاقتصـادية والسياسـية. وسنستحضـر فيمـا يلـي بعـض مواقـف رواد هـذا التوجـه الـذي طبـع "الإصـلاحية المغربيـة" بعمـق. للتـذكير فقـط نقـول إن أحـد مؤسسـي السـلفية المغربيـة، "شـيخ الإسـلام" محمـد بـالعربي العلـوي، أسـتاذ ومربـي "الـزعيم" عـلال الفاسـي فـي قاعـات جامعـة القـرويين ومسـالك مدينـة فـاس، انضـم عنـد انفصـال 1959، إلـى هـذا التوجـه القائـل بالاشـتراكية. وقـد كانـت لـه علاقـة "حميميـة" بالمهـدي بـن بركـة، قـاطرة هـذا التيـار الجديـد. وقـدم هـذا الأخيـر فـي جلسـات المـؤتمر الثـاني للإتحـاد الـوطني للقـوات الشـعبية (مـايو 1962) تقريـرا مهمـا سـيظل لعقـود مرجعـا أساسـيا للراديكاليـة المغربيـة. فـي هـذا الـنص

20. الوزاني محمد بالحسن، حرب القلم، الجزء الأول منشورات مؤسسة محمد بالحسن الوزاني، دار الغرب الإسلامي، بيروت 1981، ص 176
21. ن.م.س، ص 175
22 بوطالب عبد الهادي - لحبابي محمد عزيز

الـذي يحمـل عنـوان "الاختيـار الثـوري" يقـدم المهـدي بنبركـة تحلـيلا سياسـيا للتطـورات السياسـية والاجتماعيـة لمغـرب نهايـة الخمسـينيات وبدايـة السـتينيات، وأساسـا نقـدا جريئـا للتجربـة الحكوميـة لأصـدقائه فـي التوجـه الإشـتراكي. فـالنص، فـي هـذا الجانـب، شـبيه بكتـاب عـلال الفاسـي "النقـد الـذاتي"، فبن بركـة يـدعو رفاقـه إلـى ممارسـة النقـد الـذاتي علـى ثلاثـة أخطـاء قاتلـة[23]، ويـدعو لـنهج الاختيـار الثـوري، ويـذكر فـي الـنص المكـون مـن 79 صـفحة مـن الحجـم المتوسـط، كلمـة ثـورة ومشـتقاتها108 مـرة، بينمـا لا يعـالج، وهـو فـي خضـم توضـيح الاختيـار الإيـديولوجي لتوجهـه، لا المسـألة الثقافيـة عمومـا، ولا الدينيـة خصوصـا. فهـي لا تـدخل فـي مجـال المهـام التـي يعتبرهـا رئيسـية ومسـتعجلة، حتـى عنـد الجـواب علـى سـؤال مـن نحـن؟ (ص 46) أو الحـديث المطـول عـن "الاختيـار الثـوري" مقابـل "الاختيـار الرجعـي" أو عنـد تـدقيق مضـمون "الاشـتراكية العلميـة" (ص 62)، أو بسـط مقتضـيات البرنـامج الإسـتراتيجي... والبرنـامج الأدنـى (ص 67). كمـا همشـت بـل أهملـت المسـألة الثقافيـة والدينيـة عنـد الحـديث عـن ضـرورة توضـيح معـالم المجتمـع الجديـد الـذي نسـعى لبنائـه فـي الميـادين الاقتصـادية والاجتماعيـة والسياسـية (ص 46). يثيـر الـنص، وفقـط بعجالـة وبشـكل ضـمني، مـرتين هـذه المسـائل. فـالأولى بشـكل عرضـي فـي سـياق تحليـل علاقـات القصـر مـع الباديـة عمومـا الـذي لا يعيـر اهتمامـا كبيـرا لهـذه الفئـات فـي المجتمـع مـن الوجهـة السياسـية، اللهـم إلا مـا كـان مـن اسـتغلال رخـيص لعواطفهـا الدينيـة و تمسـكها بالعـادات التقليديـة، كمـا أنـه لا يكتـرث لحركـة مـزاج البرجوازيـة الكبـرى، مثلمـا هـو مهـتم علـى الخصـوص بطبقـة الفلاحـين[24]. الثانيـة عنـد تحديـد مسـتلزمات تكـوين الأطـر الحزبيـة التـي سـتقود الثـورة والتـي مـن الضـروري أن تمتلـك الإديولوجيـا المطابقـة. إن هـذا التكـوين الإديولـوجي يجـب أن يقـوم علـى أسـاس دراسـة القـوانين العلميـة لتطـور المجتمـع وقـد أثرتهـا تجـارب الثـورات الاشـتراكية التحرريـة ضـد الاسـتعمار. كمـا يجـب أن تمتـد جـذوره إلـى أعمـاق ثقافتنـا العربيـة الإسـلامية، وأن تسـتمد قوتها من تراثنا القومي الزاخر بالقيم التقدمية الإنسانية.[25]

تجنـب بـن بركـة ورفاقـه للخـوض فـي هـذه المسـائل يعـود لسـببين: الأول سياسـي ويندرج فـي السـعي لحشـد أوسـع الفئـات حـول برنامجـه السياسـي وحركتـه التـي تتمثـل نفسـها المعبـر الأصـيل عـن "القـوات الشـعبية"، لـذلك لا فائـدة فـي إثـارة مـا يـزعج ومـا قـد يفـرق لكونـه قـد يكـون صـادما، ومنهـا "العواطـف الدينيـة" و"العـادات التقليديـة". فـي هـذا المسـتوى الأول لا يختلـف بـن بركـة عـن عـلال الفاسـي إلا بأسـلوبه الضـمني المـبهم عـن قصـد، بينمـا الفاسـي وضـع الأصـبع، وبوضـوح

23. بن بركة المهدي: الاختيار الثوري (الطبعة الأولى بيروت) الطبعة الجديدة بالمغرب من منشورات "اليسار الديمقراطي" الدار البيضاء 1995 ص 37-76.
24. م.س، ص 35
25. م.س، ص 71

كبير، على الجانب الاضطراري لهذا المسعى، وعلى تناقض، أو على الأقل التعارض الظرفي، بين الممارسة السياسية والممارسة الفكرية. الثاني إديولوجي، ويشرح إلى حد ما السبب الأول. فبن بركة ومعه الاشتراكيون المغاربة الذين يقولون بالاشتراكية العلمية حتى يميزوا أنفسهم عن الشيوعية التي كانت في المغرب آنذاك رديفا للإلحاد، يستبطن (نعني بن بركة) المنهج الذي تقوم عليه هذه "الاشتراكية العلمية" المروجة آنذاك داخل أوساط حركات التحرر الوطنية في القارات الثلاث. والذي كان بن بركة أحد أقطابها. يعتمد هذا المنهج على التطورية التقدمية بنفسها الوضعي وبعدها الحتمي، وعلى المادية التاريخية بمفهومها الاختزالي ونظرتها الميكانيكية لتحكم البنيات التحتية في البنيات الفوقية. يظهر هذا جليا في نص الاختيار الثوري الذي حكمه تحليل طبقوي ونفس إرادوي. فمصطلحات مثل "الإقطاعية و"البرجوازية" و"الطبقة العاملة" والطبقة البرجوازية الصغيرة"... تؤثث النص من أوله إلى آخره. كما أن استحواذ "الرجعية" على مقاليد الحكم بعد رحيل الاستعمار ليس إلا كبوة سيتم تجاوزها حسب بن بركة بالنضال ضد الرجعية التي ستزداد خضوعا للاستعمار الجديد، وفي سياق ذلك ستتوضح صورة الصراع في المغرب، كتجلي للصراع الهائل الدائر بين الاستعمار وقوى التحرر والتقدم في العالم[26]، لذلك يجب اعتماد برنامج ثوري لتغيير جذري يعد البلاد والعباد لسلك طريق التقدم طريق الاشتراكية[27]. فعادات وتقاليد "الجماهير الشعبية" ستتغير مع تغيير المعطيات الأساسية الواقعية باستئصال جذور الهيكل الإقطاعي والرأسمالي الاستعماري[28] فسيكون لذلك أثر إيجابي على تنمية مجموع الأمة. المنطق المهيكل لهذا الخطاب هو أسبقية تغيير البنى التحتية، أما البنى العقلية فهي تحصيل حاصل. هكذا سنجد عند الاشتراكيين المغاربة، مثلهم مثل اشتراكيي "العالم الثالث"، والمصطلح من ابتكار المهدي بن بركة، نزعة نحو اختزال "تنمية مجموع الأمة" في التنمية الاقتصادية. وسيمتد هذا التوجه إلى حدود منعطف 1975. بعد سنتين من وفاة بن بركة وأحداث مارس 1965، وفي مناخ حالة الاستثناء، ستنظم "الشبيبة العاملة" "سليلة الإتحاد المغربي للشغل" شهرها الثقافي لسنة 1967، وستستدعي له أقطابا ثلاثة من الاشتراكيين المغاربة عبد الله إبراهيم وعبد الرحيم بوعبيد ومحمد الحبابي. وفي محاضرات هؤلاء يستمر نفس المنطق أي الدور المركزي للبنيات التحتية والارتباط مع الشعب وفهمه وتجنيده مع ميول لتقديسه، دون أدنى مقاربة نقدية لحمولته الثقافية والإرادوية خصوصا من لدن الشباب قوة المستقبل. ركز المحاضرون منطق بن بركة مع بعض التململ فيما يتعلق بالحتمية، إذ نبه الجميع إلى احتمال استمرار "تقهقر

26. م. س، ص 36
27. م.س، ص ص 62 – 64
28. م.س، ص 64

الأوضاع" إذا لم ينخرط الشباب الواعي بكل قوته وزخمه في تغيير المستقبل. يفهم هذا التمييز نظرا لعدم تحقق المراهنة على "تعفن الأوضاع". ونلمس في مداخلة عبد الله إبراهيم نوعا من المرارة والمقاربة الأخلاقية، فقد قال بعض استعراض تاريخي للأوضاع: والنتيجة هي أن تحليل الحالة الحاضرة بعد اثني عشر سنة من الاستقلال، يدل على أن جميع الشخصيات وجميع الهيئات، تجد نفسها الآن في وضع مزيف، فالمغرب على هذا يمكن اعتباره بلاد الأوضاع المزيفة في الوقت الحاضر، ولكن أفجع هذه الأوضاع وأوخمها نتائج على الإطلاق هي التي تعبث بتكوين النشء المغربي اليوم، لتوطيد دعائم انحطاط المغرب لما بعد سنة 2000[29] . تأسيسا على هذه الصورة القاتمة، يؤكد عبد الله إبراهيم أن المخرج وعملية الإنقاذ يملكهما الشباب نفسه إذا شعر بشكل جدي بالمسؤولية، فتلك الخطوة الأولى للخروج من المأزق ولأجل الوصول للهدف يجب [على الشباب] العمل على رفع مستوى الوعي السياسي الاجتماعي عند الشباب على العموم، وذلك على أساس علمي للواقع المغربي من جهة، وإدراك صحيح للأحداث التي تجري في العالم الآن من جهة أخرى. والاتصال الدائم العميق بالجماهير الشعبية، وخلق الفرص باستمرار للتعاون معها، والكفاح إلى جانبها، وبالشعور بآمالها وآلامها مهما كانت الظروف"[30].

لم يخرج عبد الرحيم بوعبيد عن هذه العمومية فيما يتعلق بالمرجعية الإديولوجية والثقافية، بالرغم من أحداث مارس 1965 وما أسفرت عنه من حركة شبابية منتقدة ومشاكسة، هؤلاء الذين يصفهم بوعبيد بطوائف الشباب المستيقظ ليعلق: فلهؤلاء و لغيرهم نقول: إن الأبواب مفتوحة، وأن الأطر تنقص القوات التقدمية، وهي ترحب بكل الطاقات التي تريد العمل الجدي، وتؤمن بعقيدتها الثورية، وأن الحركة الثورية والتقدمية في حاجة إلى تلقيح وتنمية وتغذية، من طرف الشباب الحي العامل الذي يريد أن يصنع مستقبله ومستقبل الجماهير المحرومة، وفقا لمبادئ الاشتراكية الصحيحة والديمقراطية[31] ويضيف وإذا قال البعض: يجب قبل كل شيء أن توضح المفاهيم الثورية، فنقول لهم: تعالوا معنا، والتزموا بالعمل الخلاق، وإذا بقيت هناك جوانب غامضة، فدوركم كمناضلين ملتزمين، يحتم عليكم إزالة الغموض، وتحليل الوضع تحليلا علميا. وإذا قال آخرون إن الأساليب والوسائل التي تستعمل غير مجدية فليدركوا أن المناضلين الملتزمين، هم الذين يستطيعون اختيار الوسائل التي قد تكون أكثر فعالية، بل هم

29. عبد الله، بوعبيد عبد الرحيم، لحبابي محمد: الشباب المغربي أمام مسؤولياته، منشورات الإتحاد المغربي للشغل، الدار البيضاء 1968 ، ص 26
30. م.س، ص 29 و 30
31. م.س، ص42

الـذين يبتكـرون هـذه الوسـائل ويخلقونهـا، بـوعي كامـل وشـعور بالمسـؤولية[32]. فـلأن هـذا التوجـه لـم يعـر أهميـة لتلـك الجوانـب الغامضـة، سـيلجأ بعـض شـبابه إلـى إيجـاد أجوبـة لهـا بـاختراق إرادوي راديكـالي وإسـقاطي للبنيـة الذهنيـة الوطنيـة، كمـا سـنبين ذلـك فيمـا بعـد. أمـا محمـد الحبـابي الـذي تـدخل خـلال الأسـبوع الثالـث مـن هـذا الشـهر الحافـل، فقـد قـدم دراسـة اقتصـادية إحصـائية مسـتقبلية عـن تطـور البنيـات الاقتصـادية والاجتماعيـة وسـوق الشـغل، مـع تطورهـا المحتمـل فـي آفـاق سـنة 1985. والدراسـة أنجـزت علـى غـرار دراسـة سـيناريوهات تطـور العـالم مـن لـدن الأمـم المتحـدة. وسـتبقى هـذه الدراسـة، التـي ستصـدر بشـكل أكبـر تفصـيلا فـي كتـاب خـاص[33]، مـن أهـم الدراسـات التـي أنجزهـا الاشـتراكيون المغاربـة قبـل سـنة 1975. فـالعرض غنـي بالأرقـام وبمقاربـة لبنيـة التعلـيم وبنيـة سـوق الشـغل، وشـبكة توزيـع الاسـتهلاك، والدراسـة مـن هـذه الزاويـة إضـافة نوعيـة فـي المنتـوج العلمـي للسـتينيات، إلا أن الطـابع الطبقـوي والتنمويـاوي (ديبيلوپيپيمينتاريسـتي) شـكل روحهـا، وأستسـمح فـي اسـتخراج هـذا الاستشـهاد الطويـل نسـبيا مـن دراسـة لحبـابي: كمـا أن الهياكـل الفكريـة التقليديـة تشـكل عائقـا للتقـدم والتنميـة، وهـذه الهياكـل الفكريـة تسـتند إلـى الفكـرة القائلـة بـأن الإنسـانية فـي مجموعهـا لا يمكـن أن تتقـدم، بـل أن الفـرد وحـده أو الجماعـة، هـو الـذي يتقـدم، فتكـون النتيجـة قلـة الثقـة فـي التقـدم وفـي التحسـن. أمـا الهياكـل الفكريـة العصـرية فإنهـا تقـوم علـى فكـرة عـالم نشـيط ومتفاعـل: فالعـالم المـادي هـو المـادة المرنـة التـي تقبـل سـيطرة الإنسـان، وذلـك مـن أجـل ازدهـار الإنسـان وتقدمـه وسـعادته. وتـتم سـيطرة الإنسـان علـى المـادة مـن خـلال الملاحظـة وبتطبيـق المنطـق الإنسـاني. والهياكـل الفكريـة العصـرية، بخـلاف الهياكـل الفكريـة التقليدية، تعطي الأسبقية للمنطق والتجربة والعمل الإنساني.

أمـا الهياكـل الاقتصـادية، فمـن المسـتحيل أن تخـرج مـن التخلـف أو أن تجـد حـلا للمشـاكل الحيويـة التـي توضـع فـي سـنة 1985 مـع وجـود هياكـل يطغـى عليهـا الجانـب الفلاحـي. إن تنميـة الفلاحـة فـي المغـرب أمـر ضـروري، لا كهـدف ولا كوسـيلة أساسـية للتنميـة العامـة، ومـادام المغـرب بلـدا يطغى عليه الطابع الفلاحي فإنه سيظل بلدا متخلفا[34].

كـان لمحمـد الحبـابي قبـل سـنة 1959 مـاض شـيوعي، و لمـا التحـق بالاشـتراكيين فـي حـزب "القـوات الشـعبية" حـافظ علـى بنيـة التحليـل الـذي يشـرح كـل شـيء انطلاقـا مـن المعطيـات الاقتصـادية حتـى عنـدما يعتبـر أن تعلـيم الشـباب ضـرورة حيويـة لتجـاوز التخلـف وأن المسـتقبل مضـمونا حينمـا يكـون لكـل شـاب مـن شـباب المغـرب قلـم بيـده، لا محـراث يجـره، لأن القلـم هـو

32. م.س، ص43
33. الحبابي محمد . مستقبل شبيبتنا المغربية في أفق الثمانينات ، مطبعة دار النشر المغربية،الدار البيضاء،1971
34. م.س، ص 129

الـذي يضـمن لنـا لقمـة العـيش اليوميـة[35]، فإنـه يركـز علـى الجانـب التقنـي والكمـي فـي التعلـيم (التعمـيم)، فمسـألة مضـمون البـرامج وفلسـفة التكـوين ووظيفـة المدرسـة، لـم تكـن مطروحـة علـى الإطلاق، ويمكن فهم ذلك بالنظر لثقل الأمية آنذاك.

سـيبقى هـذا المنحـى التنمويـاوي سـائدا لـدى الاشـتراكيين المغاربـة إلـى حـدود أواسـط السـبعينيات، باسـتثناء بعـض القلـق عنـد عبـد الله إبـراهيم لمـا نشـر سـنة 1969 مؤلفـه صـمود وسـط الإعصـار وعبـر فيـه بقـوة علـى أن فسـاد الأوضـاع العامـة لا يكفـي، والبـؤس لا يكفـي، واضـطهاد الجمـاهير الشـعبية وسـحقها وتعـذيبها لا يكفـي، واسـتغلال الملايـين مـن البشـر وامتصـاص دمائهـا واسـتنزاف جميـع قواهـا مـن قبـل كمشـة مـن النفعيـين لا يكفـي، والتهديـد الأجنبـي للـبلاد كلهـا بالعبوديـة والاحـتلال لا يكفـي، والهـزائم العسـكرية الفظيعـة لا تكفـي، أن تـدفع بشـعب ليثـور بصـفة إيجابيـة مسؤولة و ليتـولى بنفسـه زمـام مصـيره إذا لـم تكـن لـدى ذلـك الشـعب فكـرة تتبلـور فيهـا إرادتـه بجـد وتـزوده معنويـا بسـلاح النصـر وتنصـهر داخـل بوتقتهـا إطاراتـه وقراراتـه وسـلوكه النضـالي العـام[36]. هـذا الشـعور بضـرورة تعميـق التصـور النظـري، أو المـذهبي كمـا كـان يقـال آنـذاك، سـيطوره عبـد الله إبـراهيم بالتـدريج وبـالتوازي مـع إقامـة مسـافة مـع النشـاط السياسـي اليـومي. هكـذا سـيؤدي بـه التأمـل، بعـد عقـد مـن الـزمن، إلـى طـرق الموضـوع الـذي غيـب تحـت ضـغط النشـاط السياسـي اليـومي، وينشـر فـي كتيـب صـغير مضـامين محاضـرتين فـي موضـوع الإسـلام فـي آفـاق سـنة ألفـين[37]. ألقيـت هاتـان المحاضـرتان أمـام جمهـور مخضـرم مـن الفقهـاء والمناضـلين اشـتراكيي النزعـة، وكـان هـدف المحاضـرة هـو خلـق شـروط حـوار بـين مـرجعيتين. احتلـت مسـألة الاجتهـاد عنـد المسـلمين، حسـب عبـد الله إبـراهيم، مكانـة مركزيـة. والاجتهـاد يفضـي إلـى تجديـد الممارسـة. هـل للاجتهـاد معنـى، يتسـاءل المحاضـر، إن كـان موضـوعه شـيئا آخـر غيـر ميـدان العلاقـات الاجتماعيـة، أي ملاءمـة روح الإسـلام مـع الممارسـات الحضـارية؟ فيجيـب بالإيجـاب[38] موضـحا أن هنـاك فـرق بـين الـدين والتـدين، وهـذا الأخيـر تأويـل للـدين انطلاقـا مـن شـروط اقتصـادية واجتماعيـة محـددة الزمـان والمكـان. ومـا يقـدم اليـوم كإسـلام إنمـا هـو ممارسـة لتـدين تبلـور فـي المرحلـة الثانيـة مـن تطـور الإسـلام، أي لمـا تحـول مـن دين إلـى إيـديولوجيا طبقيـة، إيـديولوجيا طبقـة الأغنيـاء والملاكـين العقـاريين، طبقـة قويـة كانـت قـادرة علـى انتـزاع السـلطة السياسـية بقـوة الحديـد والنـار[39]. فلـم يتقـنن الشـرع إلا فـي هـذه المرحلـة. وقـد كـان جوابـا علـى أسـئلة تبلـورت فـي إطـار البنيـات الاجتماعيـة والسياسـية والاقتصـادية لتلـك المرحلـة. فـإذا تغيـرت

35. م.س، ص 134
36. إبراهيم عبد الله : صمود وسط الإعصار، منشورات الشركة الشرقية، القاهرة 1969، ص 82
37. إبراهيم عبد الله: الإسلام في آفاق سنة ألفين، مطبعة النجاح الجديدة ، الدار البيضاء 1979
38. م.س، ص 20
39. م.س، ص 38

الشروط التاريخية، فيجب بالضرورة مراجعة الأجوبة لتلائم الأسئلة الجديدة[40]. هذا التجديد ليس فقط ذهنيا بل أيضا نضالا من أجل إعادة هيكلة العلاقات الاجتماعية، ولا يمكن أن يقوم بعمل مثل هذا إلا تقدمي[41]. ولما تساءل فقيه عن الجمع بين الإسلام والصراع الطبقي بينما القرآن يوصي بالسلام، أجاب عبد الله إبراهيم أن تعارض الإسلام مع المجتمع الطبقي برنامج للإنجاز، أفق على المسلمين الوصول إليه كمحطة نهائية، أما البداية فهو الصراع العنيد ضد التفاوت، وكل تجاهل ساذج للمعطيات الموضوعية للواقع هو بمثابة إلغاء لكل الآيات القرآنية التي تندد باستغلال الإنسان وبالسلطة الجائرة للمال[42]. هكذا يصل عبد الله إبراهيم إلى ضرورة تأويل تقدمي للإسلام ينطلق من أسئلة الظرفية الراهنة وهي بالنسبة له ثلاثة: من يملك الأرض؟ في أيدي من يتكدس المال؟ وفي خدمة من تسخر التكنولوجيا؟ ويصل عبد الله إبراهيم، كعلال الفاسي إلى "المنزلة ما قبل" !

يمكن أن نعدد الأمثلة، إلا أن السقف واحد، فبالرغم من المجهود التركيبي الذي بذله عمر بن جلون في إعداد التقرير الأيديولوجي[43] والذي وضع فيه الأصبع على التشكل التاريخي للدولة المغربية، فإنه توقف عند الشعب وقاربه كفاعل تاريخي كلي، ولم يتجاوز "المنزلة ما قبل" غالبا لدواعي الحشد الواسع. حتى الحزب الشيوعي، وبعد محنة منعه سنة 1959، بتبرير عدم جواز قيام حزب شيوعي في بلد إسلامي على رأسه أمير المؤمنين، وصل إلى هذا السقف، لما عقد مؤتمره الثالث بشكل سري في الدار البيضاء لأنه كان ممنوعا، والمغرب تحت حالة الاستثناء؛ فقد ورد في التقرير العام الذي أقره المؤتمر، بأن الجماهير المغربية قوية الإيمان، ولا يجب أن يعرقل ذلك التزامها في النضال الثوري وانخراطها في الاشتراكية... فكل فصل في الشروط الحالية للتطور السياسي والثقافي والاجتماعي، بين الواقع الديني والواقع الاجتماعي، لا يعدو أن يكون إلا وهما. هذا الموقف الصحيح اتجاه الإسلام في بلدنا، لا ينبغي أن يفهم كمجرد قضية تسامح ديني أو كاحترام للمعتقدات، كما لا ينبغي أن يعتبر كموقف تكتيكي أو كموقف تفرضه الظروف، بل يجب أن يعتبر كإنعكاس لإنسجام حي وكاستيعاب منسق للواقع الوطني في مجموعه، كما يجب أن يكون انسجاما لنضالنا مع ظروف وعي شعبنا، وإدخالا في كفاحنا لقيم الإسلام التقدمية التي كانت الجماهير الشعبية

40. م.س، ص 39
41. م.س، ص 24
42. م.س، ص 52
43. الإتحاد الإشتراكي: المؤتمر الاستثنائي،(يناير 1975) الطبعة الثانية ،الرباط ،1978،صص 33-190

تناضل من أجلها أمس أثناء المعركة في سبيل الاستقلال، واليوم في المعركة في سبيل العدالة الاجتماعية والديموقراطية وضد استغلال الإنسان للإنسان[44] .

بعد هذا المؤتمر(1966)، سيتخلى الحزب عن النعت الشيوعي، وسيحمل ابتداء من 1967 اسم حزب التحرر والاشتراكية، الذي سيمنع بدوره، ولم يستقر كحزب شرعي إلا ابتداء من 1975 تحت اسم التقدم والاشتراكية.

كيفما كان المنطلق الأيديولوجي عند الوطنيين المغاربة، يصلون أمام الطابع الإسلامي للمغاربة والتداخل العضوي بين الدين والدولة إلى ضرورة تأويل جديد أو لين أو تقدمي للإسلام. بل قد يغامر بعضهم من حين لآخر بالحديث عن ضرورة "إصلاح ديني"، أما فصل الدين عن الدولة فغير وارد، على الأقل بصريح العبارة. هذا هو التوجه الغالب والمركزي داخل الإصلاحية المغربية، وقد تعرض لاختراقات من طرف تيارات هامشية، منها الراديكالية الماركسية في الستينيات والسبعينيات، التي روجت داخل أوساط الشباب للإلحاد انطلاقا من مقولة: "الدين أفيون الشعوب"، لكنها في وثائقها اكتفت بفصل الدين عن الدولة[45] وفي سياق جدل حول دور الفلاحين في الثورة. ومنها النزاعات الإسلاموية التي سار بعضها في سياق قناعته بأن الدولة المغربية "لا دينية" وعوض المذهب المالكي السائد في المغرب بالتأويل الوهابي المانوي وبضرورة سمو الدين على السياسة وفصل إمارة المؤمنين عن النهج الوراثي للحكم[46].

شكلت هذه الاختراقات استثنائات في شكل أقواس سرعان ما تغلق في دينامية سعي التيارات التي برزت فيها إلى الخروج من الهامشية. بل من قلب هذه الهوامش تنتصب شخصيات وأصوات لتركز ما هو قائم[47]، أي التداخل العضوي والدور الحيوي لإمارة المؤمنين. والملفت للنظر خصوصا بعد اقتحام الحركات الإسلاموية للحقل السياسي، وبعد انفجارات الدار البيضاء في مايو 2003، سارت تصريحات بعض رموز الإصلاحية المغربية إلى:

"لن يكون أبدا المغرب بلدا علمانيا" (محمد جسوس).

"إمارة المؤمنين بوابتنا نحو الحداثة" (الحبيب طالب).

"لو لم يكن الفصل 19 في الدستور لخلقناه" (إسماعيل العلوي).

---

44. الحزب الشيوعي المغربي: التقرير المقدم للمؤتمر الثالث 1966 ، نص مرقون، أرشيف حزب التقدم والإشتراكية، ص 36
45. في جدال بين "23 مارس" و "إلى الأمام" حول حزب "العمال و الفلاحين" أم الحزب العمال و الفلاحين
46. تصريحات أحمد الريسوني في جريدة التجديد
47. عبد الإله بنكيران، عبد الكريم الخطيب، أحمد حرزني، لحبيب طالب، مولاي إسماعيل العلوي، محمد جسوس، أمحمد طالبي، عبد الرفيع الجوهري

بينما أعلن الملك محمد السادس، وبعد الأحداث المذكورة، في خطاب رسمي أن الحقل الديني والحقل السياسي مفصولان ولا يجتمعان إلا عند أمير المؤمنين.

هل يعكس هذا الواقع، حالة ظرفية تتميز بوجود "خطر" إسلاموي قد يزرع التطرف في المجتمع، لذلك تتم المفاضلة بين "الأصولية الشعبية" و"أصولية الدولة" [48]، لأن هذه الأخيرة تبدو قابلة للتجديد، أم أن هذا الواقع معطى بنيوي يؤشر على عقلية تعيش ترددات عميقة تحت وقع موجات تحول تعتصرها من الداخل. أميل إلى هذا الشرح الثاني، وسأستشهد بعبد الله العروي لتوضيح ذلك.

شكل هذا المؤرخ بالنسبة لي مرجعا علميا لا محيد عنه، وقدرة نظرية على التحليل وتوليد المعنى، وبالرغم من التحفظات النظرية على "تاريخانيته"، فقد نهلت من تراثه باستمرار منذ أن اخترت الاشتغال بالتاريخ. أذكر بهذا لأنني سأستشهد به اليوم كمثقف عضوي "للإصلاحية المغربية" بالرغم من حكمه القاسي عليها في شهادته حول المغرب والحسن الثاني[49].

في كتاب نشره العروي بالفرنسية سنة 1997 تحت عنوان: الإسلاموية والتحديث و الليبرالية يحلل العروي، عبر مقالات متعددة كتبها كمداخلات في مناظرات أو مساهمات في مواضيع متنوعة، يحلل التفاعلات المختلفة على صعيد العالم العربي والإسلامي، بين التوجهات الثلاثة المذكورة، فبقدر ما تفاعلت إيجابا مع تحليله في الفصل الثاني المعنون "التحديث و إشكالاته"[50]، وقفت حائرا أمام تحليله في الفصل السابع المعنون "الدين و المجتمع و الثقافة"، ذلك أنني لم ألمس لا تاريخانية ولا نسبية المؤرخ أمام ما يبدو كمعطى ثابت. يستعير العروي من الألماني بورخاردت جاكوب أفكاره حول نمذجة ثلاثية لفهم التاريخ الكوني: الدين و الدولة و الثقافة... يمكن توزيع التجارب التاريخية الكونية إلى ثلاثة مجموعات يكون في كل منها مستوى واحد (الدين أو الدولة أو الثقافة) هو المهيكل الرئيسي للتجربة، فمثلا الثقافة بالنسبة للإغريق، الدولة بالنسبة للرومان، والدين بالنسبة للمجتمعات الشرقية (الشرق الأوسط والأدنى). فالمستوى المهيكل يحول الآخرين إلى مجرد أدوات[51]. طبعا ينتقد العروي الطابع المجرد لهذه الأفكار، إلا أنه يسجل أهمية وجود "قيمة مهيكلة في كل مجتمع تاريخي" يدعو إلى دراستها جديا، وإلى تدقيق مفاهيم دين ودولة وثقافة للتمييز

48. العيادي محمد: ملف التأهيل : الدين و الدولة و المجتمع في مغرب القرن العشرين، جامعة باريس "الثامنة، يوليوز 1996
49. LAROUI. A: Le Maroc et Hassan II (un témoignage) , éditions centre culturel arabe, Casablanca 2005, pp 28, 122, 192, 219.
50. LAROUI. A : islam , modernisme, libéralisme, éditions du centre culturel arabe, Casablanca 1997, pp 35 – 54
51. Idem, p 157

بينهـا. بعـد هـذه الإحتياطـات يعتبـر بـأن هـذه النمذجـة يمكـن أن تشـكل قاعـدة لتحليـل مقـارن للمجتمعات الإنسانية.

يطبـق العـروي، بعـد ذلـك هـذه المقاربـة علـى المغـرب، ويصـنفه ضـمن المجموعـة التـي يحتـل الـدين فيهـا مسـتوى "القيمـة المهيكلـة". الـدين بمفهـوم التـدين ولـيس العقيـدة فيقـول: ينتمـي معظـم سـكان المغـرب المسـلمين إلـى المـذهب المـالكي، فمـا يحـدد وعـي المغاربـة إذا لـيس الإسـلام بشـكل عـام بـل المالكيـة كمـا تطـورت فـي البلـد نفسـه[52] أمـا الدولـة فـي المغـرب، فلهـا تاريخهـا و منطلقهـا والعاهـل فيهـا، يسـتمد سـلطته مـن الدسـتور المكتـوب ومـن البيعـة التقليديـة، ويجسـد الأمـة ويضـمن خلـود الدولـة، ويرعـى السـلم الاجتمـاعي، والطـرق والوسـائل لتحقيـق ذلـك متروكـة لتقـديره[53]، فهـذا المنطـق الخـاص المسـجل فـي التـاريخ و الـذي يعطـي للدولـة المغربيـة ملامـح الدولـة "الوضـعية" لا يمكنهـا لا مـن السـمو علـى الـدين ولا مـن الانفصـال عنـه. فـلأن الدولـة جـاءت فـي الأصـل خارجيـة، و لـم تتشـكل كمـا حصـل فـي تجـارب أخـرى مـن انحـلال قبلـي، واقترنـت منـذ القـرن الثـامن بنشـر الإسـلام، فـلا يمكـن لهـا فـي المغـرب أن تكـون قيمـة عليـا بـالرغم مـن اسـتقلالها النسـبي والنفـوذ الفعلـي والـدائم لمفهـوم المخـزن فـي بسـيكولوجية الفـرد المغربـي ولـو كـان أميـا[54]، ومـا الثقافـة يتسـاءل العـروي؟ إنهـا تسـتدعي التمييـز. فـالكبيرة، أي الثقافـة العالمـة، فهـي عربيـة–إسـلامية بعـد أن كانـت لاتينيةمسـيحية ووثنيـةء سـامية، أمـا الأخـرى أي الفلكلـور، مختلـف التعبيـرات مـن غنـاء ورقـص وحكـي وأمثـال...، فهـي أيضـا لا تأخـذ قيمتهـا إلا عبـر الـدين فمـا يشـكل القيمـة السـامية، مـا يحـدد الهويـة المغربيـة، بصـرف النظـر عـن الاختلافـات الجغرافيـة والاجتماعيـة والتربويـة، لـيس الـدين كلاهـوت، بـل الـدين كمجموعـة أشـكال التعبيـر... فكـل عناصـر الفلكلـور... لا تأخـذ شـكلها ولا تمتلـك مسـحتها وقيمتهـا "الإنسـية" إلا بإدماجهـا للرسـالة القرآنيـة[55]. فحتـى علـى صـعيد البسـيكولوجيا الفرديـة، فمـا يحـدد الهويـة المغربيـة، مـا يمكـن المثقـف والحرفـي والعاطـل والأمـي، مـن تجـاوز التمـايزات الفرديـة وتعريـف الـذات كمغربـي، هـو الإسـلام كثقافـة والإسـلام كتعبيـر قادر على إثارة المشاعر الجماعية[56].

القاعـدة إذن هـي مركزيـة الـدين كقيمـة سـامية مهيكلـة، ولـو أنـه علـى الصـعيد الدسـتوري، مجـال الرموز، هناك فصل وغموض، وهذا موجود في كل مكان.

52. *Idem*, p 159.
53. *Idem*, p 162.
54. *Idem*, p. 164.
55. *Idem*, p. 165.
56. *Idem*, p. 166.

ومـا القـول فـي العلمانيـة أو اللائكيـة؟ إن قطيعـة فـي هـذا الاتجـاه، يقـول العـروي، أي تقلـيص دور الشـريعة فـي التشـريع القـانوني، فهـذا لا يمكـن أن يـأتي إلا مـن جهـة النسـاء، إذ سـيتطرق الإصـلاح لقـانون الأسـرة... [فمطالـب الجمعيـات النسـائية] تـدعو لحظـر تعـدد الزوجـات وحريـة الـزوج فـي التطليـق... قبـل التفكيـر فـي مرحلـة ثانيـة أصـعب قـد تهـدف إلـى التغييـر العملـي لقـانون الإرث غيـر المنصف للمرأة. في المرحلة الحالية لا أحد قادر على تأكيد أن هذه الإصلاحات مستحيلة[57].

هـذا الكـلام للعـروي ورد فـي مداخلـة قـدمها لمنـاظرة بالولايـات المتحـدة الأمريكيـة، ولعـل منـاخ ذلـك اللقـاء، وخـارج المغـرب، جعلـه يركـز علـى مـا يميـز التجربـة التاريخيـة المغربيـة... وإنصـافا لـه أوردت كـل هـذه الإستشـهادات، وأنـا فـي أريحيـة لأسـجل عـدم اقتنـاعي بفرضـية "الـدين كقيمـة سـامية مهيكلـة"... ولمزيـد مـن الإنصـاف أقـول إننـي أتفهـم العـروي عنـدما أجـاب فـي فضـاء مغربـي علـى مـداخلات زمـلاء فـي نـدوة بنمسـيك: ... لكـي لا نتقاتـل، ولا نتشـاجر بـدون نتيجـة، ولكـي لا نتخـابش صـباح مسـاء، نضـع المسـجد فـي بقعـة، والبرلمـان فـي بقعـة بعيـدة، والمختبـر فـي بقعة بعيدة جدا [58]، أليست هذه خطوة نحو الفصل؟

57. *Idem*, p. 163.

58. العروي عبد الله: الحداثة و أسئلة التاريخ، منشورات كلية الآداب بنمسيك، الدار البيضاء 2007، ص 187

محمد بن الحسن الوزاني الصحفي من خلال جريدة "الرأي العام"

محمد معروف الدفالي

صدور جريدة "الرأي العام"

عقد حزب الشورى والاستقلال بعد مؤتمره التأسيسي، بحوالي شهرين، اجتماعا بمدينة فاس في شهر أكتوبر من سنة 1946 ترأسه الأمين العام للحزب محمد بن الحسن الوزاني، وانصبت أشغاله على مناقشة مشروع إصدار لسان حال للحزب، فتم الاتفاق حول الموضوع وحول الإسم الذي اقترحه الوزاني للجريدة المرتقبة، وهو *الرأي العام*[1]، كما تطوع أحد شباب الحزب، وهو أحمد بن سودة، لتولي إدارة تلك الجريدة[2].

ورغم أن أحمد بن سودة تقدم بطلب ترخيص إصدار الجريدة إلى المراجع الفرنسية المختصة في نفس شهر الاجتماع، أي شهر أكتوبر سنة 1946، فإنه لم يحصل عليه إلا بعد حوالي ستة أشهر[3] ـأبريل من سنة 1947ـ ، وقد حمل الوزاني سلطات الحماية وما سماه "السياسة المتبعة في البلاد" مسؤولية هذا التأخير، وبين كيف أن "السلطة المتصرفة" لم تسمح بإصدار هذه الجريدة "إلا بعد التي واللتيا وبعدما ذهب الناس في شأنه مذاهب شتى"[4]، كما وظف المناسبة لتجديد توجيه النقد لسياسة الحماية بخصوص الحق في إصدار الصحف، فنعت تلك السياسة بسياسة "الامتياز العنصري التي تبخس المغربي والعربية حقها وتزن الأقوام والأشياء بقسطاسين مختلفين"[5]. فقد أنكر على الإقامة العامة ما تمنحه من تسهيلات للصحافة المكتوبة بالفرنسية وما تضعه من عراقيل أمام الصحافة المكتوبة بالعربية، معتبرا هذا الواقع نوعا من

---

*A compléter

1. عزالعرب الوزاني، *حدثني والدي*، م س، ص. 50-51 .
2. يظهر من خلال مذكرات أحمد بن سودة أن حضور الاجتماع ترددوا، في قبول هذه المسؤولية، وأن الآراء والتدخلات كانت متعددة، وأن أحمد بن سودة اقتحم الميدان بجرأة واقترح نفسه لإدارة الجريدة. كما يظهر أن البعض تراجعوا عن التردد، واقترحوا أنفسهم للمهمة، إلا أن الوزاني حسم في الموضوع بإعلانه "لا يديرها إلا أحمد بن سودة الذي صمد حين ترددتم، وثبت حين جبنتم". انظر: عبد الحي حسن العمراني، *أبطال الوطنية- الكتاب الثاني- أحمد بن سودة*، م س، ص. 74-75.
3. يرى عبد الهادي بوطالب في مذكراته، أحد احتمالين وراء تأخر صدور جريدة *الرأي العام*، وتأخر ما سماه "تكرم الإقامة العام الترخيص" بقوله: "وربما كان سبب ذلك أن حزبنا ضمن في رسالة الطلب، أنها (الجريدة) لسانه الناطق، أو أن مديرها كان غير مرغوب فيه من لدن الإقامة العامة. بمقتضى الظروف التي كان يجتازها، مما أشرنا إليه في الصفحات الماضية". انظر عبد الهادي بوطالب، ذكريات ... ،ج2، م س، ص 253.
4. محمد حسن الوزاني، "الرأي العام"، جريدة *الرأي العام*، السنة 1 العدد 1، الأربعاء 16 أبريل 1947.
5. المصدر نفسه.

"المعاملة الشاذة التي تعامل بها الصحافة العربية في عقر دارها"[6] ومحملا إياه المسؤولية الأصلية وراء تأخر صدور جريدة *الرأي العام* وغيرها من الجرائد الوطنية.

وقد صدر العدد الأول من أسبوعية *الرأي العام* يوم الأربعاء 16 أبريل 1947 بهوية أنها لسان حزب الشورى والاستقلال. وكان صدوره متزامنا مع زيارة السلطان لمدينة طنجة ومع المذبحة التي ارتكبها المجندون السينغاليون في الجيش الفرنسي بمدينة الدار البيضاء، فجاءت مضامين مقالاته مطبوعة ببعض الحدة. أما شكل الجريدة فكان متواضعا، عكسته ثماني صفحات من الحجم المتوسط ونوع الورق الأبيض المائل إلى الصفرة. وتعود أسباب هذا الظهور المتواضع، حسب المعنيين بالأمر، إلى ضعف الوسائل والشروط التي جعلت من صدور تلك الجريدة "معجزة لا تتحقق من المشرفين عليها إلا بمعاناة لا تطاق"[7]. فمدير الجريدة لم يكن محترفا، إذ لم يتلق تعليما صحفيا بمدارس أو معاهد ولم يسبق أن مارس الصحافة عملا أو وظيفة، وإنما ولج الميدان مناضلا حزبيا من أجل مبادئ آمن بها واختار معانقتها[8]، بما ينطوي عليه ذلك من عوامل من شأنها أن تغلب الجانب النضالي والإيديولوجي على الجانب الصحفي والفني، وإلى جانب هذا كانت الإمكانيات اللوجيستسكية في عداد العدم، حيث كانت الجريدة تطبع "بمطبعة الأمنية" بالرباط وهي مطبعة "لم تكن ... تتوفر في تجهيزها المادي إلا على الأدنى المتمثل في تصفيف الحروف باليد وفي آلة سحب لا تسحب في الساعة إلا عددا محدودا من المطبوعات"[9]. وكانت هيئة التحرير قليلة العدد، تقوم بإعداد ما ينشر، تحريرا وتصحيحا، في ورشة صغيرة[10]. ويذكر عبد الهادي بوطالب أنه بمعية أحمد بن سودة كانا يقومان بعمل فريق حيث كانا يملآن بأيديهم عناوين المشتركين، ثم يخرجان من البيت إلى مركز البريد لإيداع الأعداد الموجهة للمشتركين عبر المغرب في الصناديق، بعد أن يقوما بنقل "أحمال الجريدة على دفعات من المطبعة إلى البيت أو منها إلى إدارة الشركة

---

6. المصدر نفسه.
ويوضح الوزاني في المقال نفسه الأمر بالاستناد إلى القيود والإجراءات التي فرضها القانون –آنذاك- على الصحافة العربية، بقوله: "وبيان هذا بالإجمال أن حق إصدار الجريدة العربية بالمغرب لا يتوقف فقط على الإجراءات الضرورية من وضع الضمانة المالية، بصندوق الدولة، وطلب الإذن من المراجع العليا، بل إن الحصول على ذلك الحق مقيد بمشيئة الإدارة إن شاءت سمحت، وإن شاءت لم تسمح دون أن تسأل عما تريد أو تفعل، أما الجريدة الفرنسية، سواء أكان صاحبها مغربيا أو أجنبيا فلا يتوقف الحق في إصدارها، على أكثر من الضمانة المالية، وتسجيل طلب الإنشاء، وبمجرد ما يمنح وكيل الدولة لصاحب الجريدة، توصلا بالتسجيل المذكور-وهذا يتطلب بضعة أيام فقط- تعتبر مؤسسة قانونيا، ولصاحبها الحق في إصدارها متى شاء".
7. عبد الهادي بوطالب، ذكريات ... ،ج1، م س، ص. 237.
8. أحمد بن سودة، "صفحات من تاريخ المغرب، تأملات، خواطر وذكريات"، الحلقة الثانية، جريدة *الحياة*،عدد 12943، الثلاثاء 11 غشت 1998.
9. رغم هذه الإمكانيات المحدودة، يقول عبد الهادي بوطالب، إن القائمين على الجريدة، اعتبروا أن ذلك فرصة العمر، أو حظا سعيدا، بعدما ضاقت بهم مسالك البحث عن مطبعة عربية، عبر المغرب الواسع. انظر عبد الهادي بوطالب، ذكريات ... ، ج2، م س، ص. 256.
10. يذكر عزالعرب الوزاني أن الورشة كانت بمكان صغير بشارع "بوتي جان" بالرباط. انظر عزالعرب الوزاني، حدثني والدي ، م س، ص 51. بينما يذكر عبد الهادي بوطالب، أن الورشة كانت غرفة بالبيت الذي أسكنه به الملك بحي تواركة بجوار القصر الملكي، إذ يروي أنه حول غرفة بذلك البيت إلى ورشة عمل للجريدة، أصبحت مستقرا لأحمد بن سودة، كلما حضر إلى الرباط حيث كانا يعملان فيها معا –بوطالب وبن سودة- على إعداد الجريدة. انظر عبد الهادي بوطالب، ذكريات ... ،ج. 2، م س، ص. 256.

المغربيـة للنقـل "السـتيام"، التـي كانـت علـى مقربـة مـن المطبعـة"[11]، كمـا ذكـر أحمـد بـن سـودة، المتفـرغ الوحيـد لشـأن الجريـدة، أن ثقلهـا كـان عليـه لمـا كتـب فـي هـذا الصـدد قـائلا: "كنـت أحررهـا وأسـهر علـى طبعهـا وأتـابع نشـرها وتوزيعهـا ... وكنـت إلـى جانـب التحريـر والوقـوف بالمطبعـة علـى كـل صـغيرة وكبيـرة، حتـى يـتم توضـيب كـل الصـفحات بالشـكل الـذي أرتـاح لـه، أقـوم بعمـل إدارة بكاملهـا، مـن المـدير إلـى المحاسـب إلـى محصـل المبيعـات"[12]، كمـا كـان فـي تنقلاتـه بـين المـدن، مـن أجـل مصـالح الجريـدة، يمـزج الأمـر بمهـام حزبيـة فيجـري اتصـالات مـع المناضـلين ويتعـرف علـى قضـايا الحـزب ويبلـغ مـا حمـل مـن تعليمـات، قبـل أن يقفـل راجعـا إلـى مقرالجريـدة[13]. وقـد شـهد عبـد الهـادي بوطالـب علـى جـزء ممـا ذكـره زميلـه بـالقول، إن "أحمـد بـن سـودة كـان يعمـل خـارج الربـاط بمفـرده كجهـاز كامـل لتـأمين مـال الجريـدة وتركيـز بيعهـا ورفـع حجم اشتراكاتها عبر المغرب"[14].

ويظهـر أن تمـرس أحمـد بـن سـودة بالإشـراف علـى الجريـدة أكسـبه تجربـة جعلتـه العـارف بأسـرارها وبـأمور سـيرها والقـادر الوحيـد علـى ضـبط شـؤونها، لدرجـة لـم تسـتطع معهـا شـكوك حـول ذمتـه الماليـة أن تقصـيه عـن المسـؤولية. فـرغم إبعـاده بسـبب تلـك الشـكوك وتعيـين عبـد الهـادي الشـرايبي مسـؤولا إداريـا وماليـا، فإنـه سـرعان مافرضـت عودتـه نفسـها لمـا عجـز المسـؤول الجديـد عـن الاسـتمرار فـي مهمتـه فتخلـى بـداعي صـعوبة الاتصـال بـالموزعين، مقـرا بـأن "أحمـد بـن سـودة هـو المـدير والمحصـل المـالي والمحاسـب، وهـو الـذي يعـرف كيـف يسـتوفي حقوق الجريدة من المسؤولين عن بيعها"[15].

ولـم تكـن الصـعوبات الماليـة أقـل تـأثيرا علـى الجريـدة مـن المشـاكل اللوجسـتيكية، فقـد عـانى حـزب الشـورى والاسـتقلال متاعـب ماليـة بخصـوص جريدتـه لـم يتغلـب عليهـا إلا بفضـل الأنصـار والمتطـوعين، إذ كانـت أهـم المـداخيل هـي اشـتراكات المشـتركين، فعليهـا اعتمـد استرسـال

11. المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
12. يستمر بن سودة، في مذكراته، في شرح المهام التي كان يقوم بها بخصوص الجريدة بقوله: "ففي كل شهر كنت أقوم بجولة في المدن للاتصال بالمسؤولين عن توزيع الجريدة وبيعها، وأغلبهم كانوا مسؤولين حزبيين، لم تكن عندي سيارة خاصة... فكانت وسيلة النقل شركة الحافلات "الستيام"، وعندما أصل إلى مدينة ما، فإن الفندق الذي أقيم فيه هو بيت المسؤول عن توزيع الجريدة، وكان عليه إذا أراد أن أكون ضيفا خفيفا وظريفا، أن يسرع بسداد ما بذمته من محصول ... فأسلمه وصلا يثبت سلامة ذمته، وأجمع الإيراد معدا ومرتبا أوراقا وقطعا نقدية في محفظة كانت بنكا وخزانة طعام ولباس، في نفس الوقت". انظر أحمد بن سودة، "صفحات من تاريخ المغرب، تأملات، خواطر وذكريات"، الحلقة الثانية، جريدة *الحياة* ، عدد 12943، الثلاثاء 11 غشت 1998.
13. أحمد بن سودة ، "صفحات من تاريخ المغرب، تأملات، خواطر وذكريات"، الحلقة الثانية، م س.
14. بوطالب ، ذكريات ... ،ج. 2، م س، ص. 258.
15. أحمد بن سودة، صفحات من تاريخ المغرب... ، الحلقة الثانية ، م س.

الصـدور[16]. وبحكـم أن المطبعـة كانـت تفـرض أداء ثمـن العـدد قبـل تسـلمه، تزايـدت متاعـب المسـؤولين، حيـث كـان احمـد بـن سـودة مضـطرا، بـين الفينـة والأخـرى، إلـى أن "يطـوف بنـواحي المغـرب بحثـا عـن المـال الـلازم لتـأمين طبـع العـدد اللاحـق"[17]. ومـن الوسـائل التـي مارسـها الحـزب لتوسـيع مـداخيل الجريـدة، اللجـوء إلـى أسـلوب "البيـع النضـالي"، إذ بـاقتراح مـن عبـد القـادر بـن جلـون، نائـب الأمـين العـام، حمـل أعضـاء المكتـب السياسـي أعـداد جريـدة *الـرأي العـام* مـن المطبعـة وتفرقـوا بهـا فـي شـوارع الـدار البيضـاء لبيعهـا. ورغـم أن المبـادرة لـم تكـن ابتكـارا فإنهـا سـاهمت فـي الدعايـة للحـزب وللجريـدة رأى فيهـا الـبعض عمـلا جريئـا ومثيـرا "كـان حـديث الساعة وحديث الناس"[18].

ويظهـر أن مراقبـة الـوزاني للجريـدة، شـكلا ومضـمونا، كـان لـه الـدور الواضـح فـي أن تتبـوأ مكانتهـا. فقـد كـان يتتبعهـا بحـزم ولا "يسـكت حتـى عـن الكلمـة أو الحـرف أن يكونـا فـي غيـر موضـعهما"[19]، كمـا كـان يبعـث لهيئـة التحريـر، كلمـا صـدر العـدد، "بسـيل مخطـوط مـن الملاحظـات، فـي سـعي منـه إلـى الإتقـان وحرصـا علـى أن تكـون الجريـدة، حسـب تعبيـره، مشـرفة"[20]. ولعـل تدخلاتـه تلـك سـاهمت فـي أن تكـون جريـدة *الـرأي العـام* فـي مسـتوى مثيلاتهـا، بل "كانت تعتبر من أرقى جرائد ذلك العهد"[21].

فقـد عمـل محمـد بـن الحسـن الـوزاني علـى أن يجعـل مـن جريـدة *الـرأي العـام* النـواة الصـلبة لفكـره ولحزبـه، لـذلك سـهر علـى أن تكـون نقطـة تجمـع ونشـر الأفكـار ونقطـة التقـاء الأنصـار والمتعـاطفين وأداة الدعايـة وتوسـيع مجـال الإيديولوجيـة الليبراليـة، إضـافة إلـى نشـر الإيديولوجيـة الوطنيـة بهـدف التصـدي لنظـام الحمايـة والكفـاح مـن أجـل اسـتقلال الـبلاد. ولعـل اسـم الجريـدة وشعاراتها ومضامين مقالاتها تبين هذه الأهداف بشكل جلي[22].

---

16. جاء في أحد الإعلانات التي وزعها القائمون على الجريدة بتاريخ 15 لأبريل 1952: "وهي في كفاحها الشاق لا تعتمد إلا على المواطنين المخلصين، لذلك فهي ترجو منكم أن تعجلوا بتسديد اشتراكاتكم عن السنة السادسة، حتى يتسنى لها أن تتفرغ لمواصلة الكفاح، ولنا الثقة الكبيرة في وطنية الشعب المغربي". اطلعنا على نسخة من هذا الإعلان بأرشيف مؤسسة محمد حسن الوزاني.
17. عبد الهادي بوطالب، ذكريات ... ،ج. 2، م س، ص. 257.
18. المصدر نفسه، ص. 281.
تعرف المغاربة الذين درسوا بفرنسا، على طريقة "البيع النضالي"، للصحافة من خلال تجربة الحزب الشيوعي الفرنسي، وقد مارس بعضهم العملية بفرنسا، وباع الجرائد في الشوارع، خاصة جريدة *لومانيتي*.
19. عبد الحي حسن العمراني، *أبطال الوطنية ،الكتاب الثاني، أحمد بن سودة*، م س، ص. 79.
20. بوطالب، ذكريات ... ،ج. 2، م س، ص. 237.
21. المصدر نفسه، والصفحة نفسها.
22. د . تودورف ، *تاريخ الصحافة العالمية*، م س، ص. 48.

فمفهوم "الرأي العام" يحيل على مرحلة في تاريخ التحرر البشري وتاريخ إقرار مبدأ سيادة الشعب، حيث ارتبط ظهوره بكتابات مفكري القرن الثامن عشر من أنصار التوجه الليبرالي الديموقراطي المبني على الحقوق والحريات وعلى أفكار الثورة الأمريكية والثورة الفرنسية التي كان الوزاني أحد المتأثرين بها، كما يحيل تطوره على ظهور الصحافة الليبرالية وعلى اكتساب الجرائد، مع الثورة الأمريكية، مكانة المعبر الوحيد عن الرأي العام ويحيل على تعميق هذا الدور مع الثورة الفرنسية التي يؤرخ بها وبظهور مفهوم "الرأي العام" لميلاد الصحافة الدورية الفرنسية وميلاد الجريدة الفرنسية[23]، وعلى التطور الذي عرفته وسائل الاتصال والإعلام في القرن التاسع عشر ودورها في المطالبة "للرأي العام" بأن يصبح صاحب السطوة والسلطان الحقيقي في الدولة، مثلما يحيل على ترسيخ هذا التطور في القرن العشرين وما عبر عنه من آمال في تحقيق مطلب إشراف الشعب على حكم الدول. ولا نشك في أن تكون مرامي الربط بين "الصحافة" وبين "الرأي العام"، حاضرة في ذهن الوزاني لحظة اختياره إسم جريدة حزبه.

وفي باب المفهوم، يفرق الوزاني بين الرأي الخاص أو الفردي ورأي ذوي المصالح الخاصة، وبين "الرأي العام"، فيعرف الثاني بأنه **رأي** "الجمهور والسواد الأعظم من الأمة وبأنه مجموع الإرادات الفردية التي تتكون من جميعها الإرادة المشتركة أو إرادة الجماعة ... [التي] تدل على قوة شخصية الأمة وشعورها بكيانها وإيمانها بحقها في الوجود"[24]. ومن إيمانه بالتطور، يرى أن الرأي العام لا يتبلور جماعة ولا دفعة واحدة، وإنما يبدأ ظهوره في شكل بسيط عبارة عن سانحة و خاطرة وفكرة سريعة قد يمليها مجرد الشعور والهوى، وهي الحالة التي يكون فيها هذا الرأي مؤقتا وغير ثابت، على أنه بعدما يفعل العقل والروية والنقد والتمحيص فعله في هذا الرأي فإنه يتحول إلى رأي صحيح، فيصبح معتقدا وإرادة[25]، أي رأيا عاما. وفيما يخص المغرب يحدد الوزاني، الرأي العام، بأنه "مجموع العناصر المغربية التي لها رأي أو تستطيع أن تكون رأيا في جميع قضايا البلاد"[26]، كما يحدد أن أهم العناصر، التي يقصد، وأنشطها يوجد داخل الأحزاب المغربية، كما يوجد بعضها خارج الأحزاب[27]. ومن خلال هذه التعاريف نستنتج أنه كان مع تعدد الرأي العام وليس مع واحديته، فهو لا يقصد به

23. المرجع نفسه، ص. 40.
24. محمد حسن الوزاني، "الرأي العام" ، م س.
25. المصدر نفسه.
26. من الندوة الصحفية التي عقدها الوزاني بالدار البيضاء بتاريخ 10 فبراير 1951، م س.
27. المصدر نفسه.

جميع الأفراد وإنما مجموعة من الآراء التي تؤمن بها جماعة من الناس إزاء الأمور التي تؤثر في مصالحها العامة والخاصة، إلى جانب رد فعل هذه الجماعة حول أمر من الأمور في وقت من الأوقات. ومن هنا يصبح "الرأي العام" هو اتفاق جماعة من الناس حول موقف من حدث معين أو فكرة أو نظرية معينة أو قضية معينة، فيكون بذلك "الرأي العام" في البلد رأيا متعددا وليس محتكرا من طرف فئة أو جماعة بعينها. ويتبين هذا الموقف بوضوح في أحد تصريحاته الصحفية بالقول: "ونحن بصفتنا حزبا ديموقراطيا، كنا ولا نزال نقاوم كل احتكار للرأي في البلاد ونعتبر أن لكل مغربي كامل الحق في إبداء رأيه في القضايا المغربية العامة بالوسائل المشروعة، لأن هذه القضايا تهم أمة بأسرها وليست من اختصاص طائفة من الشعب دون أخرى"[28]. ولعله في مثل هذه التصريحات، كان يرغب في توضيح العلاقة الجدلية بين "الرأي العام" و "الأحزاب الوطنية السياسية"، وكيف أن الحزب السياسي هو نتيجة لبنية الرأي العام في البلد، كما أن بنية الرأي العام هي نتيجة لأفكار الأحزاب ونظامها. ومهما كان الأمر، فقد كان يربط –من جهة أخرى – بين حرية الفكر وحرية الجهر به بجميع الوسائل وبين ظهور الرأي العام، ويرى في هذا الباب أن الرأي العام يشكل "في عصر الحرية والديمقراطية سلطة معنوية رهيبة، يخشاها الناس وتحسب لها الحكومات ألف حساب"[29]، كما كان يربط بين تطور الرأي العام وبين درجة الرقي بالعلم والتربية والنظام في الأمة، وكذلك بين عظمة شأن الرأي العام ووجود الشخصيات القوية الحرة المستقلة في المجتمع، إذ كان يرى أن مثل هذه الشخصيات هي القادرة على تقوية رأي الجماعة[30]. ومن كل هذا كان يربط بين الرأي العام وبين الثوابت الفكرية والإيديولوجية التي سطرها لحزبه كالإيمان بدور التربية والتعليم في ترقية المجتمع والإيمان بالحرية وبدور النخبة في المجتمع.

ومثلما كان اختيار اسم "الرأي العام" لسان حال الحزب ذو مغزى صحفي ليبرالي واضح، كان كذلك ذو مغزى له علاقة بإيديولوجية وبرنامج حزب الشورى والاستقلال. فكان من مقاصد الإسم، تمييز الجريدة وفكر صاحبها عن الغير. وفي هذا الباب، دفعت رغبة المساهمة في خلق رأي عام له سلطة المراقبة على الحكم والطموح إلى خلق جريدة تعبر عن آلام وآمال الشعب، إلى التزام نوع من التعبئة للنضال من أجل الاستقلال والديمقراطية، بما يعنيه ذلك من إيمان بأن الاستقلال آت ومن إيمان بضرورة أن لا يكون ذلك الاستقلال غنيمة تستفيد منها

28. نفسه.
29. محمد حسن الوزاني، "الرأي العام"، م س.
30. المصدر نفسه.

أقلية قيادية أو فئوية على حساب الشعب بأجمعه[31]. وإلى جانب هذا تضمن اسم الجريدة نوعا من النزعة الدستورية البرلمانية، حيث يجيب مفهوم "الرأي العام" بوجه من الوجوه على سؤال من من حقه صياغة أو وضع دستور للمغرب يعكس بحق عمق تطلعات المغاربة[32].

ولعل الشكل الذي كانت تصدر به الصفحة الأولى من الجريدة يختصر الكثير من هذه التصورات والأهداف. فقد كتب اسم الجريدة بخط عريض بارز تتوسطه النجمة الخماسية شعار المغرب داخل صورة مجلس نواب بمقاعد مملوءة بممثلي الشعب، صحبة شعارين أحدهما آية قرآنية تؤكد على ضرورة الحوار والتشاور وتلغي أي احتكار أو استبداد بالرأي هي : "وأمرهم شورى بينهم" وقولة مأثورة عن الخليفة الثاني في سلسلة خلفاء الرسول الراشدين، عمر بن الخطاب، تعترف لبني الإنسان بالحرية وتلغي استعباد البعض للآخر هي: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا"، وتحت صورة قاعة البرلمان كتب التعريف بأن الجريدة هي لسان حال حزب الشورى والاستقلال، والتي حذفتها الرقابة في كل الأعداد، ولم تبق سوى كلمة "لسان"، وأمامها بين مزدوجتين "حذفته الرقابة".

وبارتباط مع كل هذه المعطيات، يظهر أن اسم "الرأي العام" كان كذلك من ضمن مختصرات برنامج حزب الشورى والاستقلال، كما وضعه الوزاني، وتمييزا له، عن غيره من الأحزاب الوطنية وخاصة حزب الاستقلال، فباختيار هذا الأخير لجريدته الناطقة باسمه، اسم *العلم*، التي تحيل على الراية واسترجاع السيادة، كان يختصر برنامجه في الاهتمام بالاستقلال وتحرير السيادة، بينما كان اسم *الرأي العام*"، لسان حزب الشورى والاستقلال، يرمز إلى تحرير سيادة الشعب عن طريق تعزيز سلطة الرأي العام[33]، بما يعنيه ذلك من مزج بين الاستقلال والديمقراطية. وعلى العموم، فمن يتصفح جريدة *الرأي العام* في السنوات الأولى من صدورها، يلاحظ كيف أن مفهوم "الرأي لعام" على صفحاتها كان يوظف في إطار أوسع من مفهوم الشعب في معناه الانتخابي[34].

وقد اعتبر الوزاني صدور جريدة *الرأي العام* سنة 1947 فتحا جديدا، ليس في عالم الصحافة المغربية فحسب، بل في تاريخ النهضة القومية المغربية، كما اعتبر تلك الجريدة رتبة في

31. انظر عبد الهادي بوطالب، ذكريات ... ،ج. 2 ، م س، ص. 255.
32. المصدر نفسه والصفحة نفسها.
33. نفسه والصفحة نفسها.
34. انظر تأكيد الأمر لدى عبد الهادي بوطالب، نفسه، ص. 254-255.

صحافة المعارضة الوطنية السياسية التي فرض عليها الغياب منذ حوادث سنة 1937[35]. أما إسم الجريدة، فاعتبره فاصحا عن حقيقة أمرها ودالا على خطتها ومنهجها.

وإذا كان الوزاني يؤكد على وجود "رأي عام مغربي"، فأنه كان يرى بأنه "ما زال لم يبلغ شأن الرأي العام في كل أمة حرة مستقلة"[36]، كما كان يحمل مسؤولية ذلك النقص إلى مجمل الوضع تحت سيطرة نظام الحماية، والمتميز بما سماه "القيود العسفية والشروط الإرهابية". فهي في –رأيه- التي تضيق الخناق على الرأي العام المغربي وهي التي تعرقل سيره وتكبث صوته وتهيض جناحه[37]. وتجعل بالتالي أن لا إمكانية في أفق استكمال النمو الذاتي والظفر بالحق تاما غير ناقص وأداء المهمة في المجتمع، سوى بتحطيم قيود العسف ورفع شروط الإرهاق[38].

ومساهمة في الرقي بالرأي العام المغربي مرحلة النضج ومن منطلق إيمان الوزاني بالدور الذي على الأحزاب الوطنية أن تقوم به في هذا الشأن، جعل من بين مهام جريدة *الرأي العام* إغناء وتنمية الفكر السياسي الليبرالي وتقويته في المجتمع وخلق نوع من الثقة بالنفس في صفوف المؤمنين به واستقطاب أنصار جدد إلى جانبه من اجل تمتيعه بسلطان واضح في المجتمع وصهره في عائلة فكرية يعول عليها. واعتمادا على هذه الرغبة التكوينية والتوجيهية، كانت صفحات الجريدة حريصة على إظهار أفكار الشورى والديمقراطية والملكية الدستورية والدستور والبرلمان والحريات ... والدعاية لتعاليم الإسلام التي تلتقي أو يمكن أن تلتقي مع الفكر الليبرالي وكذا الدعاية للأنظمة الغربية الديمقراطية وإظهار عدم تعارضها مع الإسلام وعقيدته. وبما أن المساهمة في رفع المدارك السياسية لعامة الناس وخلق رأي عام مغربي ناضج كانت أحد أهداف الجريدة، فقد كان العديد من مقالاتها مهتما بمطلب حرية التعبير وضمانه، وبتزويد المغاربة بكل ما يحتاجونه من حقائق ومعلومات حول الواقع تحت شعار "خدمة الصالح العام المغربي بكل نزاهة وإخلاص وشجاعة وإقدام وثبات ووفاء"[39]، بما يفرضه ذلك من الصدع بالحق والمطالبة به[40].

35. محمد حسن الوزاني، "الرأي العام" ، م س.
36. المصدر نفسه.
37. نفسه.
38. نفسه.
39. نفسه.
40. نفسه.

فقد كان الوزاني ضد التحدث "نصف حديث" وضد التعبير عن "حقيقة دون أخرى" وكان شعاره "الجهر بالحق والتعبير عن الرأي"[41] بكل صراحة، مؤمنا بمبدأ "الحق فوق القوة والأمة فوق الحكومة"، محددا خصوم حزبه وجريدته في من نعتهم "خصوم الشعب وأعداء الإصلاح وزعانف الرجعية وسماسرة الدين وأدعياء الواجب"[42] وملتزما بأنه سيكون لهم بالمرصاد. وبهذا اصطف حزبه وجريدته في المعارضة التي نعتها بأنها "معارضة سياسية وطنية"[43] ومعارضة "باسم الشعب ولصالح الشعب وحده"[44]، كما جعل شعارها قولة لرابع الخلفاء الراشدين علي ابن أبي طالب تقول: "لا يقيم أمر الله إلا من لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع"[45]. ولم يلتزم الوزاني – باسم الجريدة – بالصدع بالحق، إزاء الحاكمين فقط، بنقد سوء تصرفهم والاحتجاج على باطل سياستهم ومطالبتهم بما فيه مصالح الشعب، وإنما التزم بلعب نفس الدور إزاء الأمة، انطلاقا من الإيمان بضرورة عدم التكتم على ما يعتقده أنه الحق والصواب والمصلحة وما وجب المناداة به في سبيل الخير العام وانطلاقا من ضرورة الإيمان بالإصلاح، أو –على الأقل– التشنيع بالفساد في المجتمع[46].

الخلفية الصحفية للجريدة

شكل الإعلام الحزبي وسيلة رئيسية لدى الوزاني لإبلاغ الأفكار والمواقف لأنصاره وغيرهم. ولما صدرت جريدة *الرأي العام* حرص على تعزيزها بمنشورات موازية، كان من أبرزها كتيبات حملت اسم *دفاتر المغرب* أو *كراسات المغرب* (Les cahiers du Maroc)، التي كانت توزع داخل البلاد وفي أوربا وأمريكا والبلاد العربية لكشف حقائق الواقع المغربي تحت الحماية الفرنسية.

وقد ارتبطت الخلفية الصحفية، لصدور جريدة *الرأي العام* ومسارها بشخص مؤسسها، وهوصاحب تكوين صحفي إلى جانب ميول صحفية منذ تفتق وعيه السياسي، وصاحب تجارب صحفية سابقة على أعمدة مجلة *الأمة العربية* التي كان يصدرها الأمير شكيب أرسلان من جنيف ومجلة مغرب التي كان يصدرها روبير جان لونكي من باريس، وجريدة *لاكسيون دو بوبل* (*عمل الشعب*) التي كان له الدور الأساس في صدورها وتوجيهها كأول لسان حال

41. محمد حسن الوزاني، "رسالة مفتوحة"، *الرأي العام*، السنة 5، عدد 233، فبراير 1952.
42. محمد حسن الوزاني، "الرأي العام"، م س.
43. محمد حسن الوزاني، "سياسة إرهاب ومتمنيات"، *الرأي العام*، عدد 51- 14 أبريل 1948.
44. محمد حسن الوزاني، "الرأي العام"، م س.
45. المصدر نفسه.
46. نفسه.

للحركة الوطنية من داخل المغرب، ثم جريدة *الدفاع* لسان حال الحركة القومية، إضافة إلى المقالات التي كان يسرب من منفاه إلى بعض المجلات الثقافية العربية. وهي تجارب أكسبته مراسا قويا كان وراء شبه إجماع من قبل الوطنيين حول مكانته الصحفية[47]، ووراء ترديد أنصاره بأن مقالاته **كانت تمشي بها الركبان**. ويظهر أن اهتمامه الكبير بالصحف وبالمقالة الصحفية، كان أحد الأسباب التي جعلت إنتاجه الفكري متداخلا مع إنتاجه الصحفي، اللهم إذا استثنينا بعض ما ألفه أو ترجمه من كتب أيام المنفى .

لقد كان الوزاني يرى شأن الصحافة في الأمة أنه شأن « عظيم »، ويرجع ذلك لمهامها الكبيرة في المجتمع ورسالتها الفريدة في الشعب، وكذلك لمسئوليتها "أمام نفسها وأمام القانون والرأي العام"[48]. إذ مثلما كان يدافع عن حقوق الصحافة كان يؤكد على واجباتها، ويميز في هذا الإطار بين الصحف الجيدة التي شبهها بـ**الأشجار الباسقة المثمرة**، وبين التي كان يشبهها بـ**النباتات الطفيلية**. فقد كانت العديد من الصحف ـ في رأيه ـ لاتمت إلى الصحافة بأي صلة، وإن حسبت نفسها من أسرتها. وميز هذا النوع من الصحافة بعدد من الصفات، منها أنها "لا تقوم بمهماتها خير قيام ولا تؤدي رسالتها أحسن أداء ولا تقدر مسؤوليتها حق قدرها ولا تحترم نفسها ولا غيرها"، وأنها تبني مواقفها على أغراض خاصة فردية أو طائفية إما مباشرة أو بطريقة ملتبسة "ترتدي لباس الفضل والتقوى والنصيحة والصلاح"[49]، وما شابه ذلك من صفات تجعل هذه الجرائد ـ حسب رأيه ـ مسيئة لسمعة الصحافة ومشوهة لحقيقتها[50]. وفي هذا العينة من الصحف ذكر جريدة *لابطاي*، التي وصفها بأنها "اشتهرت بسفهها وخستها وإسفافها"[51] والجريدة الرسمية التي رأى في حقها أنها "تصدر في المغرب ناقصة، هزيلة، مسيخة"[52]. ويأخذ الوزاني على هذه الصحافة، الطريقة التي تتناول بها القضية المغربية، والتي وصفها بغياب النزاهة ونزعة الاستغلال والاستعمار. فقد تبين له كيف أن تلك الصحافة قلما "تبرهن على علم ودراية وخبرة وبصيرة ونزاهة وإنصاف"، مبرزا، كيف أن حديثها يتحكم فيه "الغرض والشهوة بشكل يجعل مقالاتها تنقاد في خطتها للعصبية الجنسية والنعرة الاستعمارية والنزعة الإبليسية"[53]. ومنه كانت أكبر المآخذ التي أخذها على طريقة معالجة

47. يدل على ذلك إشارات الإعجاب بقدرات الوزاني الصحفية المتضمنة في مذكرات الوطنيين بمختلف مشاربهم.
48. محمد حسن الوزاني، "خض الغمرات للحق حيث كان، حركتنا بين القذف والوعيد"، *الرأي العام*، السنة الأولى، العدد 4- 7 ماي 1947.
49. المصدر نفسه.
50. نفسه.
51. محمد حسن الوزاني، "في سبيل الدستور!"، *الرأي العام*، السنة الأولى، العدد 18- 20 غشت 1947.
52. محمد حسن الوزاني، "فضائح مالية في ميزانية الدولة بفرنسا والمغرب"، *الرأي العام*، السنة الأولى، العدد 88- 4 يناير 1949.
53. محمد حسن الوزاني، "في سبيل الدستور!"، م س.

أغلب الصحف الفرنسية للقضية المغربية هي الجهل بحيثيات القضية وغياب الموضوعية. وهي أحد الأسباب التي ضاعفت ـ كما قال ـ من مهمة الصحافة الوطنية المغربية.

وفي إطار الرد على الصحافة الاستعمارية المتحاملة، تحاشى الوزاني أسلوب المزايدة معتمدا بديله أسلوب التصحيح وبسط الحقائق، بقناعة ترى أن "قضية المغرب قضية شرعية عادلة، لا تحتاج إلى أن يخدمها أهلها بغير الصدق والحقيقة"[54]، كما ترى أن خدمة الحقيقة من طرف الصحافة الوطنية، لا تنحصر في مهمة الإخبار وإنما تتجاوزها نحو "الشرح والتعليق بما ينفع الجمهور"[55] ونحو "مراقبة الحكومة ومحاسبتها على تصرفاتها"[56]. ذلك أن الصحافة السياسية الحرة تقوم ـ في رأيه ـ في أوساط الأمة التي "تحرم من حق الشورى الشعبية الصحيحة" مقام المجالس والمؤسسات الديمقراطية وتلعب دور "الترجمان الصادق" للرأي العام، و"أداته الوفية"[57]. ومن هذا المنظور، ومن منطلق تصنيف المجالس التمثيلية، القائمة آنذاك بالمغرب، مجالس صورية، أكد على ضرورة أن تعمل الصحافة الوطنية المغربية" كل ما في وسعها ...لتعوض الأمة في خدمة صالحها العام"[58].

ومثلما جعل مؤسس حزب الشورى والاستقلال الصحافة قائمة مقام المجالس التمثيلية، جعلها أحد أعمدة نظام "الشورى"، وأحد أعمدة المدنية الحديثة، إذ تقوم هذه المدنية ـ في رأيه ـ "على الديمقراطية، والدستور والصحافة"[59]. ومن هذا الرأي أولى أهمية كبرى لحرية التعبير ودور الحاكمين والمحكومين في ضرورة الاهتمام بها، فبلغ تقديسه للرأي وحرية التعبير عنه بالقلم واللسان أن اعتبره هو ما يمتاز به الإنسان عن الحيوان[60]. وفي وضع المغرب، عهد الحماية، كان يرى أنه "لا يوجد غير الصحافة أداة للتعبير عن ذلك الرأي"، رغم الرقابة[61]، بسبب غياب أدوات أخرى غيرها.

---

54. محمد حسن الوزاني، "حول تصريح المسيو فلوري. متى تطبق فرنسا دستورها الجديد؟"، *الرأي العام*، السنة الأولى، العدد1، الأربعاء 16 أبريل 1947.
55. محمد حسن الوزاني، "إنما العز بالحرية"، *الرأي العام*، السنة الثالثة، العدد 134، 23 نونبر 1949.
56. محمد حسن الوزاني، "الرأي العام"، جريدة *الرأي العام*، السنة الأولى، العدد 1، الأربعاء 16 أبريل 1947.
57. المصدر نفسه.
58. محمد حسن الوزاني، "فضائح مالية في ميزانية الدولة بفرنسا والمغرب"، *الرأي العام*، السنة الأولى، العدد 88- 4 يناير 1949. *الرأي العام*- السنة 3- العدد 97- 6 ماي 1949
59. محمد حسن الوزاني، "دعوا الشعب يقول كلمته، فلا خير فيه إذا لم يقلها لكم ولا خير فيكم إذا لم تسمعوها منه."، *الرأي العام*، السنة الثالثة، العدد 107- 15 يوليوز 1949.
60. محمد حسن الوزاني، كتاب مفتوح إلى الجنرال جوان ...
61. من الندوة الصحفية التي عقدها الوزاني بالدار البيضاء بتاريخ 10 فبراير 1951. انظر نصها بجريدة *الرأي العام*، عدد 186، 16 فبراير 1951.

وقد كان الوزاني يؤمن بضرورة خطأ كل عامل أو مسؤول في الميدان العام أو تقصيره، فالخطأ والتقصير واقع لا يرتفع، إلا أنه كان يؤمن، مقابل ذلك، بعدم سمو أي فرد أو حزب عن التجريح والتشريح والنقد والحساب والنصح والتقويم. وبناء على هاتين القناعتين، كان يرى أن من واجب الصحافة أن تكون بالمرصاد لكل المسؤولين، تنتقدهم وتحاسبهم **في سبيل الصالح العام**، وهي مهمة رئيسية ــ في رأيه ــ إذا تخلت عنها الصحافة، "تكون شريكة كل عامل أو مسؤول فيما يأتيه من فساد أو تقصير، وفيما يرتكبه من خطأ ومسؤولية"[62]، كما أنها مهمة منطقية وعقلانية، إذ ليس "من الحكمة أن تخطئ السياسة، ولا تبيح لأحد أن ينتقد خطأها، ولا تسمح له بأن يتقدم لها بالنصح والإشارة"[63].

مضامين المقالات

وبما أن القضية المغربية كانت في نظره قضية سياسية في العمق والظاهر، فإن موضوع السياسة وموضوع الحماية كانا مهيمنين على صفحات جريدة *الرأي العام*، إذ اهتمت مقالاتها بفضح مختلف الممارسات التعسفية لنظام الحماية، ودافعت عن حقوق المغاربة. ومثلما طالبت تلك المقالات بالحرية والاستقلال واسترجاع السيادة الوطنية، طالبت بإقامة نظام سياسي مبني على الشورى، معزز بدستور ينظم الحياة السياسية. ولم تكن الجماهير المغربية غائبة عن اهتمامات الجريدة، إذ كانت هدفا رئيسيا في خطها، فاهتمت بتوعيتها وإقناعها بمبادئ الديموقراطية، مكرسة جزءا من جهودها، لتكوين الجمهور المغربي تكوينا سياسيا، كما اهتمت بشؤون المغاربة على مختلف المستويات الاقتصادية والاجتماعية، ملفتة الانتباه إلى أوضاع الفلاح والعامل، وأوضاع المرأة والشباب، إلى جانب الاهتمام بأوضاع مختلف الأقاليم، من خلال مراسلات المراسلين بمختلف الجهات. ولربط المغاربة بمحيطهم العربي والإسلامي، اهتمت المقالات وقصاصات الأخبار التي نشرتها بالعالم العربي والإسلامي، وشكلت القضية الفلسطينية أحد المحاور الكبرى، ضمن هذا الاهتمام، كما تتبعت الجريدة المثير والجديد من الأخبار العالمية.

وكان عدد الذين كتبوا مقالات العدد الأول، من جريدة *الرأي العام* حوالي خمسة كتاب فقط[64]، إلا أن العدد سرعان ما بدأ في التزايد مع الأيام ومع تطور الجريدة، حيث ارتفع عدد

62. محمد حسن الوزاني، "كلمة صريحة وموقف واضح"، *الرأي العام*، العدد 188، الجمعة 2 مارس 1951.
63. محمد حسن الوزاني، كتاب مفتوح إلى جنرال جوان ...، م س.
64. هؤلاء كما ذكرهم عبد الهادي بوطالب هم: محمد حسن الوزاني، وعبد الهادي الشرايبي، ومحمد بن عبد الله، وادريس الكتاني، وعبد الهادي بوطالب.
عبد الهادي بوطالب، ذكريات...،ج. 2 ،م س، ص. 261.

المشرفين على الأبواب والأركان الثابتة، كما ارتفع عدد كتاب المقالات السياسية والوطنية والاجتماعية[65]. وكان أغلب محرري المواد الصحفية متطوعين، لم يسعوا من وراء مساهماتهم إلى تحقيق أي كسب مادي[66]. وبين الأبواب الثابتة بالجريدة، والتي كانت متعددة مثل ركن الشباب وركن المرأة وركن العامل والركن الثقافي...، اشتهرت افتتاحيات الوزاني، التي كانت تنشر تحت اسم "الغمرات"، والمقال الذي كان ينشره أحمد بن سودة، دون توقيع، تحت اسم "حديث المفتي". وقد كتب أحمد بن سودة بأسلوب مغاير، قريب من أسلوب المقامات في الأدب العربي، عمد فيه إلى التورية وإضغام المعاني، واستعان بالسجع لإخفاء المرامي عن طريق الرمز قاصدا تعمية الرقيب، من جهة، وإثارة الحس التراثي اللغوي والأدبي لدى أكبر عدد من القراء، من جهة أخرى[67]، فجاء لون "الحديث" كاريكاتوريا ساخرا ميالا إلى النقد التهكمي[68]. وكانت المواضيع التي يتناولها أحمد بن سودة في هذا الركن، هي نفس المواضيع التي يهتم بها حزب الشورى والاستقلال عامة، بل إن المطلع على مضامين "حديث المفتي"، لا بد أن يلاحظ بعض التطابق بين ما كان يتناوله الوزاني حول الحماية والديموقراطية والدستور ومجلس شورى الحكومة ... وغيرها، وبين عدة حلقات من سلسلة ابن سودة، لدرجة يظهر معها وكأن هذا الأخير وضع من بين مهامه إبلاغ نفس الخطاب إلى نوع آخر من الجمهور، أي الجمهور الميال إلى الأسلوب المبسط والأسلوب الفكاهي[69]. ولعل هذا الأسلوب ـ كما ذهب إلى ذلك بعض الشوريين ـ وفر لجريدة *الرأي العام* إضافة ثانية، إلى جانب افتتاحيات الوزاني، لعبت دورا في الرفع من مبيعاتها[70]. إذ سرعان ما شغف جمهور كبير بقراءة تلك الأحاديث[71] وأصبح لأسلوبها صداه البعيد[72]، الذي صوره ــ فيما بعد ــ صاحب الركن، بأنه "أثار ضجة في أوساط المواطنين، فارتفعت بشكل مذهل مبيعات الجريدة"، كما صور الإقبال على الجريدة ـ بسبب هذا الركن ـ بقوله أنه كان "يتخاطفها الناس، وتقرأ النسخة الواحدة منها مآت المرات، ويجتمع الناس في المقاهي حول من يقرأ لهم "حديث

65. من الذين تكررت أسماؤهم كثيرا: محمد حسن الوزاني، وأحمد بن سودة، وعبد الهادي الشرايبي، وأحمد معنينو، وادريس الكتاني، وعبد الهادي بوطالب، ومحمد العربي الخطابي، وعبد الحي العمراني، ومحمد بن الحسن اليوسفي، ومحمد العربي العلمي، ومحمد العمروي، ومصطفى القصري، ومحمد فاصل بن الموقت، ومحمد الصقلي، ومولاي الطيب العلوي.
66. عزالعرب الوزاني، *حدثني والدي*، م س، ص. 52-53.
67. حسن المصمودي، *أحمد بن سودة في حديث المفتي مسيرة نضال وثبات*، الطبعة الثانية، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، 1987، ص. 28.
68. من رأي محمد العربي الخطابي في ركن "حديث المفتي"، انظر المرجع نفسه، ص. 84.
69. يذهب محمد العربي الخطابي إلى أن تقمص أحمد بن سودة، في ركن "حديث المفتي"، شخص المفتي، جاء نتيجة تأثره ببيئته الاجتماعية التي عرفت الكثير من العلماء والقضاة والمفتين، وتأثره بثقافته الأولى النابعة من القرويين، ومن مجتمع "فاس" ذي اللون والطابع المميزين.
70. انظر مثلا: عبد الحي حسن العمراني، *أبطال الوطنية ، الكتاب الثاني، احمد بن سودة*، م س، ص. 8.
71. من رأي عبد الهادي بوطالب في ركن "حديث المفتي"، انظر المرجع نفسه، ص. 50.
72. من رأي محمد العربي الخطابي ركن "حديث المفتي"، م ن، ص. 54.

المفتي"[73]، بل إن أحمد بن سودة، استمر يفتخر بكون الوزاني، كان يقول له ـ في تلك المرحلة ـ "إنك حينما تكسل أو يشغلك شيء عن كتابة حديث المفتي فأنت تعرض *الرأي العام* وقراءها لأزمة"[74]. وكيفما كان الأمر، فميل المغاربة، متعلمين وأنصاف متعلمين، لهذا النوع من الأسلوب ثابت[75]، ولا شك أن يكون ذلك قد لعب دورا في الهالة التي أحاطت بركن "حديث المفتي"، وفي جلب قراء جدد لجريدة *الرأي العام*، أو ـ ربما ـ استقطاب أنصار جدد لحزب الشورى والاستقلال.

أما افتتاحيات الوزاني، الموسومة بـ"الغمرات"، فتحتفظ ذاكرة الشوريين، - وغيرهم- إزاءها، بالأوصاف المثلى، فقد وصفوها أنها كانت بالنسبة لجريدة *الرأي العام*، "قوتها المعبرة عن أفكارها، وأن الشعب المغربي كان ينتظرها ... بتلهف ليعرف الحقائق، وليقرأ بخشوع ما يكتب الأستاذ الوزاني بقلمه العربي الصميم، وبأفكاره المتجددة"[76]، كما وصفوها بأنها مخمرات، كانت "تأخذ بألباب المغاربة الواعين، وتهز مشاعرهم أجمعين، وتطلق ألسنتهم لاهجين"[77]، بل إن محمد المكي الناصري، زعيم حزب الوحدة المغربية، ذهب إلى أن "غمرات" الوزاني، وتحليلاته، كانت "مدرسة سياسية متنقلة يتلقى دروسها كل أسبوع جمهور كبير من المواطنين، لا فرق بين مريديه من حزبه وأتباع أحزاب أخرى. إذ لا تقف دون انتشار الفكرة حدود ولا حواجز"[78].

وقد اقتبس الوزاني "الغمرات" عنوانا لافتتاحياته بجريدة *الرأي العام*، من أحد وصايا الإمام علي لابنه الحسن. فقد ذكر في مذكراته ـ أنه لما كان بمنفى أسا يقرأ وصايا الخليفة الرابع لابنه في كتاب *نهج البلاغة*، لفت نظره عبارة : "وخض يا بني غمرات الحق حيث كان"، فاستقر رأيه على اتخاذ "الغمرات" عنوانا لافتتاحيات الجريدة، التي كان يفكر في إصدارها بعد العودة من المنفى[79]. ولم يكن هذا الاختيار مجانيا، ولا من باب التيمن فقط، بل كان ذا علاقة بفكر الوزاني واختياراته، "فالغمرات" في اللغة العربية من الغمرة التي تعني الشدة

---

73. نفسه، ص. 28.
74. نفسه، ص. 29.
75. الميل لهذا الأسلوب ما زال ساريا إلى اليوم، وكتابات عبد اللطيف الجواهري على صفحات جريدة *الاتحاد الاشتراكي*، ثم جريدة *الأحداث المغربية*، وكذا كتابات رشيد نيني على صفحات جريدة *الصباح*، ثم جريدة *المساء*، شاهد يمكن إثبات ذلك من خلاله.
76. عبد الحي حسن العمراني، *الزعيم الوطني الكبير*، م س، ص. 13.
77. عبد القادر بنشقرون، "الفقيد محمد ين الحسن الوزاني في سلوكه الحزبي ونضاله الوطني"، ضمن كتاب *محمد حسن الوزاني الداعية الديمقراطي المجاهد*، م س، ص. 94.
78. محمد المكي الناصري، *ملامح من شخصية الأخ بلحسن فقيد الوطنية والوطن*، م س، ص. 70.
79. محمد حسن الوزاني، مذكرات ...،ج. 5، م س، ص. 197-198.

والمزدحم والمكاره والشدائد[80]، و"الحق" أحد الثوابت التي آمن بها الوزاني لدرجة التقديس، ومن هذا انبثقت ضرورة خوض الغمرات ضد سلطات الحماية من أجل حق المغاربة.

وكان صاحب الغمرات يعتبر كتابة افتتاحيات جريدة حزبه "فريضة من فرائض الدين والوطنية"[81]، لهذا لم يتخل عنها ولم يتهاون إزاء الموعد. ومن يتصفح *الرأي العام*، بين شهر أبريل 1947 وشهر مارس من سنة 1952، يلاحظ الاسترسال في كتابة "الغمرات"، إلا في حالات نادرة كانت بسبب المرض أو مقص الرقيب، وبسبب الإضراب عن الكتابة في وقت من الأوقات، احتجاجا على نظام الرقابة. وللإشارة فإن أول مرة غابت فيها "غمرات"، الوزاني تزامنت مع صدور العدد السابع والخمسين، بتاريخ 26 ماي سنة 1948، بسبب وعكة صحية وعملية جراحية أجريت لمؤسس حزب الشورى والاستقلال، إلا أن الملاحظ هو أنه عاد إلى كتابة افتتاحياته، بعد أسبوعين فقط، فصدرت "الغمرات" في العدد الستين، بتاريخ 16 يونيو 1948، مؤكدة على تشبث صاحبها بدوره.

أما المواضيع التي تناولتها "الغمرات"، فتوزعت بين ملاحقة كبار رجال الحماية وتحميلهم مسؤولية السياسة الفرنسية، عن طريق متابعة تصريحاتهم وممارساتهم وتسفيه أفكارهم ومنظورهم للوضع الاجتماعي ولمستقبل المغرب، وعن طريق تعقب أسلوب نظام الحماية ومخططاته بالنقد والتحليل والتشريح، لإطلاع المغاربة على ما يحاك ضدهم. كما اهتمت بضرورة تكوين المغاربة سياسيا، وبشرح أساليب الحكم المعتمدة على الديموقراطية والدستور والبرلمان للشعب كأصلح أسلوب لسوسه في الحاضر والمستقبل، وبإظهار سلبيات الاستبداد والاستعباد والاحتكار ومصادرة الحريات، إضافة إلى اقتراح أساليب من أجل استقلال المغرب، وإقامة دولة ملكية دستورية حرة. وفي كل هذه المواضيع، استعان الوزاني بأمثلة من التراث ومن التاريخ ومن تجارب العالم وتجارب البلاد العربية والبلاد المحتلة.

ويظهر أن هذا النوع من الاهتمام نبع من كون الوزاني أحاط الصحافة ببعد نضالي، ومارسها كأمضى سلاح في الكفاح الوطني. فقد آمن بالارتباط المتين بين العمل الصحفي والكفاح الوطني والانتصار للفكرة الوطنية وبرامجها، كما آمن بوجوب عدم الاستهانة بقوة الكلمة في القدرة على الوقوف في وجه الاستعمار والاستبداد، فظل يكتب باستمرار[82]، وتناقل أنصاره

---

80. انظر محمد بن أبي بكر القادري الرازي، *مختار الصحاح*، م س، ص. 480 .
وكذلك *المنجد في اللغة والأعلام*، م س، ص. 559.
81. محمد المكي الناصري، *ملامح من شخصية الأخ بلحسن* ...، م س.
82. حول اهتمام الوزاني بالصحافة والكلمة، انظر شهادة عبد الهادي بوطالب في ذكريات ... ،ج 1، م س، ص. 237-238، و ج 2، ص. 264-265.

القول بأن القلم لا يفارقه. وكان في كتابته الصحافية يصدر عن شعور بأن عليه واجب توضيح خفايا السياسة للرأي العام، وعن عورش بضرورة تسليط الأضواء على التفاصيل بأسلوب مباشر[83]. ولعل ذلك كان أحد الأسباب الرئيسية وراء النفس الطويل في افتتاحياته التي كانت تتجاوز الحيز المخصص لها في الصفحة الأولى، وأحيانا يتم إرجاء تتمتها إلى العدد اللاحق. لقد كان يميل إلى أسلوب التفصيل ووضع النقط على الحروف وتوضيح الموقف، بطريقة تتوخى سد المنافذ أمام التأويلات المغرضة[84]. وفي كتاباته، كان يضبط الفكرة ويخطط لمقالته السياسية قبل تحريرها، نتيجة اقتناع بهذا النوع من الكتابة البعيدة عن العفوية وعن التداعيات البسيطة، وكان يعلن ذلك باستمرار، إذ كتب في إحدى مقالاته قائلا، "إنه ليس في كتابتي، ما يمكن أن يعتبر فلتة أو صدفة، بل تعودت أن لا أكتب إلا ما أقصده قصدا، أي أني أكتب عن اقتناع وإيمان وأعبر عن رأيي بحرية وصراحة وأتحرى جهد الإمكان أن يكون القول مطابقا أتم المطابقة للفكرة التي أتحدث عنها، وفي كل هذا لا أتقيد بغير الحق وبالحق وحده، ولا أبالي إلا بما فيه الصالح العام"[85]. ولإيفاء هذا النوع من الكتابة حقه عرف عنه حسه التوثيقي ودقته في تحضير الملفات والتوفر على الوثائق[86] الخاصة بكل موضوع، بل إن عدم التوفر على تلك الوثائق كان يجعله يؤخر الكتابة في ذلك الموضوع، ويعتبر ذلك التأخير نوعا من "الحكمة والسياسة والمصلحة"[87]. ومن الأمثلة التي توضح هذا الأمر، تأخر جريدة *الرأي العام* سنة 1950 عن الكتابة حول الرحلة الملكية للديار الفرنسية. فقد أرجع الوزاني أسباب ذلك إلى عدم توفر الوثائق السياسية الرسمية، وعدم صراحة ودقة البيانات والبلاغات، وجعل عنوان المقال الذي تحدث فيه عن الموضوع هو "في انتظار الوثائق الرسمية عن المحادثات الملكية الفرنسية.."[88]، دون أن يرى في ذلك الانتظار أي مس بمهنة الصحافة. فالانتظار ــ بالنسبة إليه ــ أفضل من الخوض في موضوع لا يعرف حقائقه ــ كما قال ــ إلا كبار الرسميين، وزمرة قليلة من المطلعين.

وفيما يخص لغة الكتابة، كتب الوزاني مقالاته الصحفية في الثلاثينيات من القرن العشرين باللغة الفرنسية التي كان متمكنا منها، قبل أن يكتب باللغة العربية. وقد رأى البعض إزاء

83. عبد الهادي بوطالب ، ذكريات ... ،ج 1، م س، ص. 375.
84. عبد الهادي بوطالب ، ذكريات ... ،ج 2، م س، صX .
85. محمد حسن الوزاني، "أمحاكم أم مجازر؟"، *الرأي العام*، عدد 118، 9 شتنبر 1948.
86. عبد الهادي بوطالب، ذكريات ... ،ج 1، م س، ص. 490.
87. محمد حسن الوزاني، "في انتظار الوثائق الرسمية عن المحادثات الفرنسية ..."، *الرأي العام*، عدد 176، 17 نونبر 1950.
88. المصدر نفسه.

كتاباتـه باللغـة العربيـة، فـي تلـك المرحلـة، أنـه كـان "يفكـر فرنسـيا، ويكتـب عربيـا"[89]، غيـر أن اعتكافـه فـي منفـاه علـى قـراءة أمهـات كتـب الثـرات العربـي وكتابـات أبـرز المجـددين النهضـويين المشـارقة، مكنـه مـن ناصـية اللغـة العربيـة، فجـاءت كتاباتـه فـي "الغمـرات"، فـي الأربعينيـات وبدايـة الخمسـينيات، مشـدودة إلـى الأصـالة العربيـة والاقتبـاس والاستشـهاد مـن أسـاليب العـرب وحكمهـم وأمثـالهم، حيـث دأب علـى توظيـف هـذه الثقافـة وهـو يجـادل مسـؤولي الحمايـة ومسـؤولي الجمهوريـة الفرنسـية وينتقـدهم، أو يقـدم أطروحاتـه السياسـية[90]. وكـان أسـلوبه، مـن حيـث البنـاء، رصـينا وعقلانيـا ولائكيـا علـى الـنمط الأوربـي المحـض، أسـلوب مبنـي علـى التحلـيلات السياسـية المحضـة[91]. ومـن حيـث الترتيـب والتخطـيط، تميـزت مقالاتـه بوضـوح الفكـرة واسـتعمال الشـرح والتفصـيل، مـع توظيـف عـدد مـن الخلفيـات الضـرورية ومـن المـادة الثانويـة، التـي كـان يـرى أن لهـا ضـرورة فـي توضـيح المقصـود. وفـي هـذا الإطـار، اسـتعمل أسـلوب السـرد، حيـث اهـتم بتحديـد الزمـان والمكـان وأولـى أهميـة لتعاقـب الأحـداث وللاسـتعانة بالماضـي القريـب أو البعيـد وبتقنيـة الاسـترجاع، كمـا اسـتعمل أسـلوب الوصـف بمـا يعنيـه مـن إعطـاء أهميـة للوظيفـة الإخباريـة التفسـيرية ومـن أسـلوب مباشـر يتلافـي التعقيـدات اللفظيـة. وبمـا أنـه سـخر نضـاله لمحاربـة الفكـر والممارسـة الاسـتعمارية ولنشـر أفكـار جديـدة فـي المجتمـع، فقـد وظـف أسـلوب الحجـاج، بـل إن هيمنـة هـذا الأسـلوب تكـاد تظهـر كتاباتـه فـي "الغمـرات"، مقـالات حجاجيـة، حضـرت فيهـا المرافعـة والمناقشـة والنقـد ومقارعـة الحجـة بالحجـة، وهـو أمـر اسـتدعته، ربمـا، الرغبـة فـي إقنـاع المخاطـب، الـذي كـان تـارة سـلطات الحمايـة أو سـلطات المخـزن، وأحيانـا المـواطن المغربـي وأطرافـا أخـرى، كمـا أنـه أمـر اسـتدعى باسـتمرار تقـديم مختلـف الحجـج الواقعيـة والمنطقيـة والتاريخيـة والتـذكير بـالأقوال والشـواهد، التـي كانـت فـي غالبهـا مـن المـأثور عـن الفكـر التنـويري وعـن الثـورات التحرريـة، وخاصـة الثـورة الفرنسـية، والمـأثور عـن الفكـر والتجـارب العربيـة المتنورة. لهذا جاء بناء المقالات منتقلا من الأطروحة إلى النقيض ثم إلى التركيب.

وكـان الطـابع الـذي أضـفاه الـوزاني، علـى مضـمون جريـدة *الـرأي العـام*، هـو طـابع العنايـة بالتحليـل السياسـي والقـانوني والعنايـة بالجـدل السياسـي والفكـري. وأهـم مـا اعتمـده فـي هـذا الإطـار، طريقـة الحـوار التـي تظهـر ثقـة المحـاور بنفسـه وبقضـيته، وتظهـر ضـرورة الاحتكـام للعقـل وإلـى قـيم الـوعي المتجـدد المـؤمن بضـرورة انتقـال الإنسـان مـن مسـتوى الضـرورة إلـى

89. عبد الهادي بوطالب، ذكريات ... ،ج 1، م س، ص. 264.
90. المصدر نفسه والصفحة نفسها.
91. من حوار أجرته إذاعة الرباط مع عبد الله العروي بتاريخ 18-4-1984 أمدنا بنسخة منه مسجلة على الشريط الأستاذ والصديق المرحوم حمدي أونوش.

مستوى الحرية، والمؤمن بأن الحق سليل القانون. ويبين الأسلوب الجدلي الذي استعمله شدة اهتمامه بالفكرة التي يناقش وليس بصاحبها، والابتعاد عن الجدل العقيم وعن المناورات والمهاترات. وقد جعله هذا النوع من المعالجة ميالا إلى الجد ونحو ما كان يراه هو القول الفصل، كما جعله عفيف اللسان والقلم، لا يستعمل الكلمات النابية ولا الاتهامات الرخيصة[92].

ومن يتصفح مقالاته بجريدة *الرأي العام*، من أواسط الأربعينيات إلى بداية الخمسينيات، يلاحظ، كيف حافظ ـ كعادته من قبل ـ على اختيار عناوين مقالاته، اختيارا تظهر فيه أهمية العنوان، بما يتضمنه من رغبة في الإحالة أو رغبة في الاستمالة أو جذب القراء نحو الإيمان بما ورد في المقال.

وكإشارة أخيرة، لا بد من التأكيد، على أن جريدة *الرأي العام*، عكست ـ كما أراد لها صاحبها ـ العديد من صفات الصحافة الليبرالية، من خلال اهتمامها بالفكر التنويري وفكر حقوق الإنسان، وبالتنظير للفكر الديموقراطي، ومن خلال اهتمامها بنشر الأخبار والمعلومات وتفسير الأحداث، وكذا اهتمامها بالأفكار الحرة ورفض الرقابة، واهتمامها بالاستقلالية والتحرر.

دفاع الوزاني عن حرية التعبير الصحفي

لم تشكل الثورة الفرنسية، عاملا مهما وراء ظهور الصحافة السياسية، فقط، بل كانت كذلك نصيرا لحرية الصحافة. فقد أوضحت تلك الثورة أنه "لم يعد ممكنا استخدام الأساليب الإقطاعية القديمة ضد الصحافة، كفرض الرقابة وإجراءات التضييق"[93]، ووصفت الفقرة التاسعة من إعلان حقوق الإنسان الصادر عن الثورة بتاريخ 26 غشت 1789 حرية التعبير عن الأفكار والآراء بأنها "أحد أثمن حقوق الإنسان"، كما ضمنت لكل مواطن حرية الكلام والكتابة والنشر، ولم تمنعه سوى من الإفراط في استعمال هذا الحق وهذه الحرية في الأمور التي يحددها القانون. ولم تقف الثورة عند تحديد مبادئ حرية الصحافة، وإنما طبقتها، ولو لفترة وجيزة[94].

ومثلما يتحدث تاريخ الصحافة عن دور الثورة الفرنسية في بسط مبادئ حرية الصحافة، يتحدث كذلك عن دور نابليون وطريقته في الرقابة على الصحافة والعمل على توجيهها

92. انظر: محمد المكي الناصري، ملامح من شخصية الأخ بلحسن ... ، م س، ص. 710.
وكذلك عبد الكريم غلاب:
93. تودوروف، *تاريخ الصحافة العالمية*، م س، ص 51 .
94. بترو فرنسوا وألبير بيار، *تاريخ الصحافة*، ترجمة عبد الله نعمان، سلسلة ماذا أعرف، بيروت، المنشورات العربية، د ت، ص. 23.

الوجهة التي ترضيه[95]. ومن يتتبع صراع الوزاني مع الرقابة، في فترة الحماية يرى فيه بعض وجه الصراع بين مبادئ الثورة الفرنسية، كما آمن بها، وبين مواقف نابليون، كما مثلتها سلطات الحماية، كما يلاحظ أن حرية الفكر وحرية التعبير عنه، لم تكن في خطابه مجرد قضية هامة، وإنما قضية وجب خوض حرب القلم من أجلها ضد الرقابة والمصادرة، واتخاذها قياسا وأداة من أجل خوض غمار الدفاع عن كافة الحريات الأخرى. فقد كان يؤمن بأن تلعب الأحزاب السياسية الوطنية في عهد الحماية دور المجالس التمثيلية للأمة وبالدور الذي على الصحافة الوطنية أن تضطلع به في هذا الباب، كما كان يقدر أهمية حرية الرأي والصحافة من أجل بناء رأي عام مغربي حقيقي. ولكل هذا احتلت حرية الصحافة مكانة رئيسية في اهتماماته فاهتمت بها كتاباته مباشرة وفي حد ذاتها، كما اهتمت بها بأسلوب غير مباشر انطلق من الحديث حولها نحو الحريات بأجمعها.

وللحديث عن علاقة جريدة *الرأي العام* بالرقابة لابد من الإشارة إلى أن سلطات الحماية تحكمت في حق نشر الصحافة تحكما كبيرا، وضايقت الصحافة الوطنية بمختلف أساليب المضايقة التي وصلت حد تحكم إدارة الإعلام الفرنسية في رخصة الحصول على شراء الصحافة الوطنية للورق، وحد تحديد نوع ذلك الورق في النوع الرديء وتحديد مقداره في الحد الأدنى[96]. ورغم أن الفرنسيين سمحوا، في إطار سياسة الانفراج التي دشنها المقيم العام ايريك لابون، بإصدار صحافة عربية، فإنهم أبقوا على قانون سنة 1913 وعلى الأحكام العرفية التي طبقت على الصحافة إبان الحرب العالمية الثانية، وما تضمنته تلك الأحكام من سطوة لسلطة الرقابة وسلطة الرقيب الذي كانت تأشيرة ترخيصه بصدور كل جريدة عربية بمثابة إذن لا حق للمطبعة بسحب أي عدد منها دون توفره[97]. وكانت مصلحة الرقابة، تفرض على مديري الصحف التوجه بعدد الجريدة، قيد النشر، إلى مكتب الرقيب بالإقامة العامة الفرنسية بالرباط، لإطلاعه على المحتوى قصد تنفيذ مهمته، ثم هذبت هذا الأسلوب، فأصبح الرقيب يزور المطابع لمراقبة الصحف[98].

---

95. ينسب لنابليون في باب الرقابة على الصحافة، أقوال متعددة، منها:
- "إن توسيع حرية الصحافة، يعني تماما أن تفقد السلطة"
- "إن أربع صحف معادية أكثر خطورة من مائة ألف جندي معاد"
- "أن تترك الصحافة مستقلة بذاتها، فإن هذا يعني أنك تنام أمام الخطر"

انظر تودوروف، *تاريخ الصحافة العالمية*، م س، ص. 66.
وفي كتابات مؤرخي الصحافة المصرية، إشارة دائمة تقول:"إن نابليون هو الذي أوصل الصحافة والرقابة إلى مصر".
96. عبد الهادي بوطالب، ذكريات ... ،ج 2، م س، ص. 260.
97. المصدر نفسه، ص. 253.
98. نفسه، ص. 258.

وكان الرقيب فرنسيا قبل أن تسند المهمة لضابط مغربي في الجيش الفرنسي[99]. وبحكم جهل الرقيب الفرنسي اللغة العربية، كان يحذف كل ما شك فيه من كلمات وفقرات، من باب التحري، ولم يكن الرقيب المغربي أشفق منه على صفحات الجريدة إذ لم يتميز عنه سوى بمحاولة مساومات، كانت تنتهي إلى نفس عمل زميله الفرنسي[100]. ولم يكن قانون الرقابة يسمح بتعويض ما تم حذفه من مقالات أو فقرات، وإنما يسمح فقط بالتنصيص على أن سبب البياض في صفحات الجريدة هو الرقابة، ولهذا كانت صفحات الصحافة الوطنية، ضحية الرقيب، مملوءة بعبارات "حذفته الرقابة" و "أخرته الرقابة"[101]. وفي ظل هذه الشروط وبسبب مواقف جريدة *الرأي العام*، انضاف إلى أزمتها المالية، أزمة مع الرقابة، خصوصا في فترة المقيم العام جوان الذي ضاق ذرعا بالأحزاب الوطنية وصحافتها. ففي فترة هذا المقيم أصبحت أعداد الجريدة تصدر وبياض الأعمدة يتخلل صفحاتها ومقالاتها جزئيا أو كليا، وأصبحت العديد من المقالات والصفحات تصدر شوهاء، بسبب ما حذف من المقالات والجمل والكلمات[102]، لدرجة شبهها أحد أقلامها قائلا إنها كانت "مشوهة المعالم، كوجه الأبرص الذي يختلط فيه البياض الناصع بالسواد الحالك ويقدم منظرا مريعا"[103]، وأطلق البعض على الرقابة نعت « الأفعى البرصاء» ونعت «أرضة الأفكار»[104]. لقد كان الرقيب يحذف من صفحات جريدة *الرأي العام*، كل الكتابات «الفاضحة للحقائق المرة التي لا يبتلعها حلقوم الرقابة ولا يهضمها بطن السياسة»[105]، حسب تعبير الوزاني. وكانت الافتتاحيات أكثر المقالات تعرضا لمقص الرقيب، ومن أمثلة ما حذف وجهة نظر الوزاني في تعيين الجنرال جوان مقيما عاما بالمغرب، بل إن رقابة الحماية حذفت الكثير من الفقرات والكلمات حتى من المقالات التي كانت تصدر بالجريدة لتغطية الحوار الذي جرى سنة 1947 بين حزب الشورى والاستقلال وبين الإقامة العامة[106]. ولم تكن تتوقف عند حذف بعض المضامين

---

99. نفسه، ص. 258-259.
100. نفسه، صفحات 257-258-259.
101. نفسه، ص. 258.
102. عبد الحي العمراني، أبطال الوطنية، الكتاب الثاني، أحمد بن سودة، م س، ص. 80.
103. عبد الهادي بوطالب، ذكريات ... ،ج 2، م س، ص 303.
104. أحمد ين سودة، "في انتظار نعي الرقابة"، ركن "حديث المفتي" ، *الرأي العام*، عدد 22، 10 شتنبر 1947.
105. محمد حسن الوزاني، "صيحة الحق ... ونداء الواجب !"، *الرأي العام* ،عدد 78، 27 أكتوبر 1948.
106. عبد الهادي بوطالب، ذكريات ... ،ج 2 ، م س، ص. 303.
كتب أحمد بن سودة يقول حول تناقضات الحماية إزاء الصحافة: "أما الرقابة فإنه [المقيم العام] لا يعارض في إزالتها مبدئيا، ولكن الرقابة تقص أجنحة البرقيات في الجو عمليا، والمقيم لا يعارض في الحريات مبدئيا، ولكننا مقيدون ومقصون عمليا".
انظر: أحمد بن سودة: في انتظار نعي الرقابة، م س.

الحـرة[107]، بـل تجـاوزت ذلـك إلـى الـذعائر والمحاكمـات والمضـايقات[108]. ولمـا لـم تصـل سـلطات الحمايـة إلـى مبتغاهـا، بهـذه الإجـراءات، لجـأت إلـى أسـلوب التوقيـف، حيـث تـم توقيـف هـذه الجريـدة مـدة شـهر سـنة 1947 ومـرتين سـنة 1950، بتـاريخ 8 شـتنبر وتـاريخ 23 شـتنبر. وفـي سـنة 1951 وضـد نشـر مقـال بالعـدد 204 بتـاريخ 18 غشـت بعنـوان "سياسـة الأبهـة والآلهـة الجـدد"، أصـدرت محكمـة الـدار البيضـاء حكمـا يقضـي بتوقيفهـا ابتـداء مـن 4 أبريـل 1952 لمـدة شـهر، ثـم أعقبتـه بحكـم آخـر أوقفهـا لمـدة شـهرين ابتـداء مـن تـاريخ 16 مـاي 1952[109]، كمـا لجـأت إلـى أسـاليب أخـرى مثـل مهاجمـة الباعـة بـالقوة ومصـادرة الجريـدة مـنهم[110]. لقـد كـان موزعـو الجريـدة وباعتهـا يتعرضـون لمعـاملات تعسـفية وقمعيـة وصـلت حـد الاعتقـال والتنكيـل بـالمعتقلين بالسـجون، كمـا وصـلت المضـايقة حـد حضـر بيـع جريـدة *الـرأي العـام* بتـونس مـن طـرف سـلطات الحمايـة هنـاك[111]. وإثـر أحـداث 7-8 دجنبـر 1952، بالـدار البيضـاء، التـي انـدلعت فـي أعقـاب تضـامن النقابيـة والوطنيـة المغربيـة مـع الشـعب التونسـي، إثـر اغتيـال المناضـل النقـابي فرحـات حشـاد، أوقفـت سـلطات الحمايـة الفرنسـية لسـان حـال حـزب الشـورى والاسـتقلال، ومنعتهـا مـن الصدور[112].

وللإشـارة فـإن الرقابـة، لـم تكـن شـرا كلهـا فـي فتـرة الحمايـة-حسـب شـهادات مـن عاشـوا المرحلـة -إذ كـان لهـا وجـه ايجـابي، رغـم أنـف القـائمين عليهـا وضـد مـا كـانوا يـأملون. فالرقيـب بتصـرفه الأهـوج- كمـا يقـول عبـد الهـادي بوطالـب- "كـان يفـتح المجـال لاسـتعظام الـتكهن بشـأن مـا يحـذف، وحـين كـان يبـيض الصـحف كـان يسـود وجـه النظـام الاسـتعماري ويجليـه فـي صـورته البشـعة، لـذهاب النفـوس فـي تأويـل المحـذوف كـل مـذهب، ممـا أصـبح معـه الحـذف أقـوى تـأثيرا مـن النشـر والسكوت المفروض أفصح من البيان المطلوب"[113].

---

107. كتب أحمد بن سودة، في ركن "حديث المفتي"، حول الرقابة يقول: "وإياك والفضول الكثير، فيسطو عليك مقص الرقيب، ويخرج مقالك أبيض كالحليب، ويلتحق "بالغمرات"، وتكتب في قائمة المتطرفين، الذين ليسوا بمتعاونين، ولا بلا "بون" منتفعين، ولا للسيارات الفخمة راكبين". انظرأحمد بن سودة،" بين وزارتين، وزارة فرنسية متغيرة ووزارتنا الدائمة المرنة الحربائية"، حديث المفتي، *الرأي العام*، عدد 65، 21 يوليوز 1948.

108. وقف مدير الجريدة مرارا، أمام القضاء بمحاكم الدار البيضاء والرباط وفاس، ومن الأمثلة، وقوفه ثلاث مرات أمام المحكمة في شهر واحد سنة 1952، يوم 12 يناير، ويوم 17 يناير، ويوم 24 يناير، بسبب مقالات نشرت حول بني زروال، وحول تيفلت، وحول الخميسات، ومن أساليب المضايقات التي تعرضت لها "الرأي العام"، منع الإعلانات عنها حتى تتعرض للإفلاس، وقد كتب أحمد بن سودة في هذا العدد يقول:"وقال تاجر كبير، يتقن الضرب بالطر والبندير، سأمنع عنهم الإعلانات، وأثير عليهم الشركات، حتى تصبح الجريدة في قائمة المفلسات". أحمد بن سودة، "مؤتمرات ومحادثات ضد الرأي العام !؟"، حديث المفتي، *الرأي العام*، عدد 242، 31 يوليوز 1952.

109. عزالعرب الوزاني، *حدثني والدي*، م س، ص. 54- 55.

110. عبد الحي العمراني، *أبطال الوطنية ،الكتاب الثاني*، *أحمد بن سودة*، م س، ص. 81 .

111. عز العرب الوزاني، *حدثني والدي*، م س، ص. 55.

112. لم تعد جريدة *الرأي العام* للصدور إلا بتاريخ 19 نونبر 1955، في إطار عودة السلطان من منفاه، والتهييء لعهد الاستقلال.

113. عبد الهادي بوطالب، ذكريات ...، ج 2 ، م س، ص. 260.

وكان الوزاني يصور الرقابة المسلطة على لسان حزبه سيفا مصلتا فوق أقلامه وأقلام الأحرار مثله معلقا "بشعرة فوق رؤوس دعاة الحق وأنصار الحقيقة في المغرب"[114]. وضد هذا الواقع، اعتبر الرقابة باطلا وجهانا، كما اعتبرها، من خلال تصرفاتها وأساليبها، بغيا وعدوانا واضطهادا مستمرا[115] واعتبر سلوك الرقيب نوعا من التقهقر والرجوع بالمغرب إلى الوراء[116] وتعبيرا عن تناقض الفرنسيين مع تاريخهم ومع تصريحات مسؤوليهم، مشيرا إلى ما جاءت به الثورة الفرنسية من حرية الصحافة ومشتكيا من "جور عصر أحراره ظلام"[117] وسائلا المقيم العام جوان، باسم ماذا تفرض السياسة الفرنسية الحجر والرقابة والقيود والأغلال، على الأفكار الوطنية؟ هل "باسم المبادئ والحقوق والحريات والمثل العليا"[118] التي اشتهرت بها فرنسا خلال تاريخها، أم باسم أشياء أخرى؟ فوضح كيف أن سياسة الحماية موسومة بتناقض القول مع الفعل، إذ في الوقت الذي أعلن فيه المقيم العام، في مجلس شورى الحكومة، "أن ممارسة الديمقراطية في المغرب تقتضي تدريبا طويلا وعسيرا"[119]، تصر الرقابة الفرنسية على مخالفة مبادئ ومقتضيات الديمقراطية، فتخنق حرية الرأي وتعرقل صوت المعارضة ووجودها[120]. ولم يستنكر الوزاني تناقض السياسة الفرنسية في مجال الصحافة بالمغرب مع المبادئ المفروض أن يتشبث بها الفرنسيون، ومع تصريحاتهم فقط، بل استنكر كذلك التمايز الموجود في سياستهم تلك بشمال افريقيا وغيرها من المناطق التابعة للفرنسيين، بإلغائهم الرقابة على الصحف في تلك الأقطار، وتشديد فرضها على الصحافة الوطنية المغربية، بطريقة بلغت درجة "الشذوذ... و المعاملة الخاصة، التي ما أنزل الله بها من سلطان"[121].

وقد كرر الوزاني، في العديد من المقالات، أن الصحافة في المغرب "كانت ولا تزال منكوبة في أعز شيء لها، وهو ما يمتاز به الإنسان،عن الحيوان: الرأي وحرية التعبير عنه بالقلم واللسان، في دائرة القانون العادل"[122]، وبين كيف أن المغاربة، حرموا من حرية الصحافة منذ

114. محمد حسن الوزاني، "السياسة ... التي تبحث عن نفسها"، *الرأي العام*، السنة 1، عدد 6، 21 ماي 1947.
115. محمد حسن الوزاني، "الحرية بين حماية القانون وعسف السياسة"، *الرأي العام*،عدد 38- 13 ماي 1949.
116. محمد حسن الوزاني، "كتاب مفتوح إلى الجنرال جوان ...."، *الرأي العام*، السنة 3، عدد 97- 6 ماي 1948.
117. محمد حسن الوزاني، "ما وراءك يا عصام؟"، *الرأي العام*، السنة 1، عدد 7، 28 ماي 1947.
118. محمد حسن الوزاني، "كتاب مفتوح إلى الجنرال جوان ..."، م س.
119. محمد حسن الوزاني، "يحلونه (أعواما) ويحرمونه (أياما)"، *الرأي العام*، عدد 162، 4 غشت 1950.
120. المصدر نفسه.
121. محمد حسن الوزاني، "كتاب مفتوح إلى الجنرال جوان ..."، م س.
122. المصدر نفسه.

خضوعهم لنظام الحماية الفرنسية، رادا هذا الحرمان إلى القانون الأساسي المنظم للصحافة بالمغرب، وإجحافه في حق الصحافة العربية –أساسا-[123]. فقد بين كيف أن الميدان المغربي، قبل الحرب العالمية الثانية، كان خلوا من الجرائد العربية الحقة، حيث لم تسمح الإقامة العامة بإصدارها إلا سنة 1937، كما لم تسمح باستمرارها إلا لأشهر معدودة، لما أوقفتها عن الصدور في نفس السنة بقرار من السلطة العسكرية، وباسم (الأمن والنظام) [124]. إلا أنه –ورغم هذا الواقع- لا حظ الوزاني – كيف تعمق تراجع حرية الصحافة، بعد الحرب العالمية الثانية، عكس ما كان ينتظره المغاربة. فقبل الحرب -كما قال- كان الوطنيون أحرارا يكتبون في الصحف ما يشاءون، إلا أنهم بعد الحرب، والتي شاركوا فيها –كما قيل لهم- باسم «الحرية والديموقراطية ضد الاستبداد والديكتاتورية». فرضت عليهم الرقابة باسم «المقتضيات العسكرية»، أثناء الحرب، واستمر الأمر حتى بعد الحرب[125]. وقد جرد الوزاني القوانين التي عمقت سلطة الرقابة، أثناء الحرب العالمية الثانية وبعدها، فذكر القرار المقيمي الصادر في 29 غشت سنة 1939، والتعديل الذي تعرض له بقرار مقيمي آخر صدر بتاريخ 29 ماي 1943، كما ذكر القرار المقيمي الصادر في 31 مارس سنة 1948[126]، فلم يشر بأي تحليل أو نقاش للقرارين الأولين، وكأن ظروف الحرب كانت توفر لهما بعض الحصانة، بينما أفرد القرار الأخير بالنقد. فقد اعتبره القرار الذي بموجبه تعزز جانب الرقابة وتضاعف سلاحها وتفاقم خطرها واستفحل شرها[127]، وناقش مضمونه الذي منح الاستخبارات العامة حق الإذن بنشر الصحافة وحق مراقبتها، كما ناقش النقط السبع التي سطرها كموجبات لحذف المقالات أو تعديلها، فاعتبر "عباراتها الحطاطة والملتبسة والملتوية، تجعل من كل واحدة منها سيفا ذا حدين، مصلتا فوق رأس كل مفكر وكاتب، وطابع وناشر"، كما اعتبر القرار في مجمله، أداة توفرت للرقابة السياسية وسمحت لها "أن تأتي من البغي والعدوان وخنق الأفكار، ما لا يصفه قلم ولا يعبر عنه لسان"، كما تساءل عن معنى الاحتياط الجديد الذي لجأت إليه الحماية، من خلال ذلك القرار، وعن مغزى الغلو -عبره- في التضييق على حرية الرأي[128].

ولم يقف عند نقد الرقابة والتنديد بها، بل تجاوزه إلى الاحتجاج برسائل مفتوحة إلى المراجع العليا، مثل المقيم العام الجنرال جوان، والصدر الأعظم، والمطالبة بتعديل قانون الصحافة،

123. محمد حسن الوزاني، "الحرية بن حماية القانون وعسف السياسة"، م س.
124. المصدر نفسه.
125. محمد حسن الوزاني، "كتاب مفتوح إلى الجنرال جوان ..."، م س.
126. محمد حسن الوزاني، "نظام الحرية"، *الرأي العام*، عدد 99، الجمعة 20 ماي 1949.
127. المصدر نفسه.
128. نفسه.

وسن تسهيلات أمام الصحافة العربية[129]، ولجأ إلى أسلوب الإضراب عن الكتابة، كطريقة للاحتجاج[130]، كما دفع بلجنة تحرير الجريدة إلى رفع خطاب مفتوح إلى ممثلي الصحافة في اجتماعاتهم ومؤتمراتهم[131]. إلا انه، ورغم قيود التشريع، وتصرفات الرقابة، استمر عازما على استغلال حيز الحرية المسموح به، لتبليغ الرسالة التي آمن بها في مجال الإصلاح الاجتماعي والوعي السياسي[132]، واستغلال إمكانيات التدارك، فكان يعطي تعليماته بإعادة نشر المقالات التي حذفتها الرقابة في شكل نشرات سريعة، توزع على أنصار الحزب والمتعاطفين معه.

129. محمد حسن الوزاني، "الرأي العام"، م س.
130. انظر محمد حسن الوزاني، "الحرية بين حماية القانون، وعسف السياسة"، م س.
وقد ترجم أحمد بن سودة في حديث المفتي، هذا الموقف بالقول: "قال لي مدير الرأي العام، لم لا تكتب أيها المفتي الهمام؟ فأجبته: حتى تزول الرقابة ويتحرر القلم ويصبح دون "بون" "ولا نظام". أحمد بن سودة، "من باب النباهة ترك الأفواه بالكمامة"، حديث المفتي، *الرأي العام*، عدد 183، 12 يناير 1951.
131. من أمثلة ذلك الرسالة التي رفعت باسم محمد العمراوي، ومصطفى القصري إلى اجتماع ممثلي الصحافة الجهوية المنعقد بمراكش بتاريخ 7 ماي 1953، وهي الرسالة التي تناولت موضوع توقيف جريدة *الرأي العام*. انظر عزالعرب الوزاني، حدثني *والدي*، م س، ص. 55.
132. محمد حسن الوزاني، "كلمة صريحة وموقف واضح"، *الرأي العام*، عدد 188، الجمعة 2 مارس 1951.

تجربة الصحافة الثقافية عند الزعيم محمد بن الحسن الوزاني

عبد الصمد الغازي

تتوق هذه المداخلة إلى إبراز جوانب مهمة تميز بها جيل رواد الحركة الوطنية بمختلف مشاربهم وتنوع رؤاهم لما ينبغي أن يكون عليه المغرب، فلقد ارتبط لديهم النضال الوطني بالعمل على مختلف الواجهات السياسية والفكرية معبرين عن فهم عميق للتركيب الحضاري العميق للمغرب الذي كان يرنو إلى استعادة استقلاله وتحرير أرضه من الاحتلال الفرنسي.

كان محمد بن الحسن الوزاني نموذجا أمثل لهذا الوعي الوطني بمفهومه الشامل الذي يتعامل مع مفردات السعي نحو الاصلاح والاستقلال بشكل يستدمج عناصر التاريخ والجغرافيا التي تميز المغرب بحيث ترى أن اجتهاده طيلة حياته رحمه الله لم يكف عن البحث عن الصيغ التي بها يستقيم حال بلده مزاوجا بين التنظير والتنزيل في أرض الواقع مختبرا ومعتبرا في آن.

ويمكن اعتبار محمد بن الحسن الوزاني نتاج المدرسة الوطنية المغربية التي ترعرع فيها جيل من الشبيبة لم يرقه أن يرى بلاده ترزح تحت نير الاستعمار، وتعاني من تخلف فكري مهول في حاضرها لا يناسب عظمة ماضيها التليد.

تقلب في البلاد مشرقا ومغربا وتعرف على النبض والإيقاع الذي أصبح يصير عليه العالم أجمع، فلم تكن رحلاته "الاستكشافية" لمراكز الحراك العام، فرنسا ومصر وسويسرا وغيرها إلا لتنمي إيمانه بضرورة المزج بين الاصلاح الفكري والسياسي وأن الثقافة مدخل أساسي يمنح سعة في الرؤية وشجاعة في ركوب موجات التجديد التي تجانف كل جمود وتقوقع.

لن أتحدث في هذه المداخلة عن الجوانب الحياتية للرجل ونضاله السياسي ومعاناته الكبيرة، فقد سبقني إلى ذلك الكثير من الباحثين، ولكن أريد فقط أن ألمع إلى محور أساسي أرى أن محمد بن الحسن الوزاني كان شديد الاهتمام به ولم ينل حظه من العناية إلا ما نذر، وهو الاهتمام بالثقافة المغربية، فلقد غلب التعامل معه من خلال الصفة السياسية والقانونية التي حجبت كثيرا من إبداع الرجل في الثقافة المغربية والبحث عن رؤية تؤطر جميع ذلك وسخر بشكل مبكر وسائل الإعلام المتاحة حينها لخدمة ذلك من صحف ومجلات بالرغم من المضايقات و التهديدات.

لا يسع المتأمل في المادة الثقافية التي كان يسهر على نشرها تأليفا وترجمة إلا أن يشهد له بالتمكن المعرفي ومتابعته لتفاصيل البحث الأكاديمي في الجامعة الفرنسية وجهده في مواكبة ذلك من أجل استكمال نظره حول الإصلاح ورؤيته للمجتمع.

فمحمد بن الحسن الوزاني، ترعرع في مدينة فاس وخبر الثقافة التقليدية وحصل علومها ومناهجها كما عرف كذلك المعارف الغربية في الجامعة الفرنسية واحتك بكثير من رجالات العلم والفكر والسياسة الذي كانوا يتصدرون المشهد الفكري بوجه عام ويوجهون سياساته وقراراته. وتعرف على أهمية الصحافة والإعلام ودورها الحيوي في التوعية والتثقيف والدفاع عن الحقوق الوطنية التي كانت الثقافة جزءا حيويا في نسيجها سعيا منه إلى تطوير الفكر المغربي الذي أصابه كثير من الوهن والضعف والتشويه من طرف الاستعمار الفرنسي. وعلى هذا الأساس يمكن فهم الاجتهاد الفكري والعمل الثقافي الرائد الذي قام به محمد بن الحسن الوزاني، في أوج الصراع مع الاحتلال الفرنسي، والذي تجلى في دراسات تناولت بالمناقشة والتحليل قضايا بالغة الحساسية، تنم عن وعيه الحاد بالتحولات الدقيقة التي كان يعرفها العالم العربي والإسلامي بشكل عام والمغرب بصفة خاصة وإرادته وهو الرجل السياسي في توجيه بوصلة الثقافة والفكر وجهة علمية صحيحة لا تسقط في فخ النفث الإيديولوجي للمستعمر الفرنسي، فسلسلة الدراسات والترجمات حول تجديد الفكر السلفي، والتي تتالى نشرها في أعداد مجلة "المغرب الجديد" لسنة 1935م، وحلقات أخرى عن الثقافة المغربية والمورث العربي والأندلسي، التي نشرها في مجلة "الثقافة المغربية" (1945م) تنم على امتلاك الرجل لرؤية فكرية تحاول تجاوز مركب النقص تجاه الثقافة الغربية ببحثه عن شواهد من داخل هذه المرجعية نفسها يعمل على توظيفها من أجل دحض طروحات الثقافة الكولونيالية، وهو عمل إعلامي ثقافي فيه كثير من الذكاء السياسي.فهنري لاووست وهو عمدة الاستشراق الفرنسي آنذاك والمتخصص الكبير في الفكر السلفي يأتي به شاهدا على تسفيه طروحات مثقف كولونيالي هو ميشو بليز لتصير الخدمة الثقافية ذات بعد سياسي واضح، يقول هنري لاووست: "وفي المدة الأخيرة ظهر شبيه هذا بالمغرب الأقصى مع الحركة الإصلاحية الدينية التي قام بها الناصري بنشره رسالة نقدية إظهار الحقيقة وعلاج الخليقة عن الحالة الداخلية للإسلام، وما يتهدده من الأخطار الخارجية، وقد ألهم هذا العمل الفقيد ميشو بليز الرأي بأن الوهابية قد وطدت أركانها في بلاد المغرب، ومن غير شك أن هذا الرأي غلط صادر عن قليل من الطيش، ولكنه يدل دلالة واضحة على أن من اللازم أن يبدأ الإنسان عمله الاستطلاعي عن الأمور المغربية في الماضي والحاضر بدراسات إسلامية مستفيضة".

فرسالة محمد بن الحسن الوزاني كانت واضحة وهو عالم بتفاصيل المعمار الديني والفكري للمغرب وكيف أن الإصلاح السلفي في صيغته المغربية لا ينبغي التسرع في إلحاقه بمذهبية معينة. غير أن الواقع الثقافي الذي كان يتسم بكثير من الجمود وعدم الانفتاح على لغات العالم الفكرية جعل محمد بن الحسن الوزاني يسعى إلى إيصال مستجدات الفكر الغربي والمختارة بعناية، إذ هذا الترجيح نفسه لطرح دون آخر، لم يكن ليتأتى لو توافر مكنة علمية وعدة معرفية ورؤية حضارية يقول مبينا مقاصد إقدامه على نشر حلقات تجديد الفكر السلفي:

أولا، "شدة رغبتي في أن أجعل في متناول الذين لا معرفة لهم بغير العربية من أبناء الوطن أفيد ما أعثر عليه من البحوث التي يكتبها المستعربون عن كل ما يتصل بقوميتنا من حيث الدين واللغة والمعارف العامة".

ثانيا: "مشاركتي بنصيب من سد الفراغ الذي نشأ عن تقصير المتأدبين عندنا في إسداء الخدمة الواجبة للثقافة المغربية".

أعلن محمد بن الحسن الوزاني عن مقاصده من الإعلام الثقافي بكل وضوح والذي يجعل من خدمة الثقافة المغربية أوجب الواجبات الوطنية.

إن هذا الوعي الثقافي المغربي الوطني ميسم جيل شاب يطمح إلى الجديد في عهد الحماية ، متعطش للنهوض والمبادرة الحضارية، وقد حدد طبقاتهم بحسب تحصيلهم الفكري وميولهم الحضاري أحمد الهواري في كلمته في حق *الشبيبة المغربية*، فمنهم طبقة لا تعرف إلا العربية قد تحلت بآدابها ومحاسنها، وتنورت أفكارها بعقائد الإيمان الراسخة، وأحكام ديانة الإسلام المتينة، وزادت على ذلك علما جديدا أدركته من مطالعة الجرائد والمجلات والكتب العصرية النفيسة، فتولعت بالجديد، وتاقت نفسها إليه. وصارت تنظر إلى "العصريات" بعين الرضا، والاستحسان، فوفقت بينها وبين الدين وطبقت قواعده وأنظمته "وهي طبقة جليلة يرتجى منها الخير" إلا أن بعض دخلائها يفرطون فيشوهون سمعتها بتعقلاتهم الفاسدة وخروجهم بها عن حدود الشريعة.

ومنهم طبقة تعلمت اللغة الفرنسية بآدابها وبعض علومها العصرية، و"بقيت على حالتها في اللباس والهيئة والتقاليد القومية"[1].

1- جريدة *السعادة*، الرباط، عدد، 3457، بتاريخ 1929/10/22.

لـنخلص مـن خـلال الشـهادة السـالفة إلـى فهـم تمـثلات النخبـة للتقليـد والتجديـد واهتمـامهم بالبحـث عـن طريـق يضـمن مسـايرة العصـر دون التفـريط فـي" تقاليـدهم القوميـة" التـي عبـر عنهـا محمـد بـن الحسـن الـوزاني بــ"الخدمة الواجبـة للثقافـة المغربيـة"، والتـي لـم تكـن لتتيسـر شـروط النهـوض بعبئهـا لـولا المعرفـة الدقيقـة بمجريـات تبـدلها، وهـو مـا نلمسـه مـن خـلال التقـاط الـوزاني للحظـات هذا التبدل والتغير والمتناثرة إفاداتها في مذكراته.

فنـادي المسـامرات بفـاس التـابع لجمعيـة قـدماء تلامـذة ثانويـة مـولاي إدريـس (تأسسـت فـي 15 سـبتمبر 1921) وهـو بمثابـة مجمـع لأبنـاء الأعيـان، يـروي محمـد حسـن الـوزاني فـي مذكراتـه، كيـف كانـت هـذه الثانويـة بفـاس ومجمعهـا الثقـافي، ملتقـى للمثقفـين يسـد الـنقص الـذي كانـت تعانيـه النخبة في التواصل الثقافي والعمل على نشر المعرفة وبث الوعي الجديد.

كمـا أن مسـرد المحاضـرات التـي ألقيـت بالنـادي، "السـنة والبدعـة" لعبـد السـلام السـرغيني 1924، *مسـتقبل التجـارة* للحجـوي، *الحالـة القديمـة والراهنـة للعلـم والتعلـيم* لمحمـد بـن العربـي العلـوي، *خطـوات أولـى نحـو التجديـد* لعبـد السـلام الفاسـي، تبـرز الأسـئلة الملحـة والمسـتفزة للـوعي المغربـي مـن أجـل التشـمير والعكـوف علـى إيجـاد أنجـع الأجوبـة والحلـول لهـا. فكانـت هـذه المحاضـرات كمـا ذكـر الـوزاني بــ"العربية لا تقتصـر علـى التلاميـذ بـل يـدعى إليهـا جمهـور مـن المثقفين وأكبـر عـدد مـن النخبـة الفكريـة فـي العاصـمة العلميـة فكـان عـدد الوافـدين تضـيق علـيهم القاعـة الفسـيحة الجميلـة، وكـان يحضـر كـذلك قـدماء التلاميـذ والأسـاتذة والفرنسـيون المغتربـون حيـث كـان يتـراوح عـدد الحاضـرين بـين ثـلاث وأربعمائـة...". وهـو مـايبرز نـوع الأوراش الثقافيـة التـي أراد الـوزاني الإسـهام فيهـا وتأطيرهـا إعلاميـا بحيـث يمكـن اعتبـار دفـع داء الانفصـام عـن الوعي المغربي بخلق جسور ناعمة بين القديم والجديد أولاها عنده.

ولـذلك تجـده فـي مذكراتـه يرصـد التيـارات التـي تتجـاذب السـاحة الفكريـة المغربيـة وميولاتهـا مـن خـلال تتبـع التـداول الثقـافي للمجـلات بالسـاحة المغربيـة، إذ تعـددت روافـد التـأثير مـن مشـرق ومغـرب وظهـرت منـابر تتلقفهـا النخبـة المغربيـة كالشـهاب والمنـار والعـروة الـوثقى وغيرهـا، مـع العلـم أن سـلطات الحمايـة كانـت تعـوق كـل محـاولات الانفتـاح الثقـافي للمغاربـة، خصوصـا أن هـذه المنـابر لـم تكـن تعنـى بالثقافـة بمفهومهـا العـام بـل كانـت تتنـاول شـؤون المغـرب السياسـية وتفضـح أشـكال الاسـتلاب الحضـاري للاحـتلال الفرنسـي، بـل منهـا مـن كـان يعلـن رسـالة الإصـلاح الـديني والسـلفي الشـامل باعتبـاره سـبيلا للنهضـة والتحـرر. ومثـل هـذا الإدراك الثقـافي والحـس السياسـي والإصـلاحي لمحمـد بـن الحسـن الـوزاني هـو الـذي جعلـه يقـدم حصـيلة الكتـب الإصـلاحية عنـد حديثـه عـن آثار"حركـة النهضـة الشـرقية" فـي "النهضـة المغربيـة الفتيـة" ضـمنها مذكراتـه حيـث

أكـد أن "لحركـة الكتـب الـواردة مـن المشـرق أثرهـا الكبيـر فـي الأوسـاط المثقفـة المغربيـة التـي كانـت تتجلـى فيهـا روح النهضـة والتجديـد ويتقـوى فيهـا الشـعور الـوطني باسـتمرار، وبـالرغم عمـا كانـت تتخـذه السـلطات الفرنسـية مـن إجـراءات المنـع ضـد الكتـب المستنهضـة لهـم والمثيـرة للمشـاعر الوطنيـة، فـإن أغلـب وأهـم هـذه الكتـب كانـت تفـد إلـى المغـرب وتـروج بـين الشـباب خاصة..."

ومـن بـين الكتـب التـي كانـت تسـتأثر باهتمـام النخبـة آنـذاك مؤلفـات الإصـلاح الـديني لكـل مـن الأفغـاني وعبـده ورشـيد رضـا والتـي صـنفها الـوزاني ضـمن الثقافـة السـلفية لـيعلن عـن مشـربه فـي الإصلاح الديني والفكري على أسس سلفية كغيره من رواد المرحلة.

كـان محمـد بـن الحسـن الـوزاني رحمـه الله صـاحب مشـروع مجتمعـي يعبـر عـن اطـلاع فكـري واسـع دفعـه ليعمـل علـى الواجهـة الثقافيـة إعلاميـا وإن كـان قـد اسـتفرغ جهـده فـي العمـل والتنظـيم السياسيين.

وختامـا، فـإن المرحـوم كـان يـرى بـأن العمـل الـوطني منظومـة متكاملـة لا تتجـزأ، تتظـافر مختلـف المناشط من أجل خدمته على الوجه المطلوب والأكمل.

حزب الشورى والاستقلال والمغاربة اليهود: الإدماج عبر بوابات العمل السياسي

محمد الحاتمي

يقف المتصفح لأعداد جريدتي الرأي العام وDémocratie الصادرة في الفترة التي تلت حصول المغرب على الاستقلال على مواد متنوعة لها صلة بوضع المغاربة اليهود وسبل إدماجهم في المجتمع المغربي الجديد. لقد كانت الرأي العام أول منبر أثار قضية وجود منظمة صهيونية تسهر رسميا على تنظيم ترحيل اليهود المغاربة انطلاقا من مكاتبها في الدار البيضاء، ونادت بضرورة وضع حد لهذه الأنشطة، وهو المقال الذي استندت عليه الحكومة فورا من أجل إغلاق مكاتب منظمة كاديما، الدرع الرسمي للمنظمة الصهيونية في المغرب. وعلى صفحات Démocratie اعتاد كبار المثقفين اليهود من أمثال Carlos de Nesryو VictorMalka على نشر مقالات تعرض مقترحات واقعية وعملية كانوا يرمون من خلالها تحقيق تصالح حقيقي بين المغاربة اليهود والدولة المغربية، والتدشين لمرحلة جديدة تقوم على الثقة والاعتراف بالحقوق الخاصة. والواقع أن حزب الشورى والاستقلال كانت له مواقف جريئة في معالجته لقضايا المغاربة اليهود، وهي مواقف لم تفهم في حينها، بل اعتبرت في زمن المزايدات والمضاربة السياسية من قبيل الخيانة والتنكر والانهزامية... ونجد في كتيب ادريس الكتاني المغرب المسلم ضد اللادينية الصادر بالدار البيضاء سنة 1958، خير نموذج لسوء الفهم المقصود والمسخر حيث أفرد الكاتب مساحة مهمة للتنديد بمواقف الحزب في قضايا المغاربة اليهود معتبرا إياها متصهينة. وواقع الأمر أن تلك المواقف كانت غاية في الواقعية لإدراك زعماء الحزب لموازين القوى الوطنية والعالمية، ولوعيهم بأن المد الصهيوني في المغرب بلغ من القوة ما يستوجب للرد عليه والحد منه اعتماد مقاربة ذكية عوض التمادي في المقاربة الأمنية الصرفة التي على كل حال أفادت المد الصهيوني وخدمته من دون أن تدري. ومهما يكن، فإن مواقف الحزب لم تكن وليدة الفترة، بل هي تراكم لمعرفة قبلية بحقائق الأمور نود في هذه المداخلة المركزة أهم محطاتها.

كانت أطر حزب الشورى والاستقلال من أوائل الشخصيات التي عمل المؤتمر اليهودي العالمي على ربط الاتصال بهم في إطار خطة مدروسة كانت ترمي إلى إدماج النخب اليهودية في منظومة العمل الوطني ليكون لها نصيب في الحركة الوطنية، التي كان المؤتمر يعرف أنها لا محالة يتخرج منتصرة في صراعها ضد سلطات الحماية. فمن خلال متابعتهم لتطور الأوضاع المغرب، لاحظ أطر المؤتمر اليهودي أن موجة العداء لليهود أخذت أبعادا لا يمكن ردها جميعا إلى مضاعفات الصراع العربي الفلسطيني، واعتباره مصدرها الوحيد.

وانتبهوا إلى أن القوى الوطنية المحافظة تساهم بطريقة أو بأخرى في الترويج لثقافة المعاداة لليهود، وهي مسألة تبعث عن القلق وتستلزم اتخاذ تدابير عملية للحد من مضاعفاتها. وعليه فإنهم جعلوا من ربط الاتصالات بالقوى الليبرالية في البلدان الإسلامية غاية مستعجلة ظنا منهم أن لها ما يكفي من أدوات التأثير لتحويل وجهات الغضب الشعبي من استهداف اليهود ومصالحهم، إلى قوة إيجابية تهدف إلى تحقيق الانسجام بين الأغلبية المسلمة والأقلية اليهودية، في انتظار الوصول إلى توافقات عامة تضمن السلامة والأمن للجميع. ومن أولى الشخصيات المغربية التي تم الاتصال بها الأستاذ عبد القادر بن جلون، الذي بدوره أخبر رئيسه بالموضوع، فشجعه هذا الأخير على المضي قدما في الاتصالات مع أطر المؤتمر اليهودي العالمي لإدراكه من جهة لقوة اللوبي اليهودي في دعم القضية المغربية، ومن جهة أخرى لكسب المغاربة اليهود لصالح القضية المغربية وفي ذلك إضعاف لكفة الإدارة الاستعمارية في المغرب. والظاهر أن حسابات الوزاني كانت واضحة، ورمت إلى تحقيق مكاسب على ثلاثة مستويات :

-التأثير على اليهود المغاربة وكسبهم لصالح القضية المغربية وتشجيع فعاليات يهودية من خارج الدوائر المتعاملة مع السلطات الفرنسية على الالتحاق بصفوف الحركة الوطنية، ليكون لها مستقبلا نصيب في المناصب العليا في تسيير وتدبير الشأن العام الوطني.

-كسب تأييد الرأي العام الفرنسي عبر التأثير على السياسيين اليهود الفرنسيين والمتعاطفين معهم.

- التأثير على صانعي القرار في الولايات المتحدة الأمريكية -الذين اتسم موقفهم حتى نهاية سنة 1954 بالسلبية تجاه القضية المغربية- لأن استمالتهم تسهل المأموريات داخل أروقة منظمة الأمم المتحدة.

كان حزب الشورى والاستقلال أول من فاتح السلطان محمد بن يوسف في موضوع وجوب الحديث عن المغاربة اليهود وتخصيص نصيب من اهتماماته بهم، ويعود الفضل لعبد القادر بنجلون خلال إحدى زياراته لمدغشقر لطرح فكرة استوزار شخصية يهودية في أول حكومة للاستقلال، وهي الفكرة التي نالت استحسان السلطان وتبناها من دون تردد، اعتبارا منه أنها ستكون فاتحة لعهد جديد في تاريخ المغرب المعاصر.

وفي هذا الإطار، أي في إطار التأسيس لثقافة جديدة تأخذ بعين الاعتبار مشاغل المغاربة اليهود وارتقاباتهم، سعت أطر حزب الشورى والاستقلال خلال أيام انعقاد مؤتمر إيكسليبان

إلى عقد لقاءات بين ممثلين عن اليهود والوطنيين المسلمين، كان أهمها الذي حصل في إحدى مقاهي المدينة، وضم ممثلين عن الحزب وحزب الاستقلال ومسؤولين عن مجلس الجماعات اليهودية الذي كان يرأسه جاك دهان، وهو الاجتماع الذي بدا فيه واضحا أن النخب اليهودية القديمة غير قادرة على رفع التحديات الآنية، وأنه من مصلحة الجميع الاعتماد مستقبلا على نخب يهودية جديدة منبثقة من الدوائر الليبرالية، وهؤلاء هم من سيراهن عليهم حزب الشورى والاستقلال، وأهمهم جميعا سام بنزراف الذي يمكن نعته بأكثر المغاربة اليهود شورية، وسيلعب أدوارا مهمة كإطار حزبي، أو في وقت لاحق كمقرب من ولي العهد الأمير مولاي الحسن.

وتبقى أهم محطات الحزب في سعيه لإدماج المغاربة اليهود هو التصريح الصحافي الذي أدلى به عبد القادر بنجلون لأسبوعية الجويشكرونيكل، وهي إحدى أكثر النشرات اليهودية العالمية تأثيرا ونفاذا، ويمكن وفق جميع المواصفات اعتبار التصريح وثيقة مؤسسة ليس فقط للعلاقات مع المغاربة اليهود، وإنما للتصور العام لما يجب أن تكون عليه الدولة المغربية بعد الاستقلال.

قد يقول قائل إن هذا الجيل الأول من الوطنيين كان طوباويا ومثاليا، والحق أن الوطنية من دون طوباوية ولا مثالية لا تستحق أن توصف بالوطنية. المهم أن حزب الشورى والاستقلال ظل فيما يتعلق بالمغاربة اليهود وفيا لمبدأ حرية التنقل، أي أن يهاجر كل يهودي يرغب في ذلك من بلده صوب أي بلد آخر، شريطة توفره على الوثائق التي تسمح له بذلك، وأن لا تُرحله جهة تعتبر عدوة في خدمة بلد يعبر هو الآخر عدوا، وهو للإشارة نفس ما كان يؤمن به المهدي بن بنبركة، وكان ينعته بالهجرة الطبيعية.

كان ظن الحزب أنه بالإمكان الحد من المد الصهيوني من خلال تثبيت أواصر الثقة بين المواطنين اليهود والدولة المغربية ومؤسساتها. وقدجعل الحزب من استقطاب النخب اليهودية واجبا وطنيا اعتبارا منه بأن العمل الحزبي هو أضمن الوسائل لتحقيق وتكريس الغايات الوطنية المشتركة. وقد قرر الحزب عدم تأسيس شعبة يهودية مستقلة لاعتقاده بأن المساواة الكاملة تفترض الاندماج في الإطارات الموجودة من دون ميز.

في حقيقة الأمر، لم تختلف مقاربة حزب الشورى في استقطاب العناصر اليهودية من حيث الأسلوب والآليات من التي اعتمدها حزب الاستقلال. فهو في مخاطبته لليهود، شدد أساسا على ملامح الصورة الإيجابية التي اكتسبها محمد بن الحسن الوزاني عند مثقفيهم. فالزعيم

الشوري وظف خير توظيف تكوينه العصري وقناعاته الليبرالية وتشبعه بالأفكار الإنسية التي تجعل من القانون الأساس في مسيرة قاطرة التقدم عبر اعتماد دستور مصادق عليه ومجالس دستورية منتخبة تضم ممثلين عن جميع مكونات المجتمع المغربي. وشدد الوزاني في اللقاءات التي جمعته بفعاليات يهودية على "عبقرية الجنس اليهودي" وبمساهمة اليهود المغاربة في معارك التحرير التاريخية، فخلص إلى ما للدولة المغربية من واجبات إزاء مواطنيها اليهود ووجوب استفادتهم من ثمار الاستقلال خاصة ما له علاقة بتشجيع الاستثمار والتخفيف من عبئ الضرائب والتحملات الاجتماعية. ثم إنه راعى باستمرار التأكيد على أن الإجراءات "الشعبوية" لا تتوافق وما يرتقبه اليهود، حيث عبر في العديد من المناسبات وبصراحة عن رفض حزبه للقرارات الحكومية التي تمس بالحريات الأساسية معتبرا إياها غير مشروعة مهما كانت الاعتبارات التي دفعت إلى اتخاذها. ولجعل هذا الخطاب أكثر نفاذا، أوكل حزب الشورى والاستقلال لسام ناحون مأموريات الترويج لرؤى الحزب في موضوع مكانة اليهود المغاربة داخل مجتمع مغربي يسعى إلى ضبط العلاقات بين الحاكمين والمحكومين على أسس ليبرالية يضمنها القانون والمشاركة المباشرة في المجالس التمثيلية.

وحاصل القول إن المقاربة العقلانية لحزب الشورى والاستقلال ساهمت في خلق جو عام مساعد على تهدئة الأنفس وطمأنة فئات عريضة من المغاربة اليهود. ولكن رياح التهجير الصهيوني كانت أقوى بكثير من النيات الحسنة، ففشل الحزب والأحزاب الأخرى والدولة المغربية في كسب ما أسماه كارلوس نصري في مقال له على صفحات جريدة Démocratie "رهان البقاء في المغرب المستقل".

كيف استقبلت سلا محمد الخامس يوم عودته من المنفى مساهمة حزب الشورى والاستقلال نموذجا

هذا اللقاء العلمي يعقد كما تعلمون في غمرة الاحتفالات بعيد الاستقلال، وبذكرى عزيزة علينا، وهي عودة المغفور له السلطان محمد الخامس وأسرته الشريفة من المنفى السحيق بمدغشقر وكرسيكا، إلى نزل خاص "بقصر سان جيرمان أولي" بفرنسا، بعد أن لم تفلح مكائد الاستعمار وجبروته في الحد من تعاظم وانتشار رقعة المقاومة ضد الاحتلال الفرنسي والإسباني بكل التراب المغربي[1]، فبفضل التحام الشعب المغربي بالعرش، ورفضهما معا لكل أشكال المناورات الاستعمارية، لم يسع الحكومة الفرنسية إلا أن تتخذ قرارات مستعجلة بعزل السلطان المصطنع محمد ولد مولاي عرفة[2]، وتشكيل مجلس مغربي للوصاية على العرش سمي "حراس العرش"، وإرجاع السلطان الشرعي محمد الخامس من المنفى إلى فرنسا لإجراء المفاوضات الأخيرة من أجل منح المغرب استقلاله التام والمشروع. وهذا ما حصل بالفعل حيث بدأت المفاوضات مع جميع القوى السياسية المغربية بإيكس ليبان[3]، وانتهت بمفاوضات أخرى تقنية بباريس بين حكومتي فرنسا والمغرب، توجت بالتوقيع على معاهدة الاستقلال يوم الثاني مارس سنة 1956م.

في هذه اللحظات التاريخية الصعبة والدقيقة، طارت الوفود المغربية وعلى رأسها المكتب السياسي لحزب الاستقلال، والمكتب السياسي لحزب الشورى والاستقلال ويتكون من السادة: الأمين العام محمد حسن الوزاني، عبد الهادي بوطالب، محمد بن المؤقت المراكشي، وإدريس الكتاني، وسيدي محمد الشرقاوي، والعلامة ابراهيم الهيلالي المكناسي، والمجاهد الحاج أحمد معنينو السلوي[4].

ونخبة من علماء القرويين، وممثلو الطائفة اليهودية بالمغرب وغيرهم، للاجتماع بالسلطان محمد الخامس مباشرة بمقر إقامته المؤقتة بفرنسا، وأثناء هذه اللقاءات بكى الجميع من شدة الفرح بالنصر وعودة الحق إلى نصابه، نشوة الفرح لم تنس السلطان المسؤوليات الملقاة على

---

1. بعد إبعاد السلطان محمد الخامس إلى المنفى تحول العمل الوطني من مقاومة سياسية إلى مقاومة مسلحة، فردية وجماعية، عفوية ومنظمة، سواء في المدن أو البوادي، وفي تصاعد مستمر.
2. بعد توقيع محمد بن عرفة على وثيقة تنازله على العرش المغربي يوم السبت 01 أكتوبر 1955م، في سرية تامة نقل على متن طائرة خاصة إلى طنجة، حيث أقام بقصر السلطان مولاي عبد العزيز، وبعد الاستقلال نقل إلى مدينة نيس بفرنسا، دون علم الحكومة المغربية، وظل هناك إلى وفاته سنة 1976م.
3. يوم 23غشت 1955م انطلقت مفاوضات إيكس ليبان بفرنسا، ودامت خمسة أيام، وأسفرت على اتخاذ قرار تنحية ابن عرفة عن العرش، وكان الوفد المغربي يتشكل من 37 شخصية، وبعد استشارة السلطان محمد الخامس وافق على ضرورة بقاء مجلس العرش مؤقتا إلى حين عودته.
4. ويتكون من السادة: الأمين العام محمد حسن الوزاني، عبد الهادي بوطالب، محمد بن المؤقت المراكشي، وإدريس الكتاني، وسيدي محمد الشرقاوي، والعلامة ابراهيم الهيلالي المكناسي، والمجاهد الحاج أحمد معنينو السلوي.

عاتقه رغم أنه في الغربة، لذلك نبه الوفود المهنئة له بخطورة الانتقال من مرحلة الاستعمار إلى مرحلة الاستقلال، فطلب منهم أن يتخذوا كل الاحتياطات والترتيبات الضرورية ليتم هذا الانتقال الخطير والصعب في جو آمن وحضاري يعكس تاريخ المغرب وشخصيته الدولية، وأخبرهم بأن الشعب المغربي قاطبة ينتظر يوم عودته إلى أرض الوطن بكل لهفة وشوق، ولتفادي ما قد يعكر صفو هذا اللقاء الحماسي المرتقب، وما يتهدده من مؤامرات خارجية وداخلية قد يحيكها المستعمر وأعوانه من أجل وأد هذا اللقاء التاريخي المنتظر، ولتفادي كل هذه الأخطار المحتملة جدا كلف جلالته القادة السياسيين لحزب الشورى والاستقلال وحزب الاستقلال، باتخاذ الإجراءات العملية والممكنة من أجل إفشال كل عمل متهور أو طائش أو مبيت قد يحسب على سمعة المغرب أمام الصحافة العالمية التي حظرت وبكثافة لتغطية ونقل هذا الحدث الكوني الكبير، ولتفادي كل تعثر قد يسقط المغرب في منزلقات خطيرة وهو يخطو خطواته الأولى نحو بناء أسس الاستقلال الجديد. فالقوى الاستعمارية والمعمرين الأجانب والخونة المحليين كانوا جميعا يروجون دعاية خبيثة تسيء إلى الشعب المغربي بأنه لم ينضج بعد، وأنه مازال في حاجة إلى الحماية الأجنبية، والوصاية الفرنسية وذلك لمنع الفتن والفوضى والتسيب، وأنه في حالة ما وقعت أحداث خطيرة ستتدخل القوى الاستعمارية من جديد لفرض الأمن.

إذن الاحتياط واجب والعمل المنظم والمسؤول ضرورة ملحة في تنظيم الاحتفالات الجماهيرية المغربية المرتقبة بعودة الملك البطل إلى أرض الوطن وهو يحمل بين يديه بشرى الحرية والاستقلال، أول شيء نبه إليه هو ضرورة الالتزام بتأطير وحراسة كل الشوارع والطرق التي سيمر منها الموكب الملكي من مطار مدينة سلا إلى القصر العامر بتواركة-الرباط.

فعلا عادت الوفود السياسية والعلمية إلى المغرب على وجه الاستعجال والسرعة لتحضير وتنظيم مراسيم استقبال جلالته، كان الأمر صعبا بل مستحيلا لأن الجيش والشرطة ورجال الدرك والأمن وأعوان السلطة عامة كانوا خاضعين وتابعين بشكل مباشر للإدارة الفرنسية بالمغرب، والتي كانت حائرة ومصدومة تترقب الأحداث والتطورات يوما بعد يوم. إذن كان هناك فراغ أمني مهول وخطير يجعل أمن البلاد في مهب الريح، إذا ما تسلل بعض الجواسيس أو أعوان المستعمر أو الجهلة من العوام بين جموع الناس المحتشدين بكثافة وهم سكارى من نشوة الفرح، وقاموا لا قدر الله بأعمال استفزازية للمشاعر، قد تنشب عنها أعمال شغب وفوضى وعنف تفسد أجواء الفرح والانتصار.

ولإنجاح هذا العرس الوطني الكبير وتلطيف الأجواء السياسية وعودة الطمأنينة إلى قلوب كافة الشعب المغربي، تقدم حزب الشورى والاستقلال بملتمس سياسي مستعجل إلى أعضاء هيئة حراس العرش[5]، مجلس تكلف بتسيير أمور الدولة بشكل مؤقت كمرحلة انتقالية في انتظار عودة السلطان الشرعي إلى البلاد، والتوقيع بشكل نهائي على وثيقة الاستقلال قبيل مغادرة قوى الاستعمار أرض المغرب، وقد تخوف بعض الوطنيين من إقدام فرنسا على تأسيس مجلس العرش بالمغرب، خاصة وأن من بين أعضائه الحاج محمد المقري التلسماني[6] لذلك عارضوا هذه المبادرة، من بينهم العلامة محمد بلعربي العلوي، والعلامة عبد الله كنون[7].

إذن ولربح الوقت واستغلال هذه الظرفية السياسية الطارئة والنادرة، تقدم وباستعجال الأستاذ الحاج أحمد معنينو بالنيابة عن المكتب السياسي لحزب الشورى والاستقلال بالملتمس الآتي إلى مجلس حراس العرش، وثيقة تاريخية فريدة من نوعها، عثرت عليها صدفة ضمن وثائق الخزانة العلمية الصبيحية بسلا وهذا نصها الكامل:

ملتمس بمناسبة الحالة الحاضرة

1. **إصدار عفو على المعتقلين السياسيين المحكوم عليهم سنة فما دون، أو الذين لم يبق لهم في المقام في السجن إلا هذه المدة، وذلك بمناسبة عيد المولد النبوي ورجوع صاحب الجلالة إلى فرنسا - وإذا أمكن التصريح بأن هذا الإجراء بداية لعفو سيكون بإذن الله شاملا-.**
2. **إصدار عفو على المنفيين والإذن لهم بالرجوع إلى مساقط رؤوسهم لأنهم أبعدوا في سبيل الملك المفدى.**
3. **توقيف تنفيذ الإعدام على المحكوم عليهم – كما جرى ذلك بتونس بواسطة نفس المقيم- ينبغي الإسراع بهذا العمل في سبيل تحقيق هذه النقط الثلاث حتى يمكن أن تأتي بنتائجها المرجوة يوم العيد نفسه حيث تفتح أبواب السجون وتقر عيون المنفيين وذويهم وتطمئن النفوس على الأرواح المعلقة.**
4. **"برطوكول العيد" من خصائص مجلس حراس العرش، اختراع طريقة ملائمة تضفي على المجلس حلة الإجلال اللائقة به، وذلك باستدعاء العمال والقضاة ومختلف طبقات الشعب الشرفاء وأفراد العائلة الملكية بالخصوص والأحزاب الوطنية، وإن أمكن فليكن ذلك على نمط ما كان يجري في عيد العرش، وفي ذلك من الاتصال المباشر بالشعب والاعتراف العملي بالمجلس ما لا يخفى.**
5. **تركيب وفد من حراس العرش يمكن أن يشمل العاملين المشاركين في مفاوضات إكس- ليبان ، وفرد من كل حزب، ووفد مستقل أو حسب ما ترتؤونه وذلك للحضور في فرنسا لاستقبال صاحب الجلالة ساعة عودته، ويقدم له الطاعة والولاء باسم حراس العرش مع رسالة يحملها الوفد من المجلس وذلك ليجيب صاحب الجلالة عنها بما سيثبت ويقوي مركز المجلس ويقطع دابر كل تدجيل وتشويش.**

---

5. تشكل مجلس حراس العرش من طرف الجنرال بوايي دولاتور Boyer de tour في أواخر صيف 1955م من السادة المستشار محمد المقري والقبطان امبارك البكاي، والحاج محمد الصبيحي باشا سلا، والقائد أوعسو، والفاطمي بنسليمان، وتحددت مهام هذا المجلس في تشكيل حكومة مؤقتة تسير أمور الدولة المغربية إلى حين عودة السلطان الشرعي.
6. تقلد الصدارة العظمى سنة 1917م، شارك في المؤامرة التي أدت إلى خلع ونفي محمد الخامس سنة 1953م، في بداية عهد الاستقلال أبعد عن القصر الملكي وجرد من كل أملاكه وتوفي سنة 1957م. *المعلمة المغربية*، العدد 21، ص. 7235.
7. أصدر بيانا عبر إذاعة طنجة الدولية يعارض فيه تأسيس هذا المجلس، وطالب بضرورة بقائه مجلسا مؤقتا إلى حين عودة محمد الخامس.

6. **اختيار وفد من علماء القرويين ومختلف جهات المغرب للافتاء في موضوع دعاء خطبة الجمعة –مؤقتا- بما يناسب الظروف ويطمئن الأفكار، وإن أمكن إلقاء هذه الفتوى في الحفل الحافل المنوي إقامته يوم العيد، سيكون لذلك أثر بليغ إذ يعد هذا الجمع كبرلمان مصغر يمثل مختلف طبقات الشعب، ويكون ذلك دعوة إلى تعمير المساجد والقيام بشعائر الدين التي كادت أن تندثر وتضمحل – لا قدر الله - .**
7. **الابتعاد عن الموظفين المشبوه فيهم، واختيار أفراد من ذوي الكفاءات وخصوصا الذين أبعدوا عن القصر بمناسبة حوادث 20 غشت 1953م، هم الذين يكلفون من طرف المجلس بالقيام بشؤونه والتحدث باسمه تحت إشرافكم المباشر طبعا.**
8. **وإذا أمكن لعالم المجلس أن يؤدي مباشرة باسم المجلس وموافقته دعوة للشعب المغربي أجمع تشمل التهاني بعيد المولد النبوي والابتهاج بالرجوع إلى فرنسا، والدعوة إلى تعمير المساجد وإقامة الشعائر الدينية التي عليها بني هذا العرش العتيد.[8]**

وأخيرا تقبلوا هذه الملتمسات الصادرة عن إخلاص ووفاء للمغرب والإسلام والعاملين على إنقاذ هذا الوطن وعمدته بعد الله صاحب الجلالة نصره الله والله ولي التوفيق.

حرر في 05 ربيع الأول عام 1375هـ./ الموافق 22 أكتوبر 1955م.

الإمضاء: الحاج أحمد معنينو عن حزب الشورى والاستقلال.

فعلا استجابة السلطات العليا بفرنسا لهذه الملتمسات المستعجلة، وقامت بدعوة الإقامة العامة وباقي السلطات الاستعمارية المنهارة بالمغرب بتوقيف تنفيذ أحكام الإعدام الصادرة في حق رجال المقاومة وجيش التحرير، وممن استفادوا من هذا العفو في اللحظات الأخيرة أذكر على سبيل المثال: المقاوم الكبير أحمد بالبشير الودغيري[9]، عضو الحركة القومية وحزب الشورى والاستقلال، ومن مؤسسي المنظمة الفدائية الشهيرة "اليد السوداء" اعتقل وعذب وحوكم من طرف المحكمة العسكرية الفرنسية بالدار البيضاء، التي أصدرت عليه الحكم بالإعدام، لكن الألطاف الإلهية وتدخل رفاقه في الكفاح في الوقت المناسب حال دون تنفيذ حكم الإعدام عليه، وأطلق سراحه مباشرة بعد الاستقلال، توفي رحمه الله يوم 1993/10/12 ودفن بمقبرة الشهداء بالدار البيضاء.

الخطوة الثانية وبتعليمات من الزعيم محمد حسن الوزاني، قام فريق حزب الشورى والاستقلال بسلا بقيادة المجاهد الحاج أحمد معنينو، بعقد العديد من الاجتماعات بسلا والرباط من أجل التنسيق مع باشا سلا الحاج محمد بن الطيب الصبيحي[10] واللجان التابعة لحزب الاستقلال وتوزيع المسؤوليات والمهام، كما بعث الفريق الشوري السلوي برقيات مستعجلة

---

8. وثيقة نادرة نشرها الحاج أحمد معنيون في *ذكريات ومذكرات*، الجزء 11، طنجة، مطبعة سبارطيل، 1991، ص. 167 و 168.
9. أنظر ترجمته الكاملة *بمذكرات الحاج أحمد معنينو*، الجزء 9 ،ص. 204، وبمؤلفه *من مظاهر التعذيب الحزبي أو دار بريشة الثانية*، بقلم الأستاذ المناضل عبد الله الرداد، ص. 138، مطابع سلا، 1990.
10. تولى باشوية سلا سنة 1914م إلى بداية عهد الاستقلال، كان فيها مثال السياسي الحازم اللبق الذي مرت في فترته أزمات شديدة وعرف كيف يعالجها بخبرة وحكمة، وكان له شرف تقديم صينية الحليب والتمر للسلطان محمد الخامس لحظة نزوله من سلم الطائرة التي حملته من المنفى إلى مطار سلا، وكان بيته كعبة الزوار من العلماء والفضلاء والأولياء، وهو صاحب مكرمة الخزانة العلمية الصبيحية بباب سيدي بوحاجة، سلا.

إلى كل فروع الحزب بالدار البيضاء وفاس ومكناس والخميسات وتيفلت والقنيطرة، ومدن أخرى من الشمال كوزان وطنجة والقصر الكبير وأصيلا والعرائش وغيرها، لتتجند من أجل إرسال العديد من شبيبة الحزب الملتزمة، والمتطوعين وقادة منظمة الكشافة المغربية الإسلامية على وجه السرعة وبنظام وانتظام إلى مدينة سلا، للمشاركة في فرض الأمن وتنظيم حركة السير والجماهير تفاديا لكل ما قد يعكر صفو عرس الاستقبال، وفعلا توافد على مدينة سلا أعداد كبيرة من قادة حزب الشورى والكشفية من أجل تأطير المتطوعين الشباب، ما يناهز خمسة آلاف شخص مزودين ببعض الأغطية والمواد الغذائية، وقد تم إسكانهم لأيام قليلة قبل وصول السلطان إلى المغرب بالعديد من الدور والمساجد، وخاصة المسجد الأعظم، وتم إلباسهم بذلة موحدة في الشكل واللون مع وضع طرابيش حمراء فوق رؤوسهم لتمييزهم عن باقي الناس، كتب عليها "حزب الشورى والاستقلال"، وكانوا بدون سلاح. كانت أقسام مدرسة الأميرة لالا عائشة بحي الطالعة زنقة سيدي مغيث بسلا مقر القيادة الشورية المنظمة والمؤطرة لهذا الحدث، وتكفلت النساء الشوريات المنضويات داخل جمعية "أخوات الصفا" بتأطير العنصر النسوي[11]، وإسعاف ضعاف الصحة، وطهي الطعام على الفحم والحطب وبالليل والنهار لكل هؤلاء المتطوعين، وعلى رأس فرع المنظمة المذكور بسلا السيدة لالا زينب العلوية، ولالا خدوج العلوية، وحليمة بلقاضي، والسيدة هطالة زوجة الأديب عبد المالك البلغيتي، ولالا السعدية القادري زوجة أحمد معنينو وأخريات من آل السفياني وآل عواد وآل بنغموش وآل حجي، ومن فاس السيدة حبيبة جسوس والسيدة الصقلي، ومن الدار البيضاء السيدة آمنة حرم الأستاذ الكتاني، ومن آسفي عائشة الخزامي ومريم الوزاني وكلثوم التريكي، ومن سطات نعيمة بناني وغيرهن كثير.. إضافة إلى هذا الشق الأمني عملت اللجنة الشورية السلوية بتنظيف وتجميل العروس سلا وهي تستقبل عريس الحرية القادم من المنفى، بتعاون مع رجال الحرف الأحرار، باعتبارهم الدرع الشعبي القوي الذي شارك في كل أنشطة الحركة الوطنية، هؤلاء الجنود المجهولون قاموا وبشكل تطوعي وتلقائي بصنع أقواس النصر، وتصفيف الأسلاك الكهربائية بالمصابيح، أما الخطاطون قد قاموا بكتابة اللافتات والمناشير، والرسامون أبدعوا في رسم صور جلالة الملك وولي عهده، وشعار المملكة المغربية والعلم الوطني على الألواح واللافتات وغير ذلك، وكانت مدينة سلا خلال هذا العرس الوطني كخلية نحل تشتغل بالليل والنهار. أما خارج أسوار المدينة وعلى طول الطريق إلى مطار سلا المدني

11. عملت النساء والفتيات الشوريات إلى جانب أخيها الرجل من أجل الخروج بالمرأة المغربية من عهد الجمود والانكماش إلى عهد النهضة والعمل الخلاق، و قد أصدر الحاج أحمد معنينو كتيب صغير عن جمعية أخوات الصفا، نشرته مؤسسة محمد الحسن الوزاني سنة 1996م.

امـتلأت بخيـام وخيـل قبائـل احصـين والسـهول وعـامر وزمـور وبنـي احسـن وزعيـر ابتهاجـا ببزوغ فجر الاستقلال.

وقـد تـم الاتفـاق بـين المسـؤولين الشـوريين والاسـتقلاليين علـى تقسـيم الطريـق الرابطـة مـا بـين مطـار سـلا المـدني، وبـاب السـفراء مـدخل تواركـة بالربـاط، ليتكلـف كـل حـزب بتـزيين ومراقبـة المسـافة المخصصـة لـه، هكـذا تكلـف حـزب الاسـتقلال بالقسـم الأول مـن الطريـق مـا بـين مطـار سـلا المـدني والـذي سـتحط بـه الطـائرة الملكيـة إلـى مفتـرق الطـرق جهـة سـوق الخمـيس أي حـي السـلام حاليـا، وتكلـف حـزب الشـورى والاسـتقلال بالقسـم الثـاني أي مـن مفتـرق الطـرق حـي السـلام بسـلا إلـى مستشـفى "ديبـارو كبيـر" بالربـاط، مـرورا بقنطـرة سـيدي بوسـدرة الرابطـة بـين العـدوتين، ثـم تكلـف حـزب الاسـتقلال بباقي الطريـق حتـى بـاب السـفراء، أمـا داخـل تواركـة فقـد كانـت عمليـة مشـتركة بـين الحـزبين الـوطنيين وسـكان تواركـة، وكـان علـى رأس اللجنـة الشـورية السـلوية المجاهـد الحـاج أحمـد معنينـو ورفاقـه فـي الوطنيـة أذكـر مـنهم: عبـد السـلام بنسـعيد وعثمـان وأخويـه علـي وعبـد العزيـز الأحـرش والعربـي السـفياني والمنتصـر الكتـاني وعبـد الـرحمن وأخـاه العربـي معنينـو وأحمـد عـواد وأحمـد السـفياني وعبـد القـادر الشـاوي الـدرزي، وعلـي وأخـاه إدريـس المنيـوي، وامحمـد فنـيش ومحمـد زنيبـر والحسـن البزيـوي والحـاج عمـر بنسـعيد وعبـد الـرحمن لعلـو ومحمـد بـن الصـغير السـهلي وعبـد الـرحمن وأخـاه محمـد أمـلاح وعبـد المجيـد الـدكالي وأبـو بكـر الحسـناوي وعبـد الـرحيم بالحـاج وبـن عـلال بـوكرين وعبـد القـادر الـودغيري وعبـد الله عـواد وبوسـلهام المنصـوري وعبـد القـادر التهـامي الـوزاني وأحمـد التونسـي والراضـي محمـد ومحمـد الصـبيحي وعمـر الفاسـي وإدريـس أمبوزيـد والرسـام شـعبة وعـدد آخـر مـن المناضـلين الـذين شـاركوا فـي صـنع هـذا الحـدث العظـيم، وغيـرهم مـن قـادة كتيبـة الأطلـس التابعـة للكشـفية المغربيـة الإسـلامية. ومـن الربـاط أعضـاء حـزب الشـورى أذكـر مـنهم إدريـس روديـاس وأخـاه المختـار، وعبـد القـادر الشـرقي، ومحمـد الهـريم ومحمـد كراكشـو والطـاهر بريشـة وإدريـس المعروفـي والحجمري بلحجام وآخرون..[12]

وفـي يـوم 16 نـونبر 1955م عـاد محمـد الخـامس مـن المنفـى إلـى مطـار سـلا المـدني حـاملا معـه بشـرى الاسـتقلال والحريـة، وكـان فـي اسـتقباله حشـود غفيـرة مـن شـعبه الـوفي، تؤطرهـا وتنظمهـا فيـالق مـن الشـباب الشـوري الـذين حضـروا قبـل بضـعة أيـام إلـى مدينـة سـلا بلباسـهم الكـاكي الجميـل الشـبيه باللبـاس العسـكري، حيـث قسـموا إلـى عـدة جماعـات برؤسـائها ومآكلهـا ومشـاربها وزعـت علـى جنبـات الطريـق الـذي مـر منـه موكـب السـلطان، وهـي متماسـكة بالأيـدي علـى شـكل سلسـلة

12. معظم تراجم هؤلاء الجنود المجهولين متوفرة في مؤلفات المجاهد الحاج أحمد معنينو *ذكريات ومذكرات*، عددها 11 جزءا.

بشرية كدرع لحفظ النظام والأمن، في منظر بديع وأنيق كما تشهد بذلك كل الأفلام والصور التاريخية التي لازالت التلفزة المغربية تقدمها للجمهور كل سنة في يوم ذكرى عيد الاستقلال المجيد.

هكذا ساهم حزب الشورى والاستقلال بقيادة فرعه بسلا في تنظيم مراسيم عودة ملك البلاد إلى عرشه المفدى، وقد تلقى الأستاذ عبد القادر بنجلون الأمين العام بالنيابة للحزب المذكور برقية تهنئة بإسم السلطان محمد الخامس، من رئيس الوزراء المعين من قبل حراس العرش الأستاذ الفاطمي ابن سليمان[13]، وهذا نصها:

> برقية من صاحب الجلالة إلى حزب الشورى والاستقلال
> بأمر من جلالة السلطان كلفني مجلس العرش بأن أحمل إليكم تهانيه بالمشاركة الفعالة التي قامت بها منظمتكم، ولحسن نظام المظاهرات المنظمة بمناسبة عودة جلالته.
> وإني لسعيد بأن أرفع لكم تهانيه مشفوعة بتهانئي الخاصة على حسن هيئة المتطوعين للمحافظة على الأمن والتي نظمتموها. إمضاء: الفاطمي بن سليمان.

وأختم دراستي هذه بما جاء في أول خطاب وجهه محمد الخامس إلى المغاربة بعد عودته من المنفى يوم 18 نونبر 1955م، معلنا نهاية عهد الحجر والحماية وبزوغ فجر الحرية والاستقلال، ودعا فيه إلى المزيد من الاستنفار ولابد من شحد الهمم، إذ الإطاحة بنظام الحماية كان أمرا يسيرا على ما تطلب من جسيم التضحيات، بالنظر إلى مهمة بناء دولة الاستقلال، وتجديد صرح أدوات الحكم، واستثمار الخيرات على قدم المساواة بين المغاربة مع إشراكهم في تدبير الشأن العام، بعدما أبلوا البلاء الحسن في تحريرها.

13. نشرت بجريدة *الرأي العام* عدد 261، الصادرة بتاريخ 19 نوفمبر 1955م

حزب الشورى والاستقلال بآسفي

علال ركوك

بداية نود الإشارة إلى نقطة منهجية تتعلق بعدم ذكر مجموعة من الرموز والزعامات كان لها وزنها ولعبت أدوارا طلائعية في عهد الحماية. لتفادي مثل هذه الملاحظات وهذا النقص وجب الاهتمام بالتاريخ المحلي والجهوي الذي يوظف في نفس الآن الذاكرة الجماعية والذاكرة التاريخية التي تمكن بفضل تدخل المؤرخ بأدواته العلمية والمنهجية من تجاوز هذه القفزات وردم هذه الفراغات. ومن هذا المنطلق وفي هذا السياق تأتي هذه الدراسة حول حزب الشورى والاستقلال انطلاقا من جهة محددة ويتعلق الأمر بمدينة آسفي.

ركزت جل الكتابات الأدبية التي اهتمت بحزب الشورى والاستقلال، على هياكل الحزب وزعمائه وأنشطته، لكنها اقتصرت على مستوى القيادة والمركز، وهذا نسجله عند أهم من كتبوا أمثال محمد بن حسن الوزاني أو أحمد معنينو أو عبد الهادي بوطالب، وإذا كان القارئ يحصل على معلومات حول مسيرة هذا الحزب العتيد الذي سجل توجها جديدا ورسم تصورات مخالفة لبقية الأحزاب، خصوصا في طرق التعامل مع سلطات الحماية ومقاومتها وكذلك في تصور الاستقلال إلى غيرها من الإشكاليات ذات الراهنية وقتداك، مقابل هذه الوفرة بخصوص الزعامات والقيادة فإن هياكل هذا الحزب ومناضلوه على صعيد الفروع بقيت طي الهوامش نظرا لمجموعة من العوامل منها ضعف القاعدة الجماهيرية للحزب وكذلك نظرا للمنافسة الشرسة التي كان يلاقيها من طرف خصومه السياسيين، وحتى نساهم في إبراز جزء من الدور الذي لعبه هذا الحزب وما سجله مناضلوه من مواقف بطولية على صعيد الفروع نتتبع حلقات من مسيرة هذا الحزب النضالية منذ نشأته انطلاقا من جهة معينة ومحدودة مجاليا. ويتعلق الأمر بمدينة آسفي وجهة عبدة واحمر.

المصادر:

تقف هذه الإشكالية أمام الباحث كلما نبش في موضوع منسي أو مغمور لم يأخذ حقه من البحث وهذا راجع طبعا إلى دونيته مقارنة مع الأحداث الأخرى البارزة والتي تستحوذ على اهتمام الباحثين. وخلاف ذلك فإن تلك الأحداث المحصورة لا ينتبه إليها أحد ويكون مصيرها الزوال بزوال الفاعلين فيها. ولعل هذه هي حالة حزب الشورى والاستقلال بمدينة آسفي، حيث لا يصادف الباحث أي من الوثائق التي تجعله يستنير بها.

ومحاولة منا لكشف بعض جوانب أنشطة هذه المؤسسة الحزبية ونشطائها. فقد عمدنا بداية إلى النزول إلى الميدان وذاك للاتصال بعناصر الحزب الذين لازالوا على قيد الحياة والذين صادفنا منهم واحدا فقط وهو السيد الخزامي، كما كان لنا اتصال بمجموعة من المناضلين الآخرين من حزب الاستقلال الذين كانت لهم علاقات وطيدة مع الشوريين.

وحاولنا أن نكمل بعض المعلومات من خلال تتبع صفحات جريدة الرأي العام وكانت المعلومات عبارة عن حوادث شارك فيها الشوريون وبعض أنشطة الحزب.

وعن طريق هذه المصادر على اختلاف أنواعها حاولنا رسم صورة لواقع حزب الشورى والاستقلال بآسفي، قريبة من الحقيقة التاريخية في حدود ما تسمح به الوثائق، على أساس تحيين كل هذه المعلومات وإضافة كل الوقائع كلما سمحت الظروف بذلك.

الإرهاصات الأولى للعمل الوطني بآسفي خلال العشرينيات

عشية توقيع عقد الحماية سجل المغاربة قاطبة رفضهم لهذا الحدث، وأعلنوا الجهاد والحرب على المستعمر بداية بأحداث فاس الدامية وما تلاها من أحداث في المناطق المغربية برمتها.

ولم تخرج حاضرة آسفي عن هذا المسار حيث دشن جيل من الشباب المتعلم خصوصا الذين سبق لهم أن درسوا في القرويين أو في كلية ابن يوسف بمراكش وكانوا يتتبعون عن كثب ما يجري في البلاد، أولى التحركات ضد السلطات الاستعمارية.

فخلال العشرينيات شرع بعض هؤلاء الشباب الآسفيين في تنظيم صفوفهم عن طريق تأسيس نوادي ثقافية وجمعيات سرية جلبوا إليها كل المتعلمين من الفقهاء والعلماء والمدرسين وغيرهم وخططوا لاختراق طبقات الجماهير، عن طريق بث روح الوعي الوطني وإشعار الناس بواقعهم في ظل الإستعمار، وجندوا لذلك كل السبل المتاحة لهم مثل دروس الوعظ والإرشاد ودروس محو الأمية وخطب الجمعة وغيرها.

ولعل هذه التحركات الأولى المبكرة على صعيد آسفي المدينة جعلت الآسفيين على اتصال بقادة الحركة الوطنية بفاس وسلا والرباط، كما ان استقرار وقدوم بعض الوطنيين إلى آسفي من مدن أخرى ساهم في شد عضد هؤلاء الشباب.

اعتنى هؤلاء الشباب الأسفيون بدارستهم وفهمهم للعقيدة الإسلامية وفق تطورات جديدة تنمي وتساهم في بلورة وعي وطني كفيل بتوعية الناس ومرروا ذلك للعموم عن طريق الدروس التي كانوا يلقونها في حلقات العلم والتدريس والوعظ وخطب الجمعة وغيرها.

ومنذ سنة 1928 بعد زيارة العلامة أبو شعيب الدكالي لآسفي انخرط كل علماء وفقهاء المدينة في تيار السلفية. إثر ذلك انتظمت جماعة من الآسفيين بزعامة السيد محمد البوعمراني الذي كان قد عاد من الدراسة بالقرويين وكانت له صلات وطيدة مع الشباب الوطني بفاس وغيرها من المدن الأخرى. وقد عمل هذا الأخير في البداية صحبة المهدي الكراوي ومحمد الكراوي على تأسيس مكتبة لبيع الكتب والجرائد، وابتداأ من هذه السنة عملت هذه المجموعة إضافة إلى وطنيين آخرين أمثال أحمد البوعمراني والطيب الفيلالي وآخرين على تأسيس جمعية سرية سياسية كانت تصدر مجلة اسمها الدروس.

في سنة 1929 تعرفت الجماعة الآسفية على اشماعوا الذي قدم لآسفي لزيارة خاله زنيبر الذي كان ناظرا بآسفي، وخلال هذه المناسبة دعاهم للقدوم إلى الرباط للاتصال بقيادات العمل الوطني الذي كان في بداية تكونه وبعد اتصال جماعة آسفي بأقطاب الوطنية بالرباط اقترحوا عليهم العمل في سبيل نشر الوعي الوطني عن طريق جمع الشباب وتوعيتهم.

بعد هذه الاتصالات الأولى شرع الشباب الآسفي في التخطيط لأولى تحركاته لنشر وتعميم الوعي الوطني وفي هذا الإطار أقام الباعمراني سنة 1930 مقرا اتخذته الجماعة كنادي لها تمارس فيه أنشطة فكرية وثقافية وترفيهية، حيث أسسوا جوق موسيقي وفرقة مسرحية إضافة إلى إعطاء الدروس.

توسعت هذه الجمعية لتضم كل الفقهاء والعلماء الآسفيين المتنورين المتبنين للتيار السلفي المحرر، نذكر منهم الفقيه الهسكوري و الفقيه المستاري والفقيه محمد بن الطيب الوزاني والفقيه ادريس بناصر والفقيه الكانوني ومحمد علان وغيرهم، الئ الاهتمام بما كان يكتب وينشر في العالم العربي من كتب ومجلات مثل مجلة الفتح ومجلة الإسلام ومجلة مكارم الأخلاق وجرائد صادرة عن جمعية علماء الجزائر وغيرها، وبهذا الاطلاع الواسع والتتبع المستمر تمكنت هذه النخبة من رواد السلفية والوطنية بآسفي من تشخيص مواطن الضعف لدى المغاربة وتلمس سبل تقويته وتصحيحه سواء عن طريق توعية الجماهير وشحنها بالخطاب الترشيدي والتوعوي والديني والوطني وكذلك عن طريق مواجهة سياسة الحماية المدمرة بواسطة تأسيس مؤسسات تقف في وجه هذه السياسة وتحد من تجاوزاتها مثل الأحزاب والنقابات والجمعيات والمدارس الحرة.

1- الحركة الوطنية بآسفي خلال الثلاثينات

إن الفكر المبكر الذي حمله هؤلاء الشباب ما لبث أن تولدت عنه جمعية سرية أصبحت تعمل في خفاء هدفها الأول كان توعية الجماهير وتكوين جبهة رافضة ومواقف صامدة في وجه سياسة الحماية أو المتعاونين معها.

وبالفعل كان هذا التهييء القبلي للجماهير مفيدا، بحيث أنه حينما أراد الوطنيون أن يقوموا بأول مظاهرة احتجاجية بآسفي ضد ظهير 16 ماي 1930 كانت الاستجابة في المستوى المطلوب.

- مرحلة "الظهير البربري":

مع بداية سنة 1930 فرضت سلطات الحماية على الآسفيين ضريبة جديدة مما جعل السكان متدمرين وكانوا يتأهبون لتوقيع عريضة احتجاجية يرفعونها للإدارة المركزية نالت الإجماع الجماهيري.

وبما أن آسفي كما سبق وأشرنا كان بها شباب وطني شرع في العمل السري قبل صدور الظهير البربري وأن هؤلاء الشباب كانت لهم علاقات وطيدة مع الوطنيين في مدن أخرى، فقد قام الوطنيون من مدن أخرى بمراسلات إخوانهم بآسفي يدعونهم للإنخراط في عملية مقاومة الظهير.

وفي هذا السياق تلقى صالح العبدي أحد المناضلين المشهورين رسالة من جمعية قدماء التلاميذ بفاس يدعونه إلى تأسيس جمعية بآسفي ومقاومة الظهير البربري وتفاصيل أخرى يعرضها نص الرسالة.

لقد عملت مثل هذه الاتصالات على حث المواطنين بآسفي وتأجيج حماستهم لتسجيل موقفهم الرافض لهذا الظهير. تضاربت الآراء حول كيفية الاحتجاج ضد هذا الظهير فكان هناك تيار رفض القيام بأي رد فعل نظرا لعدم صدور أي تعليمات في الموضوع وهو موقف رسمي سجله القاضي ابن العربي الدكالي الذي تولى قضاء آسفي في دجنبر 1929 وهو الذي كان يؤم صلاة الجمعة بالناس ولما طلب منه الكانوني قيادة حركة اللطيف رفض وغادر المسجد قبل الختم.

وهناك رأي آخر وهو الذي كان يمثله زعماء الجمعية السرية بقيادة محمد البوعمراني الذين حبذوا فكرة الإشراك الواسع للجماهير في هذه الحركة وتحمل عواقبها ونتائجها، ويبدو أن هذا

الموقف يتلاءم وتصورات واستراتيجية الجمعية التي كانت تهدف إلى خلق الإجماع الشعبي والتوافق الجماهيري.

وهكذا قرر بعض أعضاء الجمعية السرية الآسفية وهم البوعمراني والكراوي والفقيه الكانوني والفقيه المستاري خلافا لبقية الأعضاء انطلاق حركة اللطيف. ورغم عدم وجود صالح العبدي في قيادة هذه الحركة فإن بصماته التنظيمية والتأطيرية تبدو واضحة، وإن كان قد تصدى بشكل آخر لهذه النازلة من خلال كتاباته.

وتحولت عملية قراءة اللطيف في مدينة آسفي إلى شكل مظاهرة احتجاجية تخضع لتنظيم وتأطير جماهيري محكم تحت قيادة الوطنيين الذين أصبحوا منذئذ لا يملكون جمعية سرية بل أصبحوا يعملون في العلن.

إثر هذه الحركة الاحتجاجية ثم إلقاء القبض على كل من الفقيه الكانوني ومحمد الباعمراني وحكم بشهر سجنا وهناك من فرضت عليه الإقامة الإجبارية كما ورد في حديث صالح العبدي فالمحكمة ألقت القبض على الكانوني ثم محمد الباعمراني وبقي تحت الضمانة الفقيه عبد السلام المستاري والعويني ومولاي محمد البوعناني وبعد ذلك بقليل أي بثلاثة أيام سرحت المعتقلين بعد أن عزلت الكانوني من العدالة .وعلى إثر هذا الحدث تفككت الجماعة.

مرحلة ما بعد الظهير البربري

في سنة 1932 حل بمدينة آسفي الفقيه محمد غازي ليشتغل وكيلا شرعيا. كان هذا الوطني من أفراد تنظيم الزاوية والطائفة الشكل الأول للتنظيم السياسي الذي سيتحول منذ سنة 1935 إلى كتلة العمل، وفي سنة 1932 زار علال الفاسي آسفي وأخبر المجموعة على نية الوطنيين في تأسيس حزب كتلة العمل الوطني الذي كان أحد أعضاء قيادته المركزية محمد البوعمراني.

وشهدت سنة 1935 تكوين أول مكتب فرع كتلة العمل بآسفي أشرف على تأسيسه الفقيه غازي، وضم هذا المكتب في صفوفه نخبة من رجال السلفية والوطنية الذين تحدثنا عن معظمهم أمثال محمد البوعمراني وعبد السلام المستاري ومحمد الهسكوري ومحمد الكانوني ومحمد علان ومحمد بن الطالب، ويعتبر هذا المكتب أول مكتب فرع حزب منظم في آسفي رغم تحفظات السلطات الفرنسية.

خـلال سـنة 1936 وبعـد تقـديم دفتـر المطالـب الاسـتعجالية وعلـى إثـر التجمـع الخطـابي الـذي نظمتـه الكتلـة فـي مدينـة الـدار البيضـاء الـذي تزعمـه عـلال الفاسـي ومجموعـة مـن الـوطنيين وتـم علـى إثـره اعتقـال عـلال الفاسـي. قامـت بمدينـة آسـفي مظـاهرات مـن تنظـيم الشـباب كـانوا يهتفـون بحيـاة عـلال الفاسـي وقـد ألقـي القـبض علـى أحـد المتظـاهرين وهـو محمـد مجيـد وسـجن لأنـه كـان محمولا على الأكتاف وهو يهتف في شوارع آسفي بحياة علال الفاسي .

فـي سـنة 1937 وبعـد أحـداث بـوفكران بمكنـاس تضـامن الآسـفيون مـع الحـدث وذلـك بإقامـة صـلاة الغائب عن شهداء مكناس كما ذكره الفقيه الهسكوري .

كمـا تضـامن أهـل آسـفي مـع سـكان مدينـة مـراكش فـي انتفاضـتها يـوم 24 أكتـوبر 1937 التـي تعـرف بحركـة الجيـاع والمتسـولين التـي قامـت إثـر زيـارة الـوزير الفرنسـي للمدينـة. عقـب هـذا كانـت هجمـة شرسـة علـى الـوطنيين بمـراكش، الأمـر الـذي دفـع بالآسـفيين لمناصـرتهم والتضـامن معهم.

التيارات السياسية والحزبية بآسفي

- نشأة الحركة القومية بآسفي:

بعـد انقسـام كتلـة العمـل الـوطني سـنة 1937 انضـم أنصـار محمـد بلحسـن الـوزاني إلـى حـزب الحركـة القوميـة دون تـردد وعلـى رأسـهم احمـد بـن الشـيخ بـن حسـن، لكـن هـذه الفتـرة يكتنفهـا الغموض لكون أنصار بلحسن الوزاني فضلوا الإنزواء وعدم الإنضمام للحزب الوطني.

لكن سرعان ما ظهرت ملامح الخلاف بين أنصار التيارين تجلت اولاها علئ مستوى التعليم.

كانـت بمدينـة آسـفي مدرسـة وهـي الأولـى مـن المـدارس الحـرة إسـمها مدرسـة مـولاي عبـد السـلام بـن مـولاي الحـاج وكـان بهـا مجموعـة مـن الشـباب أبنـاء الـوطنيين الـذين كـانوا قبـل سـنة 1937 ينتمـون لكتلـة العمـل الـوطني وبعـد انقسـام الكتلـة ظهـر الحـزب الـوطني لكـن الحركـة القوميـة لـم تكن بارزة في المشهد السياسي بآسفي.

هـذه المدرسـة كانـت تسـمى المدرسـة الأهليـة الوطنيـة، تأسسـت سـنة 1930 م، اتخـذت مقـرا لهـا "بـدار القبـة" وتعـرف بـدار القايـد ولـد عيسـى بـن عمـر، لازالـت حتـى الآن توجـد بزنقـة ابـن حـزم بالمدينـة القديمـة، تضـم تلامـذة مـن مختلـف الأعمـار، بهـا كـل المرافـق المطلوبـة، حيـث تسـتوعب أزيـد مـن 100 تلميـذ وطالـب، وقـد أبـدعت طرقـا تعليميـة وتنظيميـة فريـدة، رائـدها نشـر الفكـر والوطنيـة، زارهـا الـزعيم عـلال الفاسـي سـنة 1932 م فعـاين دروسـها وامـتحن تلامـذتها وطلبتهـا

الكبار، فسر باعتزاز وتقدير قائلا بأنها قرويين صغيرة، كان مديرها من فطاحل العلماء درس عن والده بأسفي ثم فاس وحاز إجازات من شيوخه، كانت المواد التي تدرس بها تفسير القرآن والحديث والفقه والفرائض والتصوف والأخلاق والأدب والتاريخ والجغرافية والنحو والبلاغة والمنطق والعروض والتوقيت والحساب. والطريقة المتبعة في التدريس هو تصنيفها إلى ثلاث طبقات – أي إلى ثلاثة فصول :

- طبقة مبتدئة تتعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن.
- طبقة متوسطة تتعلم بعضا من علوم الدين واللغة.
- طبقة عليا تدرس كثيرا من العلوم.

ومنذ بداية الأربعينيات فتحت مدرسة أخرى أبوابها في وجه التلاميذ وكان مديرها من حزب الاستقلال. وفي هذه الفترة بدأت بوادر الخلاف بين رجال العمل الوطني بأسفي حيت كانت البداية بمغادرة مجموعة من أبناء الوطنيين مدرسة مولاي عبد السلام بن مولاي الحاج والإلتحاق بمدرسة محمد الهسكوري التابعة لحزب الاستقلال ومن بين هؤلاء الدكتور محمد بنهيمة وأخوه أحمد الطيب بنهيمة.

حزب الشورى بآسفي سنة1947

تأسس حزب الشورى بآسفي سنة 1947 من طرف مجموعة من الوطنيين الآسفيين الذين كانوا في صفوف الحركة القومية في البداية، نذكر من بينهم الفقيه الداودي أبوه هو الطيب الداودي كان موظفا بالديوانة وهو من أصل فاسي، ومحمد بنيس ومولاي إدريس الوزاني والحبيب البخاري وأحمد بنحسن بنشيخ ومحمد التريكي وأبو بكر التريكي والحاج أحمد بوقفطان بن الشيخ كان مراسل جريدة الرأي العام، والحبيب التريكي وأحمد ولد المتحسب وأخيه السيد حميد بنهيمة والوزاني التهامي وأخيه زين العابدين هؤلاء كونوا حزب الشورى والاستقلال.

لكنهم كانوا مختفين عن الأنظار بسبب الصراع الذي كان بينهم وبين الاستقلاليين والنقابين.

حينما تأسس حزب الشورى والاستقلال بفاس، سافر وفد من آسفي يتكون من السادة احمد بلحسن ولد الشيخ والسيد محمد بنيس والفقيه الداودي والطاهر واعزيز إلى فاس وكلفوا من طرف الأمانة العامة بتأسيس فرع الحزب بآسفي وكلف السيد محمد بلحسن كمندوب الحزب بآسفي. ويبدو أن زعيم الحزب بآسفي كانت له علاقات مباشرة مع محمد بن الحسن الوزاني.

زار محمد بلحسن الوزاني آسفي ثلاث مرات، ومرة حضر الوزاني رفقة عبد القادر بنجلون وأحمد بنسودة كما زارها قادة آخرين من حزب الشورى والاستقلال مثل عبد الهادي بوطالب، وقد كان مناضلوا حزب الشورى بآسفي يتعرضون للاعتقال والاستنطاق كلما زارهم محمد بلحسن الوزاني. مثلما حصل للسيد محمد لخزامي الذي تعرض للاعتقال والاستنطاق نظرا لاستقباله لمحمد بلحسن الوزاني بمنزله وحرم من تسلم جواز سفره. وبعد نفي محمد الخامس كلف السيد محمد لخزامي من طرف الحزب بآسفي للاتصال بمحمد بلحسن الوزاني بمدينة سبتة لشرح الحالة التي أصبحت عليها الوضعية وفعلا اتصل بالزعيم الذي كان يسكن بساحة إفريقيا وأخبره بأن الوطنيين أفشلوا محاولة تنصيب مولاي الحسن بلمهدي مكان محمد الخامس.

- العلاقة بين قيادة الحزب ومكتب فرع آسفي:

كان أعضاء مكتب الفرع يجمعون المناضلين ويقومون بقراءة النشرة التي كانت تصل من الأمانة العامة وتوزيعها على جميع أعضاء الحزب بمجموع نواحي آسفي وكذا حث الأعضاء على النضال. وقد كانت لمكتب الحزب بآسفي مجموعة من الفروع بالنواحي في جمعة اسحيم وبلاد احمر والشماعية والشياظمة.

وكانت هناك علاقة وطيدة بين مكتب الفرع ومقر الأمانة العامة للحزب بالدار البيضاء شارع بانظونغ وذلك قصد الاستشارة ونقل المناشير وجريدتي الديموقراطية والرأي العام.

- العلاقة مع حزب الاستقلال:

كان بعض أعضاء حزب الاستقلال ينعتون الشوريين بالخونة لأنهم حسب شهادة الشوريين كانوا يريدون الإبقاء على الحزب الوحيد الذي يناضل في الساحة.

- مداخيل وأنشطة الحزب:

كان فرع الحزب بآسفي يعتمد على الاشتراكات والتبرعات والعطأت من طرف بعض الغيورين على الحزب وكان قسط من الاشتراكات يرسل إلى مقر الأمانة العامة.

- الحزب والعمل السري:

حسب ما توصلت إليه فإن الشوريين لم تكن لهم مشاركة في العمل السري داخل آسفي ضمن المنظمات السرية الخمسة التي تواجدت بآسفي والتي كان معظم عناصرها لا ينتمون لأي حزب. ومع ذلك نسجل بعض التحركات الفردية لعناصر حزب الشورى والاستقلال مثل ما

قام به محمد الشرجان بجمعة اسحيم حيث حاول قتل احمد المعمرين يدعى "غانوا" إضافة إلى عمليات أخرى ببراكة لمين واليوسفية.

مما جعل مناضلوا الحزب عرضة للاعتقال عدة مرات وعلى رأسهم المسؤول عن الحزب بآسفي محمد لحسن ومحمد بنيس .

كما كانوا يتضامنون مع حزب الاستقلال وشاركوا في كل المظاهرات التي كانت تقام بآسفي حيث شارك احمد بن حسن في مظاهرة 20 غشت واعتقل احمد الخزامي.

أنشطة حزبية مختلفة

لقد كان هذا الحزب رغم محدودية قاعدته، يقوم بأنشطة موازية للعمل الوطني مثل استقبالهم لوفد الكشفية بمدينة آسفي.

كما كان القطاع النسائي نشيطا داخل هذا الحزب عن طريق جمعية أخوات الصفا، التي تأسست بآسفي في يونيو 1956 تحت رئاسة مريم الوزاني وقد اختلفت أنشطة الجمعية من محاربة الأمية وإعطاء دروس في تعليم فن الخياطة العصرية والتدبير المنزلي.

خلاصة:

من خلال تتبعنا لمختلف مراحل تطور العمل الوطني بمدينة آسفي منذ العشرينيات، وبعد الوقوف عند مواقف الوطنيين الآسفيين بعد صدور ظهير 16 ماي 1930، فإننا نلاحظ أن حدث انشقاق حزب كتلة العمل سنة 1937 قد أظهر إلى الوجود الحزب الوطني والحركة القومية التي بقيت منزوية بآسفي لمجموعة من العوامل إلى غاية سنة 1947.

وبعد تأسيس حزب الشورى والاستقلال، تكون فرع آسفي، وشرع في تنظيم مناضليه والمشاركة في العمل الوطني لكن رغم كل هذه المجهودات فإن نشاط الحزب ظل ضعيفا في هذه المدينة، وذلك راجع إلى مجموعة من العوامل مثل ضعف قاعدة هذا الحزب الجماهيرية، والمنافسة الشديدة من طرف خصومهم السياسيين وغيرها من الوسائل الأخرى التي تدعم العمل الوطني مثل النقابات إلخ. وبذلك بقي نشاط الحزب يتقلص خصوصا بعد الاستقلال واشتداد المنافسة مع الخصوم السياسيين.

المراجع

علال ركوك، آسفي مذكرات رجال الحركة الوطنية، الرباط، 2009.

الحريشي محمد، المدرسة الناصرية بفاس، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2003

أبو بكر القادري، مذكراتي في الحركة الوطنية، ج 2،3

موسوعة الحركة الوطنية والمقاومة وجيش التحري، نشر المندوبية السامية للمقاومة، الرباط، 2009

من مظاهرالبعد القومي في الحركة الوطنية المغربية -الرسائل المتبادلة بين محمد حسن الوزاني والأمير شكيب أرسلان نموذجا

أحمد الزيادي

إن مظاهر البعد القومي في الحركة الوطنية المغربية عديدة ومتنوعة في المستويين الشعبي والرسمي على السواء، بل إن هذه الحركة كانت تتصادى أحيانا، وتتماهى أحيانا أخرى مع الحركات الوطنية في الأقطار العربية المستعمَرة أو المحتلة أو المحمية في الكثير من أسسها ومنطلقاتها وشعاراتها وأهدافها ومواقفها الاجتماعية والسياسية، وضوابطها التنظيمية، وفي العديد من أساليبها في المقاومة والنضال السياسي.

وقد أكد الوزاني عمق هذا البعد القومي في الحركة الوطنية منذ انطلاقها فقال: ولايكتم مغربي واحد أن قومة الشرق كانت العامل الأكبر في تشجيع الشعب على التفاؤل بالشباب المجاهد، والسير من خلفه عن إخلاص وطاعة[1].

وسنقصر مداخلتنا هاته على مظهر واحد من هذه المظاهر هو بعض الرسائل التي كان يتبادلها أحد القادة الوطنيين المغاربة محمد حسن الوزاني (1910/01/17 ـــ 1978/11/09)، مع أبرز دعاة القومية العربية المسلمين الأمير شكيب أرسلان (1869/12/25 - 1946/12/09).

وإذا كان الوقت المحدد للعرض يفرض علينا تناول البعد المذكور في حلقة أضيق، تقتصر على عينة من الرسائل المتبادلة بين الزعيمين، فإن عمق الرابطة الوطنية والقومية التي جمعت بين الرجلين تعتبر الحلقة الأمثل، وهي بهذه الصفة كفيلة بتجلية هذا المكون الأساس في الحركة الوطنية المغربية، وجديرة بتمثيله.

ومعلوم أن الرسالة قناة تواصلية حيوية وبليغة تختزن الكثير من مميزات الخطاب الإعلامي الثنائي الخاص أوالمغلق، المكتوب والشفاهي معا، التي تضفي عليه طابعا حواريا إنسانيا كالحميمية والائتمانية والثقة المتبادلة بين الملقي والمتلقي، والفورية في وصف ما حدث وتوثيقه، والتعبير عن المشاعر الآنية، والخلجات اللحظية قبل أن تطوي تفاصيلها الأيام، وتغمر دقائقها رواسب النسيان.

---

1. رسالة مبتورة الصفحتين الأوليين، مجهولة التاريخ ومكان الإصدار، ص. 3. ومعلوم أن أول لقاء تم بين الوزاني والأمير شكيب أرسلان في بيت الأخير كان مساء يوم 27 مارس 1932 مذكرات حياة وجهاد، محمد حسن الوزاني، مؤسسة محمد حسن الوزاني، طبع مؤسسة جواد للطباعة والنشر، بيروت، 1984، ج3 / 228.

وإن الرسائل المتبادلة بين العديد من رجال الحركة الوطنية[2] والأمير أرسلان ــ الذي كان عهدئذ هو وإحسان الجابري عضوي الوفد السوري الفلسطيني لدى هيئة الأمم في جنيف ــ وإن كانت غايتها سياسية، فإن روحها الوطنية والقومية قد أسبغت عليها ألوانا من المجاملة والملاطفة والاحترام والتقدير والتعارف والبوح الذاتي، مما تولدت عنه وشائج قربى سامية قواها إحساس صادق متين بمشاعر الأبوة من جهة، وبرور البنوة من جهة ثانية، فترعرعت في كنف هذه القربى شبه العائلية حاجة الوطنيين إلى حماية في العائلة العربية الإسلامية ممثلة في الزعماء السياسيين القوميين ذوي النفوذ الواسع، والتجربة السياسية الوازنة، والخبرة العميقة بأسرار السياسة الدولية. يقول الوزاني عن دور الأمير أرسلان في الوطنية المغربية: لا يمكن أن يُؤرخ للحركة الوطنية المغربية دون أن يُتحدث عن الدور السري والعلني الذي كان للأمير شكيب أرسلان في مجالها ، وخاصة مع بعض قادتها في الداخل والخارج منذ سنة 1930[3].

وقد عرفت سنة 1934 تطورا سياسيا مهما في استراتيجية الحركة الوطنية المغربية، وطفرة نوعية في عملها السياسي، تمثلت في برنامج مطالب الشعب المغربي التي استخلصت من مختلف المطالب المنفردة الخاصة بأكثر من مجال من المجالات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية والدينية[4]، وتفردت هي من جهة بعموميتها المستجيبة لحاجات سكان البوادي والمدن، وأهل الجنوب والشمال على السواء، ومن جهة أخرى بصوغها صياغة سياسية وقانونية تلائم الظروف التاريخية الوطنية والدولية.

وقد تحدث الوزاني في ثلاث من رسائله ــ التي بين أيدينا، وهي كلها محررة في باريس ــ عن ظروف إعداده وترجمته إلى الفرنسية بتفصيل دقيق، وعن عمله رفقة عمر بن عبد الجليل في باريس؛ من اتصال بالصحافيين، وتأسيس لجنة أصدقاء المغرب، واستضافة المناصرين للقضية المغربية، وإجراء الاستجوابات، وتحضير الفتاوى القانونية، وطبع مشروع المطالب ...

2. تبادل معه الرسائل أيضا بعض العلماء والأدباء، منهم عبد الرحمن بن زيدان، ومحمد تقي الدين الهلالي.
3. مذكرات حياة وجهاد، ج3 ، ص. 310.
4. تمثل الشكايات والعرائض والاحتجاجات التي كان المواطنون المتنورون يتقدمون بها إلى السلطان، وحكومة الخزن، والمقيمين العامين بالمغرب، مادة أولية لمطالب الشعب المغربي ، ومنها
ـ مطالب إصلاحية تتعلق بحرية الصحافة وإصلاح التعليم ، تقدمت بها النخبة إلى المقيم العام (ليوطي)، في يونيو 1920
ـ احتجاج سكان الرباط وسلا بباب دار المخزن ، واعتراضهم على ضريبة (الكياب) في سنة1921
ـ تقديم لائحة مطالب إلى المقيم العام (ستيغ)، في نونبر 1925، تضمنت استياء طائفة من المواطنين الواعين من المعاملة السيئة، والوضعية المزرية التي كانوا عليها إيقاف حركة التنصير،وتوحيد التعليم ، وتعميم التعليم الديني الإسلامي واللغة العربية ، واحترامها في الإدارات ، والعفو عن المعتقلين الوطنيين في أعقاب الأحداث الناشئة عن إعلان الظهير البربري
ـ تقديم وفد من أعيان المنطقة الخليفية ، في أوائل شهر يونيو 1931، لائحة مطالب إلى رئيس حكومة الجمهورية الإسبانية ..(يرجع إلى : مذكرات حياة وجهاد ،ج 4 ، ص 91 وما بعدها.وإلى : الاتجاهات الوطنية في النثر المغربي الحديث ، أحمد زيادي ، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط ، 1999 ، ص 235 وما بعدها)

وإذا كان إخبار الأمير بهذه التفاصيل؛ بغاية وضعه في صورة هذا الحدث الهام، استرشادا بآرائه، وإغناء للمشروع بمقترحاته، قد استحوذ على النصيب الأوفر في الرسائل الثلاث، فإن العديد من فقراتها تضمنت معلومات وإشارات تبين تغلغل البعد القومي في بنية الفكر الوطني، واستيحاءه في خطاباته وأساليب عمله. ومن أوضحها:

أولا : الاعتراف بفضل النهضة الشرقية على نشأة الحركة الوطنية المغربية وتطورها.

وقد عبرت الرسائل الثلاث عن ذلك بالمواقف التالية:

1. الإقرار بأن الثقة التي يحظى بها الوطنيون الشباب في المغرب مستمدة من نهضة الإسلام في المشرق العربي[5].

2. الرغبة في إطلاع الشباب الوطني على حقيقة النهضة الشرقية، تحبيبا إياهم في الاقتداء بها، يقول الوزاني في هذا الصدد لقد خطر في بالي أن أنشر بمجلة المغرب عدة مقالات عن الحركة الوطنية العربية، لإطلاع شبابنا على حقيقة النهضة العربية الشرقية، ولإرشاده إلى ما يجب الاقتداء فيه بإخواننا الذين سبقونا في الجهاد، ولكن ليس لدي لأجل هذا معلومات مضبوطة، ووثائق كافية يوثق بها، فهل يمكن لسيادتكم أن ترشدوني إلى ما فيه الكفاية والفائدة؟[6]

3. اعتبار قضية الشرق كله جزأ من قضية المغرب، والوعد بالوقوف إلى جانب المشارقة، ردا لجميلهم في مؤازة المغاربة في كفاحهم الوطني، يقول الوزاني سنعمل في بلادنا، وحسب كل ممكناتنا، مانقدر عليه لتبرير عطف إخواننا في المشرق إما بالدعوة لقضيتهم التي هي قضيتنا جميعا، وإما بالضجة الصاخبة الثائرة كلما دعت الحاجة إلى شيء من هذا القبيل، ونحن دائما رهن إشارات ما يرد من الشرق، وفي الماضي أرينا لفلسطين ـ رغم أحكامنا العرفية، وأحوالنا المعروفة ـ كيف نفهم الأخوة والواجب لها علينا[7].

ثانيا: طلب المشورة من الأمير ضمنيا أو تصريحا في الكثير من الأفكار والمواقف والمشاريع والإجراأت التي يتبناها الوزاني أو غيره من الوطنيين فرادى أو جماعة، واستطلاع رأيه في بعض الأخبار أو الإشاعات السياسية الرائجة. من ذلك مثلا:

---

5. يرجع إلى أول نص مستشهد به في هذه المداخلة، ص. 1. ومعلوم أن اسم الكتلة نفسه كان اقتداء بالكتلة الوطنية السورية، كما صرح بذلك واضعه الوزاني. مذكرات حياة وجهاد، ج. 4، ص. 70-71.
6. الرسالة المبتورة، ص. 4.
7. نفسه، ص. 3.

1. تقديم تفاصيل عن الاجراأت واللقاأت التي يقوم بها الوزاني وعمر بن عبد الجليل في باريس والتي دامت حوالي ستة شهور اعدادا لبرنامج المطالب، وتهيئا لخطة تقديمه، وانتظارا للظروف المناسبة للانجاز، وقد ذكرنا بعض ذلك فيما سبق.

2. إظهار الحركة الوطنية لرباطة الجأش بالرغم مما تعرضت له في أعقاب زيارة السلطان لمدينة فاس في أوائل ماي 1934، من منع لجريدة عمل الشعب من الصدور، ومنع مغرب والحياة والسلام من الدخول إلى المنطقة السلطانية، مؤكدا أن هذه المهادنة ليست إلا تجنبا لإحراج السلطان الذي تتهمه إدارة الحماية بالانضمام إلى حزب الوطنيين. إضافة إلى انشغال الحركة بتحضير برنامج المطالب الشعبية خلال شهرين[8].

وإن كان الوزاني يصرح في رسالة أخرى ء وهو آنذاك في عنفوان الشباب ء أنه ليس من طبعه المهادنة دائما، ويقول أؤكد لكم أنني لا أقول في كل وقت بمذهب عدم العنف نون فيولينچي في محاربتنا للخصوم الذين لا يعرفون للسلم سبيلا، بل أميل أحيانا إلى الصرامة في المخاصمة، وأحبذ الهيجان مثلا على احتجاج يودع في الورق ابتداء، وينتهي إلى السلة التي أصبحت في كل مكتب غربي بحكم المدينة، أو ما ألفه الناس من أساليب فاسدة قاصرة في باب الاحتجاج والمكاشفة بما في النفس. فأنا أرى الاحتجاج الصاخب الذي يؤدي إلى هدم نوافذ القنصليات، وتبديل منظر الشوارع بضعة (كذا) دقيقات ءو في تبديل المنازل راحة كما نقول في المغربء أحسن بكثير من احتجاج في قاعة وبين جدران وفي صحيفة، كل الوسائل حسنة قابلة للاستغلال، ولكن هذه الوسائل أبلغ أثرا، وأسرع نتاجا. أليس كذلك يا سمو الأمير؟[9]

3. استفساره الأمير عن مدى صحة خبر شائع آنذاك عن انعقاد مؤتمر إسلامي غربي في جنيف، واستطلاع رأيه في ما يرجى منه[10].

4. إخبار الأمير بوقوع شبه ثورة في الريف، يقدر أنها كانت ستؤدي إلى شبه ثورة الأمير عبد الكريم الخطابي، ويرجح أنها مؤامرة دبرت على لويز فرير، انتهت بالقبض على خمسين من الإسبان (أو المغاربة بحسب الوزاني) في تطوان، وعلى ابن الريسوني وشيخ الطريقة الدرقاوية، ويدعي فرير أنهم عرب شيوعيون وطنيون، وأن للحركة علاقة بالجامعة الإسلامية. وقد عزل فرير وخلفه حاكم برشلونة بإيعاز من صاحب صندوق الجمعية الاسبانية الإسلامية، وهوماريال Mاريال .

8. الرسالة المؤرخة في 22 شتنبر 1934، ص. 2.
9. الرسالة المبتورة، ص. 3.
10. نفسه، ص. 4.

وفـي هـذا السـياق يقـول الـوزاني: وقـد قـدمت إلـى المجلـس مشـروع برنـامج، وصـادق عليـه، وعرضـه علـى الـولاة، ولسـت أدري نتيجـة هـذا، وربمـا وجهـت إلـيكم نسـخة منـه بعـد أخـذها مـن رافـولس الـذي كلـف بإخراجـه علـى الآلـة الكاتبـة، والمقـيم الجديـد يعـد خيـرا ويشـاع عنـه الشـيء الحسن[11]

ثالثـا: العمـل علـى توسـيع الـدعم العربـي والإسـلامي والإفريقـي للحركـة الوطنيـة المغربيـة عبـر المـؤتمرات والجمعيـات واللجـان والاتحـادات؛ فـالوزاني يؤكـد أن عـزم الـوطنيين علـى مباشـرة أعمـال واسـعة النطـاق يتطلـب إعـداد مـا يتوقـف عليـه القيـام بهـا فـي الـداخل وخصوصـا فـي الخـارج، لأجـل ذلـك يقـدم جملـة مقترحـات وأفكـارا ومواقـف وأنشـطة للوفـاء بهـذا الغـرض، ومـن أهمها:

.1السـعي فـي تأسـيس لجنـة الـدفاع عـن المغـرب، ويفصـل الحـديث فـي ذلـك قـائلا: ارتأيـت مـن الواجـب أن نسـعى فـي تاسـيس لجـان فـي امهـات العواصـم العربيـة الاسـلامية، تحـت اسـم لجنـة الـدفاع عـن المغـرب مـثلا، ولـيس مـن الضـروري، ولا مـن الفائـدة ان تكـون علنيـة معرضـة للقـوانين العربيـة الجـائرة مادامـت حكومـات الـبلاد الشـقيقة علـى حالتهـا الحاضـرة، فهـذه اللجـن تكـون سـرية يعمـل افردهـا جهـارا كـأفراد لا ينتسـبون لهيئـة ولكـنهم فـي الواقـع مربوطـون بصـلة موحـدون فـي الغايـة والمـنهج، وينبغـي ان يكـون أفرادهـا مـن ذوي النفـوذ فـي الاوسـاط، ومـن القـادرين علـى العمـل، العـاملين بثبـات وإخـلاص، غايـة هـذه اللجـن مـؤازرة المغاربـة فـي جهـادهم بالدعوة الفعالة لقضيتهم، وبالقيام لدى تألمهم وشكواهم[12]

2. قـرار الـوزاني حضـور المـؤتمر الإسـلامي الأروبـي فـي جنيـف للمشـاركة فيـه نيابـة عـن المغرب.[13]

3. اجتماعـه بطائفـة مـن أعضـاء الكتلـة الوطنيـة السـورية فـي بـاريس الـذين كانـت لهـم صـلة وثيقـة بـالأمير أرسـلان، ويـذكر مـنهم محمـد السـراج[14] وزكـي علـي الـذي كـان قـد تعـرف عليـه منـذ سنين[15].

4. مشاركته في تأسي الاتحاد الإفريقي بباريس[16]، وتردده على جمعية الطلبة الإفريقيين[17].

---

11. الإحالة نفسها.
12. نفسه، ص. 3.
13. رسالة 22شتنبر 1934، ص. 1.
14. الرسالة المؤرخة في 9 أكتوبر 1934، ص. 2.
15. نفسه، ص. 3.
16. نفسه، ص. 1. وقد كان الوزاني يؤمل أن يعطي الوطنيون المغاربة ببرنامج المطالب مثالا للمجاهدين في شمال إفريقيا. رسالة 22شتنبر 1934، ص. 3.

5. دعوة العالم الإسلامي إلى إظهار وحدته. يقول الوزاني تعليقا على شبه الثورة التي وقعت في الريف: وأرى من الواجب أن يظهر العالم الإسلامي وحدته لدى وقوع شيء من هذا القبيل (يقصد توقع معاملة المعتقلين في هذه الأحداث بعنف وقساوة) حتى تعلم اسبانيا الغدارة عدوة المغرب والإسلام إلى الأبد أن المغاربة محتمون بروح العروبة والإسلام، وأنهم أقوى منها لو أراد الله ورضي المسلمون طبعا[18]

وشهد مطلع 1937 حدثا وطنيا خطيرا كاد يعصف بالعمل الوطني الموحد، ضمن ما أصبح يعرف بكتلة العمل الوطني، ألا وهو انشقاقها إلى فريقين أحدهما يتزعمه علال الفاسي، والآخر يتزعمه محمد حسن الوزاني.

ولا تختلف أسباب الانشقاق التي يذكرها الوزاني في رسالته المؤرخة ب 19 مارس 1937، عن تلك التي أثبتها في مذكراته بتفصيل بعد حوالي 38 سنة، إلا في بعض الجزئيات التي من أهمها: إقراره أن علال الفاسي هو الذي اقترح أن يضع بنفسه نظام الحزب، فوضعه على أساس ترضيات[19] بينما يذكر في المذكرات أن الكتلة عهدت إليه هو بإعداد مشروع الحزب الجديد، كما عينت لدراسته الأولى عضوين آخرين هما علال الفاسي وعمر بن عبد الجليل[20]. ولما اجتمع الثلاثة في بيت الأخير، يقول الوزاني إنه فوجئ في بداية الاجتماع بمشروع مضاد أتى به علال الفاسي الذي قال إنه فكر من جهته في الأمر، وإن لم يكن مكلفا بوضع أي مشروع[21].

ونجده في الرسالة نفسها يشكو لأرسلان رفقاء الأمس، وينتقد العديد من تصرفاتهم التي وصفها بأنها مناقضة لروح الحركة الوطنية ومبادئها الديموقراطية لما فيها من استبداد بتسيير الحركة، وإقصاء طائفة كبيرة من العاملين الأكفاء مثل محمد المكي الناصري وعبد الهادي الشرايبي ورشيد الدرقاوي وإبراهيم الوزاني وإبراهيم الكتاني، وعدم السماح لأي عامل بالمشاركة إلا على أساس الخضوع المطلق الدائم، كما اعتبر كل ما رافق إعداد نظام الحزب الجديد ومناقشته والتصويت عليه وإقراره وتعيين وظائف اللجنة التنفيذية ... اعتبر كل ذلك مؤامرة محوكة ضدا عليه، وتم فرضها بالأغلبية المدبرة.

---

17. نفسه، ص. 1.
18. الرسالة المبتورة، ص. 4.
19. الرسالة المرقونة، المؤرخة في 9 مارس 1937 (مجهولة مكان الإصدار)، ص. 1.
20. مذكرات حياة وجهاد،ج. 5، ص. 19.
21. نفسه، ص. 20.

وقـابلوا رفضـه لمـا دبـروه لـه بمقاطعتـه، ومواصـلة أعمـالهم مـن غيرطلـب مشـاركته بـالرغم مـن احتجاجـه، فـالتقوا مـع الحكومـة فـي مقـابلات رسـمية، وأهملـوا نشـر مقالـه فـي السياسـة الخارجيـة بجريدة الأطلس، وأسندوا مهمة تحريرهذا الفصل إلى غيره[22].

وحـاول بعـض العـاملين الصـلح بـين الطـرفين علـى أسـاس وضـع نظـام بـديل يرضـي الجميـع. فحصـل خـلاف فـي كيفيـة تنفيـذه. واقتـرح الوسـطاء حـلا آخـر قبِلـه الـوزاني ورفضـه الآخـرون، وتعـددت الاقتراحـات ومشـاريع الحلـول[23]، ويؤكـد الـوزاني أن أعضـاء الفريـق الآخـر كـانوا أثنـاء ذلـك يتعجلـون فـي قطـع طـرق المفاهمـة، وسـرعان مـا أعلنـوا الحـزب، وفتحـوا المراكـز لتسـجيل المنخـرطين فيـه، وأصـدروا جريـدتهم العمـل الشـعبي. وتجـاوزا ذلـك إلـى نشـر الـدعايات المغرضـة فـي مختلـف المـدن والأوسـاط، وتجنـد ثلـة مـنهم ذكـرهم الـوزاني بأسـمائهم لنعتـه بأشـنع الصـفات، وأرذل الألقاب[24].

ويؤكـد الـوزاني أنهـم لـم يقفـوا فـي تهميشـه عنـد هـذا الحـد، بـل سـعوا إلـى الاتصـال بأعضـاء الحـزب الاشـتراكي بفـاس، وبالشخصـيات العاملـة فـي القضـية المغربيـة وجميـع الهيـآت ببـاريس التـي نجـح الوزاني من قبل في ربط علاقات طيبة معها[25].

وفـي الختـام يطمـئن الـوزاني الأميـر علـى مسـتقبله السياسـي فيخبـره بتكـون جبهـات قويـة مـن مناصـريه فـي المـدن المغربيـة[26]، وبإرفـاق مراسـلته بنسـخة مـن بيـان حقيقـة الخـلاف الـذي سـبق لـه أن وزعه على العاملين في المغرب[27].

ومـمـا ذكـره الـوزاني فـي شـأن الجهـود المضـنية التـي بـذلها الأميرلتدبيرشـؤون هـذا الخـلاف واحتوائـه قبـل استشـرائه، شـهادته التاليـة :وأول وأكبـر الـذين بـذلوا أقصـى الجهـد للقضـاء علـى الخـلاف فـي بدايتـه الأميـر شـكيب أرسـلان المقـيم إذاك فـي جنيـف ، حيـث راسـل الفـريقين فـي الموضوع[28].

وقـد رد الأميـر علـى الـوزاني بـثلاث رسـائل؛ أولاهـا مؤرخـة فـي 7 أبريـل 1937، وفيهـا يـدعوه إلـى تغليـب المصـالحة علـى المخالفـة، والعقـل علـى العواطـف، والبحـث عمـا يوحـد، وتـرك مـا يفـرق، ويقـول فـي خاتمتهـا : « ياولـدي الحبيـب، أنـا فـي المغـرب لاناقـة لـي ولا جمـل ومـا جـاءني

22. رسالة 9 مارس 1937، ص. 2.
23. الإحالة نفسها.
24. نفسه، ص 3.
25. الإحالة نفسها.
26. نفسه، ص. 3-4.
27. ونشرته جريدة الوحدة المغربية ع 31/16 مارس 1937، ص. 4-8. وأثبته في مذكرات حياة وجهاد، ج. 5، ص. 33 - 36.
28. نفسه، ص. 40.

مـن التـدخل فـي شـؤون المغـرب إلا التعـرض لعـدوات أنـتم تعلمونهـا ... ولكنـي كمسـلم لا أقـدر أن لا أ فكـر فـي أمـوركم، والمسـلم الصـادق المخلـص لا يفـرق فـي الإسـلام بـين مغـرب ومشـرق، فبحـق حرمتـي ومحبتـي لـديكم جميعـا تغلبـون العقـل علـى العاطفـة، وتعـودون كمـا كنـتم لتخـدموا وطـنكم، وتخلصـوا مـن لـوائم النـاس، ومـن سـماع الأخـذ والـرد بمـا يـؤلم. واعلـم ياحضـرة السـيد العزيز، أنه مهما وقع بينكم ـ ولكني أؤمل زوال هذا الخلاف ـ فإني لكم جميعا ..[29]» .

ولـم يفتـه تصـحيح بعـض أفكـارالوزاني التـي كانـت مـن جملـة مواضـع سـوء الفهـم بـين الفـريقين فـي بعـض مراحـل محـاولات الصـلح؛ مثـل قولـه :رأيكـم فـي فـتح البـاب علـى مصـراعيه، وإدخـال العـاملين فـي الحـزب، لا باستحسـان المركـز وحـده، بـل بـآراء أغلبيـة الجمهـور، فيـه نظـر... لأنـه أوفـق أن يبقـى الزمـام فـي يـد المركـز. ولكـن الجمهـور يكـون هـو الحـاكم فـي المـؤتمرات العموميـة، علـى أن فـي حـل الجمعيـة بسـبب كثـرة المنسـلكين فيهـا عبـرة تحكـم علـى الاعتـدال فـي قضـية تكثيـر سوادها[30].

أمـا الرسـالتان الأخريـان[31] فـإن الأميـر، وقـد تبـين مظـاهر تحقـق الانشـقاق باسـتقلال كـل فريـق بجريدتـه ومجلتـه، يرجـو فيهمـا الـوزاني، وغيـره مـن الفريـق الآخـر، ألا يـدخلوا فـي جرائـدهما فـي مناقشـات، فإنهـا وإن كانـت فـي بـدايتها خفيفـة، فإنهـا سـتتحول إلـى مهـاترات ومطـاعن شخصـية، مما يجعلها أشد ضررا على الفريقين وعلى المغرب عموما.

وبفضـل هـذه التوجيهـات الرشـيدة الصـادرة عـن زعـيم قـومي كـان بمتابـة الأب الروحـي لزعمـاء الفـريقين، حـافظوا جميعـا علـى شـعرة معاويـة فـي علاقـة بعضـهم بـبعض، وظلـوا أوفيـاء لنصـيحة الأميـر، ممـا أبقـى علـى شـعلة ضـوء متعثـر فـي نهايـة النفـق؛ فتـوالى تقـاطر الوفـود مـن مختلـف المـدن والمنـاطق المغربيـة علـى زعيمـي الفـريقين فـي فـاس، داعـين إياهمـا إلـى نبـذ أسـباب الخلاف، وإلى العودة إلى توحيد الصفوف[32].

وتكـررت محـاولات الصـلح مـن قبـل هـذا الفريـق أو ذاك، أو مـن قبـل شخصـيات وحدويـة مـن الفريقين معا[33]، من ذلك:

---

29. نفسه، ص. 42.
30. نفسه، ص. 41.
31. نفسه، ص. 43 - 47. تاريخ الأولى 5صفر 1356 (17 أبريل 1937)، وتاريخ الثانية 12 صفر 1356 (24 أبريل 1937).
32. نفسه، ص. 30 وما بعدها، وص.47 وما بعدها، ورسالة 19 مارس 1937، ص. 3.
33. مذكرات حياة وجهاد، ج. 5، ص. 38 وما بعدها.

ـطلب الـوزاني مـن فريـق عـلال تأسـيس لجنـة مشـتركة مناصـفة، تتـولى تنفيـذ الأعمـال المتفـق عليهـا بـين الجـانبين، وتبحـث فـي تسـوية كـل مسـائل الخـلاف، وإيجـاد نظـام محكـم للحركـة، يرضـى عنه الجميع، فرفضوا؛ لأن ذلك في نظرهم اعتراف منهم بفريق الوزاني[34].

ـاستدعاء أحمـد مكـوار للـوزاني وبعـض أتباعـه لقضـاء يـوم معـه فـي بسـتانه بصـفرو، لكـن الـوزاني مالبث أن اكتشف أنها كانت مكيدة[35].

ـانتداب وفـد مهـم لعبـد القـادر بـن عمـر بـرادة، ليتصـل بـالطرفين، وينقـل وجهتـي نظرهمـا لبعضـهما الـبعض، فـدعا إلـى بيتـه بفـاس عـلالا والـوزاني، ونـاب عـن الأخيـر حـين اعتـذر لحضـور اجتمـاع قومي في بيته، إبراهيم بن عبد الله الوزاني، وتم الاتفاق بين الحاضرين على مايلي:

حل الحزب الوطني، والاندماج في الحركة القومية.

عقد مؤتمر عام لتقرير النظام الجديد

لكـن أحـداث الخميسـات، واعتقـال قـادة الحـزب الـوطني، حالـت دون الصـلح الـوطني، الـذي كـان على وشك التحقق[36].

و بـالرغم مـن الخـلاف الـذي طـال أمـده، ومـن التـوترات التـي تحـول بعضـها إلـى صـدامات داميـة، فقـد أثمـرت مراعـاة توصـيات الأميـر ونصـائحه وتوسـلاته للفـريقين بالتعقـل والرويـة، فرصـا للتنسـيق بينهمـا فـي العديـد مـن محطـات العمـل الـوطني الحاسـمة، تتوجـت بمبـادرة مـن الـوزاني نفسـه إلـى تكـوين جبهـة وطنيـة موحـدة فـي مطلـع الخمسـينيات مـن القـرن الماضـي؛ نتيجـة للمتغيـرات الدوليـة، واسـتجابة للوسـاطات المصـرية، والجامعـة العربيـة، والمـؤتمر الإسـلامي، فاسـتجابت لهـا مرحليـا الأحـزاب الوطنيـة الرئيسـة فـي المنطقتـين الجنوبيـة والشـمالية، فـي مـؤتمر طنجة المنعقد في 9 أبريل 1951.

34. نفسه، ص. 76-77.
35. نفسه، ص. 77-78.
36. نفسه، ص. 51-54.

محمد حسن الوزاني ومحمد بن عبد الكريم الخطابي - مقاربات ومواقف سياسية

زكي مبارك

يعد محمد حسن الوزاني الزعيم السياسي المغربي الوحيد الذي ربطته بالأمير الخطابي زعيم الثورة التحريرية بالريف علاقات ودية وحميمية منذ لجوئه إلى القاهرة وتأسيسه لجنة تحرير المغرب العربي في 5 يناير 1948 إلى يوم وفاته بالقاهرة في فبراير 1963.

على أي أساس قامت هذه العلاقات الودية بين الرجلين وقد يوجد بينهما من وجوه الاختلاف من حيث السن، والتنشئة الاجتماعية، والتكوين الثقافي، والمسار السياسي، والمكانة الدولية والوطنية ما يتعارض والمستوى المتميز لهذه العلاقات؟

وما سر الروابط التي قربت وألفت بين الشخصيتين سنوات عدة حافلة بالوقائع والأحداث السياسية بالغة الأهمية عاش الرجلان أطوارها بكل جوارحهما فحدد في شأنها كل واحد منهما مواقفه وآرائه بصراحة وشجاعة أدبية وفكرية وبكل وعي ومسؤولية في ظرفية سياسية، وتاريخية جد حرجة عرف فيها المجتمع السياسي المغربي، وهو في طور التحول والتكون، صراعات طاحنة بين مختلف مكوناته السياسية والاجتماعية والاقتصادية والعسكرية والفكرية من أجل الاستحواذ على الحكم، والقبضة على السلطة للتحكم في دواليب الدولة ومراكز القرار.

من خلال نصوص تاريخية وسياسية مختارة، وشهادات الشخصيات المعاصرة للأحداث والقريبة من الرجلين عبد الكريم الخطابي وحسن الوزاني، نقف عند بعض المقاربات والمواقف التي تفسر في نظرنا الروابط التي الفت بين الخطابي في منفاه، والوزاني في معتقله إلى أن شاء القدر فيلتقيا بالقاهرة ليستأنفا الكفاح من جديد.

ى ألمواقف خلال معركة التحرير الوطني (نماذج)

1-مطالبة الوزاني فرنسا بالإفراج عن الخطابي (1937)

وجه الوزاني إلى الجنرال نوكيس Nوعوغس المقيم العام الفرنسي بالمغرب يوم 15 يوليوز 1937 نداء نشرته جريدة عمل الشعب جاء فيه:

> "... نلفت أنظار الحكومة الفرنسية التي أطلقت سراح الشيخ عبد العزيز التعالبي التونسي والسلطان الأطرش السوري أن عبد الكريم الذي مازال قابعا في منفاه يستحق بدوره الإفراج عنه علما أن لجنة المستعمرات قد صادقت في ديسمبر 1936

على قرار يرمي إلى تحسين الوضعية المادية والمعنوية للأمير الخطابي والسماح له بالاستقرار بفرنسا هو وعائلته كما أعرب عن ذلك ... إننا نلتمس من الجنرال نوكيس أن يقدم بهذه المبادرة الإنسانية التي ستبقى خالدة في سجله السياسي بالمغرب" [1]

2 ألوزاني ومذكرات الخطابي:

خصص الوزاني في مذكراته حياة وجهاد الجزء الثاني منها لحرب الريف التحريرية. وفي مقدمة هذا الجزء تحدث الوزاني عن الرؤيا التي تؤلف بينه وبين الخطابي وشقيقه محم د الخطابي، ومن بين هذه الروابط اهتمامه بكتابة مذكرات الأمير، وفي هذا الصدد أورد الوزاني هذه الإفادات:

"... وبما أني كنت على اتصال وثيق ومتميز بالخطابي وشقيقه في القاهرة طيلة سنوات، فقد حاولت أن أقنع الأمير بضرورة نشر مذكراته لأنه أولى من يتحدث عن الثورة التحريرية بالريف، ولأنه بهذا يمكن دحض باقي المؤلفات الأجنبية من ترهات وأباطيل حولها. ولأن في ذلك خدمة لتاريخ المغرب الحديث وحركته الوطنية التحريرية، ويضيف الوزاني حول نفس الموضوع: "... وكنت أنتهز كل فرصة لإعادة الكرة حتى فزت آخر الأمر بموافقته، وهو أن أتولى مراجعة المذكرات مع شقيقه الأمير محمد في بيته بالدقي، وأن تفرغها في صبغتها النهائية مع الرجوع إليه كلما دعت الحاجة، والتزمت بأن أضيف إليها التعليقات والإيضاحات المناسبة وشرعت في العمل مع الأمير محمد ثم انقطعت عنه لما توجهت لحضور دورة الأمم المتحدة."[2]

3- شهادة عبد الهادي بوطالب حول الروابط بين الخطابي والوزاني:

يقول عبد الهادي بوطالب في كتابه هذه قصتي:

"... قبل أن يحدد لي الخطابي موعدا لاستقبالي ببيته بالقاهرة، سبقني إليه ما كان عنده لمحمد حسن الوزاني من رصيد العقد والمحبة، ومعرفته مسبقا أني أنتمي إلى حزب الشورى والاستقلال، حزب الشريف الوزاني كما تسألني عنه. وبدا لي من بداية الحديث أنه يتعاطف مع محمد بن حسن الوزاني لأنه شريف، ومع الزاوية الوزانية التي كان عبد الكريم الخطابي يعلم عنها الكثير"[3]

4- مذكرة 23 شتنبر 1947 لحزب الشورى والاستقلال وموقف الخطابي منها:

تقدم حزب الشورى والاستقلال يوم 24 شتنبر 1947 بمذكرة سياسية إلى السلطان محمد الخامس وإلى المقيم العام أطلق عليها مذكرة 23 شتنبر 1947. وقد أوفد الحزب إلى القاهرة مبعوثا للتعريف بها في الأوساط السياسية والإعلامية بمصر ولدى الجامعة العربية. ولما كان الزعيم علال الفاسي متواجد في القاهرة في ذلك الوقت، واطلع على فقرات منها نشرتها بعض

1. Mohamed Hassan Ouazzani, Combats d'un nationaliste marocain, Tome 2, 1933-1938, Fondation Mohamed Hassan Ouazzani, Fès, 1983, p. 281.
2. محمد حسن الوزاني / مذكرة "حياة وجهاد"، العدد الثاني / حرب الريف / م.م.ج.و/ مطبعة المتوسط / بيروت / 1982-صفحة 18
3. عبد الهادي بوطالب- هذه قصتي- منشورات الأحداث المغربية- كتاب الشهر / عدد 2005/15/ ص 100

الصحف القاهرية انتقدها الزعيم علال الفاسي انتقادا لاذعا معربا عن معارضته القوية لما ورد فيها من مقترحات وأفكار من بينها تلك التي تعترف لفرنسا بمهمتها التمدينية في المغرب، وبفضلها وصل وبلغ المغرب ما حققه من تقدم وتطور.

بادر الخطابي لمؤازرة ومساندة المذكرة الثورية لحزب حسن الوزاني في تصريحات أدلى بها للجريدة المصرية الكتلة بتاريخ 19 نونبر 1947، كما نشرت جريدة الأهرام استجوابا للخطابي بتاريخ 5 يناير 1948 علق فيه على المذكرة الثورية معلنا موافقته على ما ورد فيها من مقترحات سياسية في شأن تسوية الأزمة المغربية الفرنسية.[4]

5- تدخل الخطابي لدى الخارجية المصرية لفائدة الوزاني:

منذ سنة 1951 والوزاني يحضر مداولات الجمعية العامة للأمم المتحدة والتي شرعت في مناقشة القضية المغربية. ولما أراد الوزاني الحصول على تأشيرة الدخول إلى الولايات المتحدة الأمريكية مقر الجمعية الأممية لحضور أشغال الدورة السابعة لسنة 1952، وجد صعوبات وعراقيل للحصول على التأشيرة من السفارة الأمريكية بالقاهرة. فطلب الوزاني من الأمير الخطابي التدخل لدى وزير خارجية مصر حول الموضوع، وهذا ما فعله الخطابي يوم 24 أكتوبر 1952 حيث وجه خطابا طويلا إلى وزير خارجية مصر نقتطف منه الفقرات التالية:

> "...فقد ترامى إلينا أن دساس حزبية تمليها شهوات رخيصة ضارة بالقضية المراكشية مع الأسف حاولوا وضع العراقيل في طريق سفر السيد محمد حسن الوزاني زعيم حزب الشورى والاستقلال المراكشي إلى أمريكا، وقاموا بها لدى وزارتكم الموقرة ولدى بعض الدوائر الأجنبية لمنع كريم وساطتكم لديها... ونحن لا نستبعد أن يكون علال الفاسي هو محرر ما قد يكون وصل إلى وزارة الخارجية المصرية من دس في شأن الأستاذ الوزاني"[5].

ى- رسائل محمد حسن الوزاني إلى الخطابي في فجر الاستقلال

1- رسالة 30 يونيو 1956

في هذه الرسالة يعطي الوزاني للخطابي فكرة عن الحالة العامة التي كانت سائدة في فجر الاستقلال ويحدثه فيها عن الاعتداأت والاختطافات التي طالت رجال وشباب المغرب، ويختم رسالته بهذه العبارات "إن الحالة في المغرب لا تبشر بخير، والشعب في كرب عظيم، والأزمة تشتد سياسيا واجتماعيا واقتصاديا، والفوضى تعم بسرعة، والشعب يتطلع إلى الإنقاد السريع، ويأسف على عهد الاستقلال، ويفضل عليه عهد الاستعمار... هذا، ومن الأخبار

4. عز العرب محمد حسن الوزاني – حدثني والدي – مؤسسة محمد حسن الوزاني – الطبعة الأولى- بيروت / 1990/ ص 248-256.
5. نص الرسالة بكاملها في كتاب، عز العرب الوزاني / المصدر السابق – ص 339/337.

المحققة أن عباس من رؤساء جيش التحرير قد اختطف منذ يومين ولا يعرف له أثر، وأنتم تعرفونه لأنه كان قد زاركم بمصر" .

2- رسالة 2 فبراير 1959 من جنيف

بعث الوزاني هذه الرسالة من جنيف إلى الخطابي تعرض فيها إلى الأحداث الدامية التي اندلعت في الريف في أكتوبر 1958 وفبراير 1959 ويعرب فيها عن موقفه بهذه العبارات: "ولقد تألمت اشد الألم لما علمته من رسالتكم حول "الوحشية" المرتكبة ضد الأحرار في الريف من طرف القوات المضادة تحت قيادة الفرنسيين. ويجب أن تفضح تلك الوحشية بكل تفاصيلها وفضائحها في الداخل والخارج لأنها مجهولة لحد الآن.

"وأستسمح أن أخبركم بقرب سفري إلى القاهرة لنتذاكر في موضوع الرسالة وأطلعكم على ما تحت يدي من الوثائق حول أحداث المغرب وثورة الريف"

3- رسالة 23 يونيو 1960 من فاس

تناول الوزاني في هذه الرسالة عدة قضايا سياسية واجتماعية عرضها على الخطابي من هذه القضايا المقابلة التي أجراها مع الملك الحسن الثاني الذي عرض عليه منصب وزير التربية الوطنية والشبيبة والرياضة القومي، وقد رفضها كما تناول فيها قضية المعتقلين من حزب الشورى والاستقلال، واتصاله بعائلة عبد الكريم الحاتمي بطنجة الذي حصل على صورته وتاريخ اختطافه كما طلب في هذه الرسالة الطويلة من الأمير الخطابي إبلاغ تحياته وسلامه إلى الهاشمي الطرد وأنه سيعمل المتعين في شأن حمادي العزيز المعتقل في فرنسا للإفراج عنه .

موقف الوزاني والخطابي من أول دستور في مغرب الاستقلال

1- موثق الوزاني:

ينطلق موقف حسن الوزاني من أول دستور في مغرب الاستقلال من عقيدة حزبه وأدبياته التي وضعتها مؤتمراته وصادق عليها فبخصوص الدستور يطالب الوزاني بوضع دستور مغربي إما بواسطة مجلس تأسيسي منتخب بطريقة حرة ونزيهة، أو بعقد مجلس وطني يمثل الرأي العام المغربي بجميع اتجاهاته يمنحه الصلاحية التامة لوضع دستور مؤقت للمرحلة الانتقالية .

فإلى أي حد استجاب دستور 1962 لهذا المطلب الشورى ؟ يلخص موقف الوزاني موقفه من دستور 1962 في هذه المقولات:

-الدستور الذي يريده الشعب هو دستور بالشعب وللشعب
-إن مشروع الدستور المعروض على الاستفتاء لا يهتم بتأسيس نظام ملكية دستورية بقدرما يهتم بوضع دستور ملكي لا أقل ولا أكثر.

2- موقف الخطابي:

من القاهرة كان الخطابي يتابع بعناية فائقة معركة وضع أول دستور في مغرب الاستقلال وقد دخل بكل ثقله في هذه المعركة مؤيدا التيارات المعارضة لهذا الدستور، ومدعما أفكار محمد حسن الوزاني، من خلال البيانات والبلاغات والتصريحات التي صدرت عنه. ومن هذه البيانات لا حرية بدون دستور، وليس هناك من دستور إلا الدستور الوطني الذي تضعه الأمة بنفسها لنفسها، إن الدستور الشرعي لبلد لا يمكن أن تتولى صياغته إلا لجنة أو هيئة منتخبة تمثل مختلف الطبقات الشعبية تمثيلا صادقا وأصيلا.

كما عارض الخطابي هذا الدستور انطلاقا من تجربة دستور حكومة "الجمهورية الريفية" وباقي الدساتير التي ظهرت في مغرب بداية القرن العشرين بما في ذلك الدستور العثماني. كما عارض الخطابي دستور الملك الحسن الثاني لأن الزعيم علال الفاسي كان من المساهمين في وضعه والمؤيد والداعي له.

خلاصة:

يعد محمد حسن الوزاني الزعيم السياسي المغربي الوحيد الذي ربطته بقائد الثورة التحريرية الريفية محمد بن عبد الكريم الخطابي علاقات ودية وحميمية، منذ لجوء الأمير إلى القاهرة وتأسيسه للجنة تحرير المغرب العربي في يناير 1948 إلى يوم وفاته في فبراير 1963.

على أي أساس قامت هذه العلاقات الودية بين الرجلين وما سر الروابط التي ألفت بينهما سندات عدة حافلة بالوقائع والأحداث عاشها الرجلان بكل جوارحهما وحددا موقفهما منها بشجاعة أدبية وفكرية، في ظرفية سياسية عرف فيها المجتمع المغربي السياسي، وهو في طور التكون والتحول، صراعات حادة بين مختلف القرى السياسية والفكرية والاجتماعية والعسكرية من أجل السلطة والحكم وإثبات الذات واحتلال مواقع القرار في فجر الاستقلال من أجل التحكم في دواليب الدولة والمجتمع.

الحداثة السياسية وسؤال المرجعية في فكر محمد حسن الوزاني - مقدمة في دواعي التأصيل

عبد السلام الطويل

تنبع أهمية التأصيل للمفاهيم والقيم الليبرالية في التجربة التاريخية للأمة وتراثها السياسي ونصوصها التأسيسية، من الوعي باستحالة نشوء أي بناء عميق الجذور وقوي البنيان من غير أن يكون له سند تاريخي عميق في ثقافة المجتمع؛ ولذلك فحينما يلجأ محمد حسن الوزاني وغيره من الإصلاحيين إلى عملية التأصيل للمبادئ والقيم الليبرالية في الإسلام، فإنما يفعل ذلك لمواجهة :

أولا: القراءات الحرفية، المتزمتة للنص الديني التي تستميت في ممانعة كل تجديد وانفتاح على قيم العصر، خاصة وأن هذه القيم قد قدمت أول ما قدمت إليهم في ركاب الاستعمار...

ثانيا: الصورة السلبية السائدة عن الإسلام عند عدد غير قليل من المفكرين الغربيين أمثال مونتيسكيو وجون ستيوارت ميل ممن ينظرون إليه كـ "نظام مجتمعي متزمت مشيد على الإجماع ومحاربة الانشقاقات، وبالتالي مخالف لأصول المجتمع الليبرالي"[1].

فمع تسليم الوزاني أن القرآن هو "دستور الإسلام الخالد"، إلا أنه يعتبر أن ذلك "لا يتنافى مطلقا مع ما يخوله الإسلام نفسه، نصا وروحا، للمسلمين من حق التفكير في تكييف نظام دولتهم وفق ما تتطلبه حياتهم في كل عصر، أي في وضع دستور يكون القانون الأساسي لأنظمة الحكم والسياسة في الدولة..."[2]

فإلى جانب تأكيده أن كل أبواب النهضة والرقي تنفتح أمام المسلمين إن هم استطاعوا أن يدركوا أسرارالشريعة الإسلامية ويعملوا على التوفيق بين ما قررته من أصول وبين ما يطرأ على حياتهم من الحوادث ويعرض لهم من المشاكل، يشدد على أن "الشريعة لا تحرم على المسلمين اقتباس ما ينفعهم في دنياهم من الأمم الراقية..."[3]

أولا :الحرية :

يسجل عبد الله العروي تميز المؤلفين الليبراليين العرب عن نظرائهم الغربيين بميزتين اثنتين:

---

* رئيس تحرير مجلة الإحياء

1. عبد الله العروي، *مفهوم الحرية*، المركز الثقافي العربي، بيروت البيضاء، ص. 47.
2. محمد حسن الوزاني، "نظام الدولة المغربية في عهد استقلالها"، *حرب القلم*، الجزء الثالث، ص. 175.
3. محمد حسن الوزاني، *الإسلام والدولة أو حقيقة الحكم في الإسلام*، مؤسسة محمد حسن الوزاني، فاس، الطبعة الأولى،1987، ص. 163.

أولاهمـا: دفـاعهم عـن الحريـة ضـد خصـومها فـي مجتمعـاتهم مؤكـدين أن الإسـلام فـي صـميمه دعوة إلى الحرية. وثانيهما: إرادة تأصيل الحرية في عمق المجتمع والتاريخ الإسلاميين.

وهـو الأمـر الـذي ينطبـق، إلـى حـد بعيـد، علـى الـوزاني الـذي يـذهب إلـى أن "الإسـلام بصـفته شـريعة الإنسـانية الفاضـلة وديـن الحـق المطلـق يرتكـز علـى مبـادئ الإخـاء والمسـاواة والعـدل والحريـة" [4]. وتبعـا لـذلك، فـإن "سـلب النـاس حريـاتهم واسـتقلالهم؛ وهـو مـا يعبـر عنـه سياسـيا بالاسـتبداد والاضـطهاد، والاسـتعباد، ينكـره الإسـلام إنكـارا شـديدا وتأبـاه شـريعته إبـاء مطلقـا" [5]. إذ "لا طاعـة (فـي الإسـلام) إلا ضـمن العـدل والحريـة"[6] فضـلا عـن أن " اتبـاع الكتـاب والسـنة لا يسـوغ مصـادرة الآراء مطلقـا"[7]؛ فقـد كـان الرسـول (ص) لا يفتـأ "ينـادي بحريـة العقـل، ويعمـل لتثبيتهـا فـي النفـوس وإدخالهـا فـي التقاليـد العامـة"[8]. لـيخلص الـوزاني إلـى أن " حريـة الـرأي تعـد مـن أهـم وأقـدس الحقـوق الإنسـانية التـي يجـب علـى السـلطة الحاكمـة أن تصـونها صـيانة أمينـة دائمة"[9].

ووعيـا منـه بالأهميـة التـي يكتسـيها مبـدأ احتـرام حريـة الأمـة وإرادتهـا، فقـد اعتبـر أن عـدم تحديـد الرسـول لمـن يخلفـه لا يعبـر عـن تغافـل منـه (ص) لهـذا الأمـر الجلـل، وإنمـا يعبـر عـن مـدى "الاحتـرام الواجـب لإرادة الأمـة فـي تقريـر مصـيرها، وصـونا لحقهـا فـي إسـناد رئاسـتها إلـى مـن تراه الأصلح لسياستها، ونصرا لمبدأ الحرية التي يقدسها الإسلام تقديسا"[10].

أكثـر مـن ذلـك، وفيمـا يتصـل بعمليـة التأصـيل للقـيم الليبراليـة والحداثيـة عمومـا، فـإن الإسـلام يحـوز، مـن وجهـة نظـر الـوزاني، علـى مرجعيـة معياريـة أقـوى مـن نظريـة "الحقـوق الطبيعيـة" إذ نجـده يشـدد علـى أن "كـل أمـة مسـلمة تطالـب بحقهـا فـي الحيـاة لا تفعـل ذلـك باسـم الحقـوق الطبيعيـة الإنسـانية وضـرورات الحيـاة العصـرية الراقيـة فحسـب، بـل تنشـد ذلـك باسـم الإسـلام الـذي هـو شريعة الحق والمساواة والعدل والحرية"[11].

تـذهب الأدبيـات ذات الصـلة أن التجربـة العربيـة الجماعيـة التـي أعقبـت الحصـول علـى الاسـتقلال السياسـي وإنجـاز الإصـلاحات الليبراليـة المنتظـرة منـذ منتصـف القـرن 19 هـي التـي "كشـفت عـن حـدود الليبراليـة، وحـدت بـالمفكرين إلـى كشـف تلـك الحـدود والبحـث فـي أسـبابها وأصـولها، فكانـت

4. محمد حسن الوزاني، *الإسلام والدولة أو حقيقة الحكم في الإسلام*، مرجع سابق، ص. 127.
5. *نفس المرجع*، ص. 138.
6. *نفس المرجع*، ص. 107.
7. *نفس المرجع*، ص. 38.
8. *نفس المرجع*، ص. 113.
9. *نفس المرجع*، ص. 118.
10. *نفس المرجع*، ص. 86.
11. نفس المرجع، ص. 174.

فرصة لإحياء نظرية الحرية في ظرف جديد وثوب جديد"[12]. وبالإمكان رصد بواكير هذا الوعي النظري النسبي لدى الوزاني بصدد تناوله لحدود العلاقة بين الحرية والسلطة والدولة من جهة، والعلاقة بين الحرية والنهضة والتقدم التاريخي من جهة أخرى.

فبالنسبة لحدود العلاقة بين الحرية والدولة، نجد أن الوزاني ينطلق من وجود علاقة وظيفية بينهما محكومة باستقلالية مجالية واضحة؛ "فالحرية تتعزز بقيام الدولة، فكما أن الحرية لها نطاق معقول لا تتعداه فكذلك للدولة حد معين لا تتجاوزه وإلا تكون مطلقة التصرف والمشيئة، وهذا هو عين الاستبداد والاضطهاد.."[13] ذلك أن "السلطة الحاكمة ليست مطلقة التصرف في أمر الأمة، لأنها تستمد نفوذها من الشعب مصدر الحكم والسلطان، ولا تستعمل ذلك النفوذ إلا في الخير العام، وهو ضمانة الحقوق الإنسانية وحراستها من كل عدوان وإتلاف"[14]. وتبرز حدود سلطة الدولة في مواجهة حريات وحقوق الأفراد، أكثر ما تبرز، حينما يشير الوزاني إلى أن أية "حكومة لا يمكنها أن تجود إلا بما تملكه ملكا" وحينما يشدد على أن "الحقوق ملك الأفراد والجماعات لا يجوز مطلقا أن تستبد بها السلطة التي إنما تنحصر وظيفتها في القيام على الجماعة بتدبير شؤونها العامة وفق المصلحة المشتركة بين الناس كافة"[15].

أما بالنسبة للعلاقة بين الحرية والتقدم التاريخي، فإن الوزاني ينطلق من أن السلطة إذا كانت "لازمة لنظام المجتمع"، فإن "الحرية ضرورية لحياة الأمة.. وحيثما تلاشت الحرية بالظلم والإرهاب والإعتساف خيم الجمود، وساد الخمود، واستحكم الانحلال في الأفراد والجماعات واستحال مع هذا كل حركة ونمو وتعرقل كل رقي وسير مطرد إلى الأمام"[16]. أكثر من ذلك فإن الحرية تغدو بالنسبة للوزاني "وسيلة فعالة لتحقيق النهضة الاقتصادية والاجتماعية الضرورية لتحرير الجماهير المغربية من الفقر والجوع والبطالة"[17]

وهكذا يتضح أن الوزاني يصدر عن تصور وظيفي، اجتماعي للحرية محكوم بما عبر عنه بـ "الخير العام" و "المصلحة المشتركة" الأمر جعله يدافع عن نزعة تدخلية واضحة للدولة بقوله:

"لا جدال اليوم في أن الدولة هي المسؤولة عن النهضة الاقتصادية، وهذه المسؤولية تفرض عليها أن تتدخل في توجيه السياسة الاقتصادية للبلاد". وهو التدخل الذي يتخذ شكل "برنامج متناسق ومتكامل الأجزاء، هو التخطيط" الذي يعد بمثابة "الإستراتيجية للتنمية الاقتصادية والاجتماعية..". وهو بهذا يدافع

12. عبد الله العروي، *مفهوم الحرية*، مرجع سابق، ص. 107.
13. محمد حسن الوزاني، *الإسلام والدولة أو حقيقة الحكم في الإسلام*، ص. 108.
14. *نفس المرجع*، ص. 117.
15. *نفس المرجع*، ص. 117.
16. *نفس المرجع*، ص. 109.
17. محمد حسن الوزاني ، *في السياسة والمجتمع بعد الاستقلال*، مؤسسة حسن الوزاني، فاس، الطبعة الأولى، 1987، ص. 115-116.

عن ليبرالية اجتماعية يغدو بمقتضاها "لا غناء لأي تخطيط اقتصادي عن الاقتران بتخطيط اجتماعي حتى تكون المعركة مزدوجة ضد التخلف بشقيه الاقتصادي والاجتماعي"[18]. وهي المعركة التي تستوجب تضافر جهود كل من الدولة والأمة على حد سواء من منطلق أن "سياسة التخطيط لا تهم الدولة وحدها، بل تهم كذلك الأمة، وأن المعركة ضد التخلف ومن أجل التنمية ليست الدولة أولى بها من الأمة.."[19]

"لقد كافحنا، يقول الوزاني، دائما منذ تأسيس حزب الشورى والاستقلال لإقامة نظام ديمقراطي. هذا النظام الديمقراطي ليس نظاما سياسيا فحسب، ولكنه أيضا نظام اجتماعي. إن حالة الفلاح والعامل تفرض علينا مراجعة مفاهيمنا الاجتماعية من أجل ابتكار توزيع جديد ومنصف لثروات البلاد وفق طريقة حديثة وعادلة."[20]

كما يتجلى هذا المضمون الاجتماعي الوطني لليبرالية الوزاني حينما يحذر من اللجوء إلى التمويل الخارجي إلا عند الضرورة، وبما لا يخل بالسيادة الوطنية، ويضمن استعمال هذه الأموال في مجال التجهيز ومشاريع التنمية الاقتصادية، سعيا لخلق الثروة الاقتصادية وتنميتها في سبيل مصلحة المواطنين في الحاضر والمستقبل، بعيدا عن كل مظاهر الإسراف والتبذير في نفقات الدولة، معتبرا أن من العوامل المكرسة للأزمة التي يعيشها المغرب كون الدولة المغربية "كانت وما تزال مصرة على أن تعيش فوق المستوى المالي والاقتصادي والاجتماعي للبلاد.." وكذلك من خلال مناداته بـ "عدالة ضريبية تقوم على الحقائق الاجتماعية والاقتصادية" وذلك بأن "يعامل جميع المواطنين بكل إنصاف وعدالة فيما يخص التكاليف والجبايات"[21].

ثانيا :المسألة الدستورية:

تحتل المسألة الدستورية مكانة مركزية في المشروع الإصلاحي للوزاني لدرجة أن بعض الباحثين اعتبره "أول من طرح المسألة الدستورية بالمغرب، منذ تقديمه على رأس حزبه في 23 شتنبر 1947 مذكرة ربط فيها بين الاستقلال والديمقراطية.." من منطلق أن "المسألة الدستورية" أشمل وأعمق من مجرد المطالبة بدستور للبلاد، ولا حتى تقديم مشروع للدستور على غرار مشروع سنة 1908؛ لأن المسألة الدستورية "تطرح طبيعة السلطة ومصدرها، وبالتالي تحديد السلطة التأسيسية التي عن إرادتها يصدر الدستور"، وكذا تحديد الفلسفة التي

18. *نفس المرجع*، ص. 102-103.
19. نفس المرجع، ص. 114.
20. محمد حسن الوزاني، *في الدستور والبرلمان*، مرجع سابق، ص. 165.
21. *نفس المرجع*، ص. 112-119.

يقوم على أساسها النظام السياسي.. وطبيعة المؤسسات الدستورية والعلاقات فيما بينها.. الأمر الذي لن يطرح لدى القوى السياسية الوطنية إلا في نهاية الخمسينات.[22]

وبالإمكان أن نرصد ثلاث مراحل كبرى في تطور المسألة الدستورية لدى الوزاني؛ ففي ظل الاستعمار ربط بين التحرر من نير هذا الأخير ومطالبة "سلطة الحماية" بوضع دستور ديمقراطي للبلاد، وما أن حصل المغرب على استقلاله حتى طالب بوضع دستور وطني بواسطة مجلس تأسيسي منتخب انتخابا ديمقراطيا حرا، لكن بعد أن استشرى الفساد وأحبطت معظم الوعود والآمال المعلقة على دولة الاستقلال وقر في يقين الوزاني أن الدستور لن يؤتي ثماره إلا في سياق مشروع إصلاحي شامل سيجري التعبير عليه في كتابات الوزاني وبرنامج حزبه بـ "الثورة الباردة من الأعلى" التي ترتقي لديه إلى مستوى الإيديولوجية أو العقيدة..

ينطلق الوزاني من التلازم الوظيفي العميق بين الدستور والنهضة؛ وانسجاما مع ذلك ينفي وجود أمة نهضت من غير دستور، مؤكدا أن "الأمة التي لا دستور لها إنما هي أمة متأخرة، وكل نهضة تقوم فيها إنما تكون ناقصة ومعرضة في كل حين إلى التعثر"[23]. فالدستور بالنسبة إليه ينبغي أن يشكل "تجديدا جوهريا لجميع جوانب حياة الأمة بما تحمله كلمة (Constitution) الفرنسية من معاني البناء وإعادة البناء، وبما تفيده من نهضة سياسية واجتماعية.." كما ينبغي أن يكون متشبعا بالقيم "التحررية والتقدمية"، بحيث يكون محققا لـ "معاني الحرية والسيادة والاستقلال لصالح الأمة"[24]. بحيث أن قيمته لا تتحدد بما يشتمل عليه من قواعد وأحكام فقط، وإنما من خلال التفعيل التاريخي لها؛ إذ "بقدر ما تستقيم التجربة النيابية ينجح الدستور كقانون ونظام صالحين للحكم والسياسة"[25].

رغم أن الوزاني يرتقي بالملكية، إلى جانب الإسلام، إلى مستوى الثوابت الدستورية والمرجعية الكبرى، ورغم تبنيه لقراءة ديمقراطية للدستور تعتبر أن "نظام الملكية الدستورية الديمقراطية يجعل الأمة، بواسطة نوابها، شريكة في الحكم والسياسة.."[26] إلا أن ذلك لم يمنعه من نقد النظام الملكي القائم؛ فبعد أن يسجل أن الأمة تكون في ظل الملكية الدستورية "سيدة نفسها في الحقيقة والواقع، وتكون، بحكم هذا، متمتعة بكامل حقوق السيادة التي على رأسها حق الأمة في وضع الدستور بواسطة نوابها وأهل الحل والعقد فيها دون تدخل الدولة

22. علي حسني، محمد حسن *الوزاني وإشكالية البناء الديمقراطي بالمغرب: 1947-1978*، مؤسسة حسن الوزاني، الطبعة الأولى، 1419-1998، ص. 12.
23. محمد حسن الوزاني، *حرب القلم*، الجزء الثالث، ص. 66.
24. محمد حسن الوزاني، *في الدستور والبرلمان*، مؤسسة حسن الوزاني، فاس، الطبعة الأولى، 1987، ص. 13.
25. محمد حسن الوزاني، *نفس المرجع*، ص. 299.
26. محمد حسن الوزاني، *في الدستور والبرلمان*، مرجع سابق، ص. 135.

والحكومة" يعود ليؤكد أن "الأمة التي تنتزع الدولة منها هذا الحق المقدس ليست معتبرة، ولا هي في الواقع دولة سيدة بالمعنى الحقيقي والكامل للكلمة."[27]

انسجاما مع هذا المنظور الذي يجعل الدولة في مواجهة الأمة، وضدا على إرادتها يكشف الوزاني أن دستور 1962 لم ينشئ ملكية دستورية بقدر ما مثل دستورا ملكيا..[28] بحيث لا يكفي أن تزود المملكة بدستور لتصبح الملكية فيها دستورية، وكل ما في الأمر أن الملكية "تتدستر من غير أن تصير دستورية اسما ومسمى.."[29]

وفي هذا السياق يعتبر الوزاني أننا "بقدر ما نتمسك بالملكية الدستورية على النسق المتفق مع روح العصر الذي هو عصر الشعوب والثورات الفكرية والسياسية والاجتماعية الهادفة إلى تغيير المفاهيم القديمة، وتحويل الأوضاع التقليدية، وتجديد الأنظمة لتكون ملائمة لسنة التطور والارتقاء.. نتمسك، بحكم هذا كله، بمفهوم السيادة للأمة وبكل ما ينبثق عنها من حقوق كاملة غير منقوصة، ومن اختصاصات تمارس بواسطة وكلاء الأمة الحقيقيين دون المفروضين والمزعومين، كما هو الشأن في الدساتير العليلة الفاسدة، والديمقراطيات الشكلية الفاشلة."[30]

وهكذا يربط الوزاني ربطا عضويا بين الدستور والسيادة؛ ففي سياق نقده لمشروع دستور 1972، الذي يرى فيه نكوصا واضحا عن مقتضيات دستور 1962 ورجوعا بالديمقراطية إلى الوراء واصطداما مع روح العصر، يقول : "ليس من شك في أن التجربة الدستورية الجديدة تجرد الأمة من كثير من حقوقها، وتحرم سيادتها من عدة اختصاصات.."[31] وفي مقابل ذلك يعطي الدستور صلاحيات جد واسعة للملك على حساب الحكومة التي له كامل الصلاحية في "تعيين وزرائها وإقالتهم متى أراد"، كاشفا كيف أن الحكومة في المغرب تعد "حكومة صاحب الجلالة" التي لا تعدو كونها هيئة مؤلفة من مساعدين للملك يعينهم ويقيلهم بمحض إرادته.

يبرز تمسك الوزاني المبدئي بالمسألة الدستورية في صلتها بالخيار الديمقراطي أكثر ما يبرز من خلال دفاعه عن مجلس تأسيسي منتخب انتخابا ديمقراطيا حرا[32]، وكذا من خلال انتقاده لإعلان حالة الاستثناء(الطوارئ)؛ وما نتج عنها من تراجع عن خطة الحوار الوطني والاستشارات السياسية في أفق السعي لتحقيق الائتلاف الوطني، وتجميد أكثر فصول الدستور

27. محمد حسن الوزاني، حرب *القلم*، الجزء الثاني، ص. 49-50.
28. محمد حسن الوزاني،" دستور ملكي لا ملكية دستورية"، حرب *القلم*، نفس المرجع، ص. 60-63.
29. محمد حسن الوزاني، *الدعوة إلى النهضة والانبعاث*، ص. 47.
30. محمد حسن الوزاني، *في الدستور والبرلمان*، مرجع سابق، ص. 23-24.
31. محمد حسن الوزاني، *في الدستور والبرلمان*، مرجع سابق، ص. 23.
32. نفس المرجع، ص. 8-9.

لدرجة إفراغه من محتواه تقريبا، وتعطيل الحياة النيابية بشل البرلمان وعرقلة سيره، الأمر الذي أدى إلى إحداث فراغ ديمقراطي خطير في الحياة العامة وحرمان الشعب من مؤسساته الدستورية الممارسة لسيادته والناطقة باسمها، والتي تعتبر وسيطة بينه وبين حكامه..

فإعلان حالة الاستثناء ليست، بالنسبة للوزاني، مجرد إجراء غير دستوري، وإنما هي ،أكثر من ذلك، إجراء "يحطم الدستور، ويهدم الديمقراطية، ويعطل الحياة البرلمانية في البلاد، ويجهز على الحريات العامة..[33] الأمر الذي جعل المغرب يعاني من "أزمة نظام وحكم وسياسة لم يسبق لها مثيل"عملت على تكريس أزمة ثقة عميقة بين الشعب والدولة توقع الوزاني أن "تفتح الباب على مصراعيه لأحداث وتطورات غير محمودة العواقب"[34]

وفي مواجهة هذه الأوضاع فقد اعتبر أن السبيل الوحيد لتجاوز هذه الأزمة يكمن في "إصلاح الدولة جذريا" بالقضاء على مختلف مظاهر الفساد عبر "إصلاح إدارة الحكم في الدولة" و"مواصلة معركة التحرير الديمقراطي، وإحاطة الدستور والديمقراطية بضمانات فعلية وقوية كفيلة بصيانة مكتسبات الشعب في عهد الحرية والساد ة والاستقلال وشريعة الإسلام التي تجعل الحكم شورى بين المسلمين."[35]

وفي هذا الإطار يعتقد الوزاني أن "خلاصة الفلسفة الدستورية التي تستمد منها أنظمة الحكم الصالح في الدول العصرية الراقية" لا تختلف جوهريا عن نظام الشورى الإسلامي "وإذا كان الإسلام لم يعين نظاما للشورى ولممارسة السيادة والحكم في نطاقها فإنه جعلها من اختصاص أهل الشورى الذين هم أهل الحل والعقد من ذوي الرأي في الأمة. أما فكرة التعاقد الدستوري بين الأمة وحكامها فليست غريبة عن الإسلام والمسلمين."[36]

أكثر من ذلك فالوزاني يذهب إلى حد اعتبار أن "خير دستور تتخذه كل دولة تريد الانتساب إلى الإسلام هو الدستور الذي يضمن تحقيق أغراض الشريعة في الحكم والسياسة لخير كل مواطن مسلم، ولقيام المجتمع الوطني الصالح."[37]

ثالثا :الديمقراطية :

ينطلق الوزاني من مفهوم للديمقراطية لا يخلو من أبعاد ليبرالية مفاده أن "الديمقراطية ليست مجرد جهاز انتخابي، بل نظام قائم على الفرد؛ حقوقه وحرياته"[38]. ولطالما نادى وعمل على

33. نفس المرجع، ص. 146-152.
34. وهو ما حدث بالفعل من خلال تدبير انقلابين عسكريين في مطلع السبعينيات. ذهب الوزاني نفسه ضحية أحدهما؛ وذلك ببتر أحد ذراعيه.
35. *نفس المرجع*، ص. .151.
36. *نفس المرجع*، ص. 20-21.
37. محمد حسن الوزاني،" الإسلام والدستور" ، حرب *القلم*، الجزء الأول، ص. 184.

"إقامة نظام ديمقراطي حقيقي يستمد وجوده حقا من إرادة الشعب، ولا يعمل إلا لصالح الشعب"[39]. في إطار وفاق وطني يقوم على وضع برنامج الحد الأدنى المشترك بين الأحزاب، كما أن النزوع الديمقراطي الليبرالي لأول خريج مغربي من المدرسة الحرة للعلوم السياسية بفرنسا، يمكن استشفافه من خلال تسمية حزبه بـ "حزب الشورى والاستقلال" ثم بعد ذلك "حزب الدستور الديمقراطي"، فضلا عن حمل الجريدة الناطقة بلسان حزبه لاسم "الدستور" وهو النزوع الذي يحرص على تمريره وتأصيله في التربة الثقافية والدينية للشعب حيث إن الصحف الأولى التي صدرت عن حزب "الحركة القومية" كان ينشر في صفحتها الأولى صورة برلمان شعبي مكتوب تحته: "وأمرهم شورى بينهم" إلى جانب شعارات تدعو لتحرير الإنسان المواطن واحترام حقوقه من قبيل مقولة عمر بن الخطاب: "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا؟"

يعد الوزاني من أكثر رموز الحركة الوطنية تشبثا بمبدأ التعددية السياسية، وقد خاض في سبيل ذلك صراعا حقيقيا مع دعاة إيديولوجيا الحزب الوحيد التي كانت سائدة بقوة، تعززها الحاجة الموضوعية للتوحد في مواجهة المستعمر، لذلك نجده يحذر بأنه "ما دامت (عقلية ونظرية) الحزب الوحيد موجودتين عند أصحابها في هذه البلاد، فإن الخطر لم يرتفع عن حياتها، ومصير الحرية معرض في كل وقت عندنا إلى ما لا يحمد أبدا"[40].

وليس غريبا أن يرتبط وجود التعددية السياسية بالمغرب باختيارات الوزاني الديمقراطية المبكرة؛ ذلك أن التعددية الحزبية في المغرب ما كانت لتشق طريقها في المغرب في منتصف الثلاثينات لولا انقسام "كتلة العمل الوطني" إلى قسمين؛ أحدهما تمثل في "الحزب الوطني" بزعامة علال الفاسي، وثانيهما تمثل في "الحركة القومية" بزعامة الوزاني الذي رفض دعوات الحزب الوطني المتكررة لدمج الحزبين في حزب واحد تشبثا منه بالتعددية والديمقراطية، وبذلك "تم اختراق فكرة الحزب الوحيد، وأصبح الاتجاه واضحا في أن المغرب اختار التعددية. وعندما تشكلت الجبهة الوطنية بين الأحزاب الوطنية، تكرست فكرة التعددية الحزبية؛ إذ كانت تتشكل من أربعة أحزاب؛ اثنان في المنطقة الخليفية (التابعة لاسبانيا)، واثنان في المنطقة السلطانة (التابعة لفرنسا)".[41]

---

38 محمد حسن الوزاني، *الدعوة إلى النهضة والانبعاث*، مرجع سابق، ص

39. محمد حسن الوزاني، *في الدستور والبرلمان*، مرجع سابق، ص. 176-177.

40. محمد حسن الوزاني، *حزب القلم*، الجزء الثاني، ص. 125.

41. عبد الهادي بوطالب، *نصف قرن في السياسة*، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، سلسلة شرفات، الطبعة الأولى، 2001، العدد 6، ص. 63 -65.

فبينما كان حزب الاستقلال يركز في برنامجه، بشكل شبه حصري، على المطالبة بالاستقلال كان محمد بلحسن الوزاني يركز على "توأمة الاستقلال والديمقراطية" ونظرا لوعيه بمدى مركزية وتجدر مفاهيم الجماعة والإجماع ووحدة الأمة في المخيال الجماعي للمغاربة، فقد كان شديد الحرص على التأكيد أن "التعددية الحزبية لا تتنافى ووحدة الأمة" وأن "التعدد قائم على اختلاف وجهات النظر والبرامج، وإلا كان مجرد خلاف وانقسام وشقاق.."[42]

ونظرا للارتباط العميق بين مبدأي التعددية والمعارضة السياسية فمن الطبيعي أن إيمان الوزاني بالمبدأ الأول لن يستقيم إلا بإيمانه بالمبدأ الثاني، غير أن عنصر الجدة هنا هو أن ما أمسى يطرح الآن من طرف البعض كتجديد في مفهوم المعارضة تحث بند "المعارضة الناصحة والمساندة النقدية.."، على أهمية السياق السياسي الذي جاء فيه، قد سبق للوزاني أن طرحه منذ عقود مشددا على أنه لا يؤمن إلا بكل "معارضة مشروعة، نزيهة وإيجابية، تجاه الأوضاع الفاسدة في البلاد، هذه المعارضة التي تقول للمحسن أحسنت، وللمسيء أسأت، فهي ليست معارضة ديماغوجية هدامة تلجأ إلى احتراف النقد التحطيمي والمزايدة الغوغائية"، كما أنها " ليست حربا كلية مطلقة"، وإنما هي نقد ذاتي للتعرف على العيوب والأخطاء، وتشخيص الأمراض والعاهات، والإرشاد إلى وسائل الإصلاح والعلاج."[43]

كما يعد من أكبر المدافعين عن مبدأي سيادة الأمة وفصل السلطات؛ وفي هذا السياق يتساءل تساؤلا استنكاريا :"إذا كان البرلمان يمثل ويمارس سيادة الأمة، وإذا كانت الحكومة مسؤولة أمام مجلس النواب، فكيف يقبل العقل والدستور أن يكون مجلسنا هذا مقيدا في حياته، ونظامه، وسيره بمشيئة الحكومة" ليخلص إلى أن "مبدأ الفصل بين السلطات لا يقوم إلا في الحكومة النيابية البرلمانية"[44].

إن دفاع الوزاني عن المبادئ السابقة لا يقل عن دفاعه على استقلالية القضاء؛ إيمانا منه أن "القضاء في كل أمة ودولة مظهر عظيم من مظاهر السيادة الوطنية التي لا يمكن أن تصان حقوقها، وتحترم كرامتها، إلا إذا سلمت من كل تدخل.. وتحررت من كل سيطرة دخيلة.."[45]

ومما يعزز تبني الوزاني لليبرالية اجتماعية وطنية؛ انطلاقه من أن "الديمقراطية كنظام تتطلب من الشروط ما يجعل قيامها بنجاح متعذرا في كل مجتمع يرهقه التخلف الفكري، والاجتماعي، والخلقي، والسياسي"، وبأنه لا ديمقراطية بدون تربية وطنية وسياسية، وبان

42. نفس المرجع، ص. 125.
43. محمد حسن الوزاني ، *في السياسة والمجتمع بعد الاستقلال*، مرجع سابق، ص. 126-127.
44. محمد حسن الوزاني، *في الدستور والبرلمان*، مرجع سابق، ص. 73.
45. نفس المرجع، ص. 77.

"أصلح ديمقراطية للمجتمع المغربي ليست هي الديمقراطية المستوردة التي تعاني في مواطنها الأصلية أزمة مستفحلة.. بل الشورى كما فرضها الإسلام وقننها تشريعه الدستوري، وطبقها الصالحون من حكامه في تاريخه المجيد"[46].

لا ينسى الوزاني يؤكد أن الأمة المغربية "سيدة نفسها، ومالكة زمام أمرها، وقادرة على التصرف في شؤونها، وحرة في تقرير أنظمتها، وإقامة أجهزة التمثيل والحكم فيها. وإجراء الرقابة على المسؤولين في تدبير الشؤون العامة فيها"[47].

غير أنه بينما تنزع الليبرالية، في موطنها الأصلي، منزعا علمانيا واضحا فيما يتصل بالعلاقة بين الدين والسياسة، نجد الوزاني يصدر عن تصور لا تكاد تنفك فيه السياسة عن الدين؛ منتقدا من يقولون بخلو القرآن والسنة من "القوانين السياسية" مؤكدا أن القرآن الكريم "قد وضع أصولا سياسية واضحة يسير بمقتضاها المسلمون في تنظيم حياتهم العامة.. وهي أصول سياسية تعد من أمهات الأحكام.." من قبيل العدل، والحرية، والشورى، والمساواة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر..

ولم يكتف الوزاني باعتبار هذه الأصول كافية لإرساء أسس دولة قوية وعادلة، وإنما ذهب إلى حد اعتبار أن "الدساتير الحديثة الراقية لم تقر شيئا غيرها في تقرير مصير الأمم وتدبير شؤون حكوماتها وكفالة حقوق رعاياها"[48].

مؤسسا موقفه، فيما يتصل بالعلاقة بين الدين والسياسة، على كون "الإسلام يخالف المسيحية بكونه شديد الاهتمام بأمر الحكومة ونظام الدولة في المجتمع الإسلامي، ويجعل الحكومة شورى بين المؤمنين، ويوجب على الولاة السير بالعدل في الرعية، ويعمل لأن تقوم الحرية والمحبة بين الأمة والحكومة مقام الاستبداد والكراهية، وذلك كله هو المعبر عنه بالديمقراطية الصحيحة"[49].

وهكذا يبرز المنزع الليبرالي للوزاني من خلال تأويله وقراءته الديمقراطية لأصول وتجربة الحكم في الإسلام؛ "فالرئاسة السياسية لا تكون بالوراثة ولا بالتعيين، بل هي منتخبة على أساس الشروط المرعية في الخلافة"[50] التي ينفي أن تكون "ميراثا يتوارثه الناس عن الرسول (ص) وإنما هي منصب سياسي يتقلده الكفء الأصلح.." بحيث أن "أحق الناس به أقدرهم

---

46. محمد حسن الوزاني ، *في السياسة والمجتمع بعد الاستقلال*، مرجع سابق، ص. 36.
47. محمد حسن الوزاني، *في الدستور والبرلمان*، مرجع سابق، ص. 19.
48. محمد حسن الوزاني، *الإسلام والدولة أو حقيقة الحكم في الإسلام*، مرجع سابق، ص. 22-23.
49. *نفس المرجع*، ص. 19.
50. *نفس المرجع*، ص. 126.

على الاضطلاع بمهماته في النيابة عن صاحب الشرع في حفظ الدين وسياسة الدنيا." وما كف الرسول عن العهد بالخلافة صراحة لأي شخص إلا دليل على أن " الخلافة وظيفة سياسية انتخابية محضة"[51]، وأن "وظيفة الرئاسة السياسية هي خدمة المصالح العامة للأمة بمقتضى الشريعة.." وأن "الشعب هو مصدر السلطة الحاكمة بلا نزاع"، وأن "نظام الحكم الإسلامي يقوم على الشورى التي يعتبر حكمها واجب عقلا وشرعا وسياسة، وعلى احترام حرية الرأي بجميع أشكالها". مستخلصا أن جميع هذه الأصول ترجع إلى أصل واحد يختزن جوهر المسألة السياسية برمتها؛ وهو أن "الأمة مصدر الحكم والسلطان بلا جدال" الأمر الذي يشكل عماد ما ينعته الوزاني بـ "الديمقراطية الإسلامية الرشيدة."[52]

كما أن "القانون الإسلامي العام" إنما يتحدد، لدى الوزاني، بعناصره المكونة من "السيادة الشعبية، ومسؤولية الهيئة التنفيذية، والفصل بين السلطات، وضمان الحقوق والحريات الشخصية والعامة.."[53]

وفي صلة قوية بالديمقراطية نجد لدى الوزاني تمثلا عميقا لمبدأي المساواة وشرعية الأداء؛ فعلى غرار المفكرين الليبراليين الأوروبيين الذين عملوا، على امتداد المرحلة التاريخية الممتدة بين حركة الإصلاح الديني والثورة الفرنسية، على الإجهاز على أسس النظام الفيودالي القديم الذي طالما ربط الحظوة والامتياز بنبالة المولد وشرفه[54]، فقد شدد الوزاني على أن النزوع إلى جعل "آل البيت" طبقة خاصة من دون الناس "مخالف لروح الإسلام وشريعته" التي تنكر كل "تمييز وتفضيل يستند على النسب والجنس والقبيلة ولون البشرة واللسان.. وإن كان لابد من تمايز وتفاضل فإنما يكون بالعلم والعمل والفضيلة والتقوى، أي بالمواهب النفسية والكفاءات الشخصية"[55]. الأمر الذي يكشف مدى تهافت السعي إلى تكييف وتفسير الخلاف بين علال الفاسي والوزاني على أنه خلاف بين أسرتين أسرة الشرفاء(الوزاني) وأسرة العلماء(الفاسي)، لأن الوزاني لم يكن شيخ زاوية ولا زعيما لطائفة دينية، فرغم أنه كان وزانيا ينتمي لأسرة "شريفة النسب" وفقا للمعايير الاجتماعية السائدة، إلا أنه لم يكن يقول بالزاوية أو يتعصب للنهج الصوفي، بل كان، كما رأينا، يحمل على ظاهرة الشرف المتوارث.[56]

---

51. *نفس المرجع*، ص. 82-83.
52. *نفس المرجع*، ص. 126.
53. محمد حسن الوزاني، *الإسلام والمجتمع والمدنية*، مرجع سابق، ص. 28.
54. علي الدين هلال،" أزمة الفكر الليبرالي في الوطن العربي"، مجلة *عالم الفكر*، الكويت، المجلد 26، العدد المزدوج: الثالث والرابع، 1998، ص. 111.
55. محمد حسن الوزاني ، *في السياسة والمجتمع بعد الاستقلال*، مرجع سابق، ص. 15-16.
56. عبد الهادي بوطالب، *نصف قرن في السياسة*، مرجع سابق، ص. 57.

ومـن جهـة أخـرى، فقـد كـان يعتقـد أن المؤسسـات الديمقراطيـة لا يمكـن أن تتمتـع بالمصـداقية والفعاليـة إلا إذا كانـت تسـيرها "نخبـة مـن المسـؤولين الـوطنيين، تتمتـع بقـيم خلقيـة عاليـة، وتمتلـك كفاءة علمية وتقنية تتناسب ومسؤولياتهم ووظائفهم في حظيرة الدولة"[57].

وانسـجاما مـع نزعتـه الاجتماعيـة الأخلاقيـة المناهضـة لكـل مظـاهر الظلـم والفسـاد، يعتبـر الـوزاني أن مـن أنجـع الوسـائل لضـمان المسـاواة بـين المـواطنين العمـل بقـانون مـن أيـن لـك هـذا؟ فهـو الكلمـة الرهيبـة التـي سـتجلجل فـي روع اللصـوص الكبـار حـين يحـاولون السـلب والنهـب[58] مؤكـدا فـي نفس السياق أن البؤس والجوع هو المجال الحيوي للجريمة[59].

كمـا يعـد الـوزاني مـن أول المنـادين والمـدافعين علـى تضـمين الدسـتور المغربـي الاعتـراف بحقـوق الإنسـان كمـا أقرتهـا المواثيـق الدوليـة، معتبـرا أن ورود تلـك النصـوص والأحكـام فـي صـلب الدسـتور يعـد ابتكـارا قانونيـا، وسـلاحا جديـدا فـي صـالح الحريـة والديمقراطيـة. ومؤكـدا، فـي الوقـت نفسـه، أن ضـمان الحقـوق، وصـيانة الحريـات، وتثبيـت نظـام الديمقراطيـة يحتـاج إلـى نضـال أول سـلاحه الدسـتور ومـا يتفـرع عنـه مـن قـوانين[60]. فمـا أن حصـل المغـرب علـى اسـتقلاله السياسـي حتـى نـادى الـوزاني بالتعجيـل بإلغـاء جميـع القـوانين التـي ألغـى أو قيـد بهـا الاسـتعمار حقـوق وحريات المغاربة..[61]

وتعزيـزا للمنحـى التأصـيلي، يـذهب إلـى أن الإسـلام كـان سـباقا لإقـرار حقـوق الإنسـان وأن المسـلمين لـم يحتـاجوا إلـى التـوارث والحـروب الأهليـة لإعـلان حقـوق الإنسـان وتقريرهـا.. فالمسـلمون قـد بـدأو فـي السياسـة مـن حيـث انتهـى العلـم السياسـي الحـديث وثـورات الأمـم فـي سـبيل التحرر على أساس الحقوق الطبيعية للإنسان[62].

رابعا :الوزاني وتداخل المرجعيات:

مـع أننـا لا نعـدم لـدى الـوزاني حضـور المحـددات الكبـرى للمنظومـة الديمقراطيـة الليبراليـة ومـا يتصـل بهـا مـن مفـاهيم كالتعدديـة الحزبيـة، وفصـل السـلطات، والسـيادة، وتـداول السـلطة، والمعارضـة، واسـتقلال القضـاء، وحقـوق الإنسـان، إلا أن هـذا الحضـور يظـل محكومـا بنـوع مـن التشـوش والضـبابية المرجعيـة؛ سـواء مـن خـلال الحضـور الكثيـف للسـلطة المرجعيـة للإسـلام، أو

57. محمد حسن الوزاني، *الدعوة إلى النهضة والانبعاث*، مرجع سابق، ص. 64.
58. نفس المرجع، ص. 57.
59. نفس المرجع، ص. 66.
60. محمد حسن الوزاني، حرب *القلم*، الجزء الثالث، مرجع سابق، ص. 99-100.
61. محمد حسن الوزاني، *في السياسة والمجتمع بعد الاستقلال*، مرجع سابق، ص. 70.
62. محمد حسن الوزاني، *الإسلام والدولة أو حقيقة الحكم في الإسلام*، مرجع سابق، ص. 172. لكن لا بد من الإشارة هنا إلى أن "منظومة الإسلام الحقوقية" الأصلية كقيم ومبادئ عامة لا تعمل من تلقاء نفسها، وإنما تعمل من خلال تمثلها التربوي والثقافي والاجتماعي العام، والاحتكام الطوعي لمقتضياتها من خلال تجسيدها في دنيا الناس ، وهو ما لن يتحقق إلا بعد أجرأتها في إطار منظومة قانونية ومؤسساتية متكاملة..وهو ما يصعب ادعاء تحققه في التجربة التاريخية الإسلامية.

من خلال ما يسميه بالإيديولوجية الانقلابية أو الثورة الباردة من الأعلى التي ترتقي لديه إلى مستوى العقيدة السياسية، وهي الإيديولوجية التي نجدها محملة بجملة من المفاهيم الاشتراكية؛ كالثورة، والانقلاب، والطبقات الكادحة، النضال، التقدمية، الحتمية، الطليعة الثورية.. إذ لا سبيل إلى إقامة مجتمع.. ديمقراطي تقدمي اشتراكي بمجرد الوسائل العادية البطيئة، بل بالانقلاب الحقيقي الشامل الذي لا يتم إلا بالنضال الشعبي.. ولهذا فاشتراكيتنا ليست تقدمية في مبادئها وأهدافها فحسب، بل حتى في وسائلها التي هي جريئة وفعالة إلى حد الثورة والانقلاب على أوضاع التأخر والانحطاط والفساد[63].

وفي هذا السياق فقد دعا الوزاني كما سلفت الإشارة إلى ما أسماه بالانقلاب والثورة في مجال الإصلاح أو الثورة الباردة من الأعلى التي تستهدف التغيير الجذري للأوضاع السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية والأخلاقية، والنفسية وكذا تغييرالأجهزة والأنظمة والمناهج والإطارات من خلال خلق هزة نفسية تحدث ثورة داخلية لدى الأفراد، وتستحث إرادة التغيير في الأمة بالاعتماد، على ما يسميه بالطليعة الثورية التي تتمثل أفكار، ومبادئ، ومثل، وأخلاق الثورة الإصلاحية في تفاعل مع الجماهير، عبر خوض نضال منظم ومتواصل، سعيا لإرساء أسس نظام الحكم الصالح[64].

فالثورة الباردة، بهذا المعنى، تعد بمثابة مذهب وسياسة وبرنامج عمل تهدف إلى تغيير جذري كامل[65]، وبمثابة السياسية الانقلابية التي تستطيع أن تقتلع الفساد من جذوره، وتبني المغرب الجديد دولة ومجتمعا..[66] عبر القضاء على الأوضاع الفاسدة، وإنجاز الإصلاحات الجوهرية في جميع الميادين، والعمل باستمرار على مراجعة الأنظمة والمؤسسات لتجديدها حسب سنة التطور، ولجعلها مطابقة لروح ومصلحة كل عصر وجيل، وتحرير الفرد والجماعة من كل استغلال وقهر وعبودية، وكفالة الأمن، والحرية والعدل والمساواة، للجميع، وضمان تمتع كل فرد ،بصفته إنسانا ومواطنا، بوسائل الرقي المعنوي والتقدم المادي، والثقافة الروحية والبدنية.[67]

لكن كيف للثورة أو الانقلاب أن يكون باردا؟ ألا يعبر هذا عن تناقض أو مفارقة؟

لا يتردد الوزاني في محاولة رفع هذه المفارقة بتأكيده أن الثورة رغم كونها باردة في وسائلها؛ إذ هي ليست ثورة مسلحة، وإنما تستعمل الوسائل السلمية المشروعة التي هي وسائل الحكمة

63. حزب الشورى والاستقلال، المؤتمر الوطني العام، فاس، 19-21، المطابع الفرنسية المغربية، 1959، ص. 26.
64. محمد حسن الوزاني، *في السياسة والمجتمع بعد الاستقلال*، مرجع سابق، ص. 25.
65. نفس المرجع، ص. 125 – 126.
66. محمد حسن الوزاني، *في الدستور والبرلمان*، مرجع سابق، ص. 174.
67. محمد حسن الوزاني، *في السياسة والمجتمع بعد الاستقلال*، مرجع سابق، ص. 41-42.

والإصلاح في إطار من الشرعية القانونية والإجماع الوطني، إلا أنها ليست باردة في ذاتها، فهي جسد له روح نابض بالحياة، متأجج بالحيوية[68].

فرغم أن الوزاني يدعو إلى اتخاذ إيديولوجية ثورية وخطة إصلاحية انقلابية تسير بالمغرب نحو مجتمع جديد.. إلا أنه لا يتصور تحقيق ذلك إلا في نطاق النظام الملكي المغربي، الذي سبق له أن التحم مع الشعب في ثورة التحرير والانعتاق. ولذلك فهو قادر، حسب الوزاني، على أن يقود الشعب من جديد في طريق ثورة الانبعاث[69]. فمع أن الوزاني ومناضلي حزبه كانوا "ثوريين فكريا" إلا أنهم كانوا إصلاحيين في ظل الولاء للعرش واحترام المقدسات.. ومتحمسين لملكية عصرية ديمقراطية برلمانية[70].

فهو لا يكتفي بمجرد التأصيل للقيم الليبرالية في المرجعية الإسلامية دفعا للممانعة التي من الطبيعي أن يبديها مجتمع تقليدي يخضع للسلطة المعرفية للفقهاء، سعيا لإضفاء نوع من القبول والاستساغة والمشروعية لهذه القيم والمبادئ التي تلقاها هذا المجتمع، أول ما تلقاها، وهي قادمة في ركاب "المستعمر الغازي الكافر"، وإنما يتجاوز ذلك ليبدو وكأنه داعية إسلامي يؤمن أن الإسلام يمثل شريعة الإنسانية الفاضلة ودين الحق المطلق.[71] وأنه كان سباقا لتشريع النظام الديمقراطي كما يعتقد أن مسألة الحكم التي تعد "أم المشاكل" في المغرب لا يمكن حلها إلا بالعودة إلى أصالة الحكم في الإسلام.. ويدعو باستماتة إلى تطهير التشريع الذي يطبق في المحاكم العصرية من كل ما لا يتفق مع الشريعة..[72] إذ ما دام المغرب قطرا إسلاميا عريقا، ولا تنفك الدولة فيه تعلن في الدستور أن دينها الرسمي هو الإسلام، ويباشر الترويج لما سمي بالبعث الإسلامي، فماذا يمنعنا من أن نكون سباقين إلى تصحيح أسلوب الحكم والسياسة على ضوء الإسلام؟[73]

إلى جانب ذلك، فدعوة الانبعاث الوطني[74]، والوحدة الوطنية[75]، ومحاربة الفساد [76] كلها تستند لدى الوزاني على مرجعية إسلامية واضحة، إيمانا منه أن كل أمة تزهد في أصالتها،

68. نفس المرجع، ص. 29.
69. *نفس المرجع*، ص. 76.
70. عبد الهادي بوطالب، *نصف قرن في السياسة*، مرجع سابق، ص. 107.
71. محمد حسن الوزاني، *الإسلام والدولة أو حقيقة الحكم في الإسلام*، مرجع سابق، ص. 28.
72. محمد حسن الوزاني، *في الدستور والبرلمان*، مرجع سابق، ص. 98.
73. محمد حسن الوزاني، *في السياسة والمجتمع بعد الاستقلال*، مرجع سابق، ص. 39-40.
74. *نفس المرجع*، ص. 11.
75. *نفس المرجع*، ص. 10.
76. *نفس المرجع*، ص. 42.

إنما تنسلخ عن هويتها، وتمسخ حقيقتها، وتخرب نفسها بيدها.[77] علما أن الوزاني يصدر في معظم اجتهاداته ومواقفه عن نزعة أخلاقية معيارية واضحة ..[78]

فمع أن البحث عن سند تراثي للقيم الحداثية أمر مشروع ولا يقتصر على شعب من الشعوب، إلا أنه كلما أكثر منه مؤلف ما ابتعد(بحق) عن روح الليبرالية حتى ولو أعلن انتماءه إليها [79]. وهو ما ينطبق على الوزاني إلى حد كبير. الأمر الذي يجعل من الصعب التسليم بالقول بأن الوزاني كداعية ليبرالي[80] يتميز بتفتحه دون تحفظ على الحداثة الغربية..[81]

وأمام هذا التجاور والتدافع والتداخل بين كل هذه المرجعيات لا يسع القارئ المتمعن في فكر الوزاني إلا أن يتساءل : هل يمكن الحديث عن مرجعية مذهبية ليبرالية حاكمة لدى الوزاني؟

فمع أننا لا نجد لدى الوزاني نظرية متكاملة عن الليبرالية كاختيار إيديولوجي ومذهبي محدد المعالم، إلا أن ذلك لا ينفي اهتمامه بمجموعة من القيم والمبادئ ذات المنزع الليبرالي، وسعيه إلى تبيئتها وتأصيلها في التربة الثقافية والفكرية والدينية للمجتمع المغربي، كما أن هذه العمومية وعدم التحديد لليبرالية كمنظومة أو مذهب متكامل ومتسق لا يقتصر على الوزاني؛ إذ لا توجد نظرية متكاملة صاغها مفكر أو فيلسوف واحد بشأن الليبرالية.. لأن الليبرالية ليست إيديولوجية ممنهجة تترابط فيها المقدمات والأفكار والنتائج، وإنما هي تيار فكري له منابع متعددة وروافد مختلفة ثم الربط بينها فيما يسمى بالمذهب أو الاتجاه الليبرالية الذي لحقه بدوره تطور فيما بات يعرف بالليبرالية الجديدة[82].

---

77. *نفس المرجع*، ص. 140.
78. *نفس المرجع*، ص. 9.
79. عبد الله العروي، *مفهوم الحرية*، مرجع سابق، ص. 51.
80. إبراهيم أعراب، *سؤال الإصلاح والهوية: منى السياق السلفي إلى مشروع الحداثة*، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2007، ص. 89.
81. عبد الله ساعف، *تصورات عن السياسة في المغرب*، ترجمة محمد معتصم، دار الكلام، مطبعة فضالة، المحمدية، 1990، ص78-79.
82. علي الدين هلال، *أزمة الفكر الليبرالي في الوطن العربي*، مرجع سابق، ص. 110.

الفكر الإصلاحي في المغرب وقضية تعليم البنات محمد بن الحسن الوزاني نموذجا

جوهرة الفيلالي بابا

موضوع المرأة ذو أبعاد، يحفر في عمق الزمن، تتعدد صوره وتتباين من صوره ماض مشرق عرف إشعاعا لوجوه نسائية مضيئة في مختلف العلوم والفنون. فقد اعتبرت مصدرا لأخذ نصف الدين كما الأمر بالنسبة لأم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها، وعملت في الأندلس في مختلف المهن كما ذكر ابن حزم في كتابه "طوق الحمامة" والذي ذكر فيه أن النساء كن يزاولن مهنا متعددة منها الطب والحجامة والتعليم.

ومن الوجوه النسائية المضيئة في المغرب: أمينة غيلان وكانت "من عالمات نساء تطوان حتى لكانت تتعاطى للفتيا"[1]، وأم عمرو بنت ابن زهر " وكانت متقدمة في الطب ماهرة في التدبير والعلاج، وحظيت بذلك عند أمراء بني عبد المومن فكانت تلج قصورهم وتنظر في علاج مرضى نسائهم وأطفالهم وإمائهم، وقد تستفتى في الطب في رجالهم فتزيد بذلك مكانة إلى مكانتها التي يقتضيها مجدها المؤثل وشرفها الموصل"[2] وفي العصر الحديث وإلى حدود مطلع القرن التاسع عشر عرفت فاس السيدة العالية بنت الشيخ العلامة الطيب بنكيران التي كانت تدرس علم المنطق في مسجد الأندلس وتخصص حصصا للرجال تدرسهم من وراء حجاب وحصصا أخرى للنساء[3].

أسماء لنساء وغيرها كثير حضرتني وأنا أتقصى موضوع تعليم البنات في الفكر الإصلاحي المغربي لأجد النور قد خبا لسوء الأحوال العامة، إذ المعروف أن وضعية المرأة تتحسن زمن الاستقرار وتضطرب في فترة الفوضى والتي عمت المغرب الذي عانى في مرحلة ما قبل الحماية من الانحطاط في أوجهه المختلفة نتيجة غياب الاستقرار السياسي الناتج عن فتن داخلية، ومناوشات فرنسا في الحدود الشرقية وإسبانيا في الشمال والجنوب، والجبهة الدولية مجتمعة في القوى العظمى. فقد شكل هدف القوات الاستعمارية منذ هزيمتي إيسلي

---

1. محمد داود التطواني – تاريخ تطوان، جزء 3 ص93، طبع بمساهمة المركز الجامعي للبحث العلمي.
2. أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تقديم تحقيق تعليق: محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، ط. 1984م، ص 483.
3. أحمد بن محمد بن أبي العافية المكناسي ثم الفاسي المعروف بابن القاضي. جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس ج: 2، ص: 434-435-520، طبعة 1974/1973م.

سنة 1844م، وتطوان سنة 1860م، وكانت نهاية المسار توقيع السلطان عبد الحفيظ صك الحماية في 30 مارس 1912م.

والمتتبع لمسار قضية تعليم البنات قبيل الحماية وخلال هيمنتها على المغرب يلاحظ أنها مرت بمحطات أساسية وسمت كل منها بخصوصية الظرفية التي وجدت فيها، والوقوف عندها – ولو باختصار- يجعلنا نتعرف على المسار التاريخي وكذا المحيط الذي انخرط فيه محمد بن الحسن الوزاني كفاعل اجتماعي وسياسي أثر وتأثر.

المرحلة الأولى: بدأت مع العشرية الأولى من القرن الماضي فقد عرف موضوع تعليم البنات حضورا في مسودة الدستور الحفيظي سنة 1908م إذ تضمن المشروع إحداث مدارس للبنات ولكن الظروف التي عاشها المغرب حالت دون تحقيق المراد، وبعد استعماره أبدت سلطة الحماية اهتماما بالموضوع، وفتحت إدارة المعارف سنة 1915م مدرسة للبنات بفاس، وبقيت فارغة لم يقصدها أحد واضطرت لغلقها[4]. نفس المصير آلت إليه مدرسة " باب احساين" بمدينة سلا[5]. وكمحاولة لإنجاح المشروع أعادت سلطة الحماية التجربة في مدينة فاس سنة 1923م وعهدت للمجلس البلدي بالمدينة للإشراف عليها[6].

عرفت المرحلة نقاشا حادا بين المناهضين لتعليم الفتاة والمناصرين له، ويعتبر محمد بن الحسن الحجوي أول من جهر بضرورة تعليم البنات سنة 1924م في محاضرة ألفاها في معهد الدراسات العليا بالرباط، تحت عنوان " في إصلاح تعليم الفتيات بالديار المغربية" لقد طالب بتعليم المرأة تعليما عربيا إسلاميا على نحو تعليم السلف الصالح نساءهم معتمدا على أدلة قرآنية، وأحاديث نبوية، وخلص إلى أن " تأخر النساء مانع من تقدم الأمة، ولهذا سبق الإسلام إلى تعليمهن وتهذيبهن، واعتبارهن عضوا عاملا في الهيأة الاجتماعية، وهو أول الأديان في رفع شأن المرأة[7]. ومع أن الحجوي طالب باقتصار الفتاة في التعليم على المرحلة الابتدائية، وعارض السفور في محاضرة أخرى تحت عنوان " تعليم الفتيات لا

---

[4]. الحجوي محمد بن الحسن: تعليم البنات، مجلة المغرب، السنة 4، عدد غشت شتنبر 1935م، ص 2-8.
[5]. القادري أبو بكر: مدرسة النهضة، ص 90.
[6]. الوزاني محمد حسن، مذكرة حياة وجهاد، الجزء 1، ص 288، ط مؤسسة محمد حسن الوزاني.
[7]. الحجوي محمد بن الحسن، في إصلاح تعليم الفتيات بالديار المغربية، مخطوط، الخزانة العامة بالرباط 114 ح.

سفور المرأة"[8] فإن دعوته جعلته يخوض معركة مع المحافظين المتشددين في فهم الدين والمعارضين لأي مشروع ولو بالشكل الذي دعا إليه.

المرحلة الثانية: تميزت بتقديم "كتلة العمل الوطني" سنة1934 م "مطالب الشعب المغربي" لكل من وزير الشؤون الخارجية الفرنسية بيير لافال (Pierre Laval) بباريس، وللسلطان محمد الخامس بالرباط، وهي " مطالب إصلاحية همت مجالات مختلفة " لا تتجاوز حدود معاهدة الحماية" وتتضمن هذه الوثيقة أسماء العشرة الموقعين عليها وكان من بينهم الوزاني وحظي فيها التعليم ب 54مادة نصيب تعليم البنات منها ست مواد هي:

- جعل تعليم البنت مبنيا على أساس الثقافة العربية الإسلامية.
- تأسيس مدارس ابتدائية للبنات يعلم فيها: القرآن، العربية، الدين ومبادئ الحساب والصحة، تدبير المنزل، وشغل الإبرة، ووسائل رعاية الأطفال.
- جلب بعض المعلمات من مسلمات الشرق للتعليم في مدارس البنات، ريثما يتم إعداد معلمات مغربيات.
- إنشاء مدرسة خاصة لإعداد معلمات البنات.
- تمكين الآباء من رعاية هذه المدارس.
- إنشاء مدارس للقوابل والممرضات[9].

المرحلة الثالثة: شكلت محطتها الرئيسية سنة 1943م والتي أعلن فيها الملك محمد الخامس باعث النهضة النسوية في المغرب بين العلماء وطلبة العلم بالقرويين عن اهتمامه بموضوع تعليم البنات وذلك حين قال: " هناك أمر نهتم به كل الاهتمام وهو تعليم بناتنا وتثقيفهن لينشأن على سنن الهدى، ويهذبن بما ينبغي، حتي يتصفن بما يتعين أن تتصف به المرأة المسلمة، حتى تكون على بينة من الواجب عليها لله ولزوجها وبنيها وبيتها"[10]. كما دشن سنة 1945م مدرسة للبنات بالأحباس بالرباط، وأعطى المثال بكريماته بدءا من الأميرة للاعائشة التي كانت المثل الأعلى ورمزا لحرية النساء وقد أوفدها لتدشين مجموعة مدارس

---

[8]. الحجوي محمد بن الحسن، تعليم الفتيات لا سفور المرأة، مخطوط الخزانة العامة بالرباط، رقم 205 ح.
[9]. مطالب الشعب المغربي، ص 45، مطبعة الإخوان المسلمين.
[10]. الوزاني محمد حسن، المرأة المسلمة، فصل من كتاب الإسلام والمجتمع والمدنية، ط مؤسسة محمد حسن الوزاني 1987.

حملت اسمها في كل من: الرباط، سلا، مراكش، وفاس، ...[11] أينما حلت كانت تدعو أخواتها المغربيات لتلبية الدعوة الملكية والالتحاق بالمدرسة، ومما قالته بهذا الخصوص: " وسيدنا ينتظر من جميع نساء المغرب أن يواظبن على الجد في التعلم، والاجتهاد في الرقي، إذ هن خير مقياس لمدى نهضتنا وحضارتنا وأفضل ضمان لصعودنا وارتفاعنا"[12].

وتردد صدى هذه الدعوة في عدد من الكتابات من بينها: فصل المرأة المسلمة من كتاب " الإسلام والمجتمع والمدنية" للوزاني كما سنقف على ذلك في حينه، كما نظم الشعراء قصائد في الموضوع أمثال: علال الفاسي، محمد بن علي العلوي، محمد الحلوي، محمد القري، محمد غريط، محمد المهدي الحجوي، محمد ابن شقرون، محمد احمد الإدريسي وغيرهم.

عرف التعليم عامة وتعليم البنات خاصة تطورا وإقبالا خصوصا بعد المقترح الذي قدمته اللجنة التي شكلها السلطان محمد الخامس سنة 1943م والتي كان يرأسها محمد الزغاري والمهدي بن بركة والعربي بن الحسن العلوي وقدمت هذه اللجنة مقترحا، ومما جاء فيه :

- تحديد سن قبول البنات بالمدارس بين سن الخامسة والثالثة عشرة مع السماح للتلميذات اللائي جاوزن الثالثة عشرة وأشرفن على إحراز الشهادة الابتدائية باتمام دروسهن، والغاية حصولهن على الشهادة الابتدائية.
- برامج الدراسة: مبادئ العلوم الدينية، اللغة لعربية، اللغة الفرنسية واستعمالها في تدريس الحساب والأشياء، والجغرافية، التدبير المنزلي، تربية الأطفال، الأشغال اليدوية، الرياضة البدنية.
- انتداب معلمين في حال عدم توفر معلمات.
- تعيين مفتشين ذكور للإشراف ريثما يتم إعداد مفتشات.
- الغاية ضمان نجاح البنات في دائرة القومية العربية والدين الإسلامي[13].

وكان اختيار معلمين لتعليم البنات يتم بعد اجتيازهم مبارة تجري بالقصر الملكي يشرف عليها قضاة ورؤساء المجالس العلمية.

---

[11]. الجراري عبد الله، من أعلام الفكر المعاصر بالعدوتين الرباط وسلا، مطبعة الأمنية 1971.
[12]. خطاب صاحبة السمو الملكي الأميرة للا عائشة أثناء زيارة محمد الخامس لطنجة في 11 أبريل 1947، مجلة المناهل، العدد 44 يونيو 1994.
[13]. الجراري عبد الله، من أعلام الفكر المعاصر، مرجع سابق، ص 69.

بعد الوقوف عند المراحل الأساسية التي قطعها موضوع تعليم البنات تنتقل لتقصي موقف وموقع الوزاني فيها مادام قد عاصر أغلبها.

شكل الوزاني طليعة المهتمين بالموضوع منذ كان طالبا بباريس في مدرسة العلوم السياسية (قسم الصحافة) فقد كان من المؤسسين لجمعية " طلبة شمال إفريقيا المسلمين" و " كانت أداة فعالة في المعترك السياسي لصالح الشمال الإفريقي عامة والمغرب وتونس خاصة، وقد انعقد مؤتمرها الأول بتونس في 30 غشت سنة 1930م ومما تضمنه جدول أعماله : موضوع تعليم المرأة والمعيقات الواجب إزاحتها لإشراكها في تحرير الوطن وبنائه[14].

مساهمته الفاعلة في الصحافة والتي شكلت منبرا لطرح قضايا متعددة منها "تعليم البنات"، وقد أسهم الوزاني بكتاباته في الموضوع في عدد من المجلات والجرائد من بينها جريدة "الرأي العام" ، لسان حزب الشورى والاستقلال والتي خصصت منذ بداية صدورها قسما من صفحاتها لمعالجة قضية المرأة أطلقت عليه اسم "القسم النسوي" وتراوحت المادة المنشورة بهذا القسم – حسب الظروف والمستجدات – بين تغطية أكثر من صفحة بالجريدة، وبين نصف صفحة أحيانا، فكانت بذلك منبرا نسويا مهما، سواء فهمنا الصحافة النسوية، بمعنى كل ما يكتب عن المرأة، أو ما تكتبه المرأة عن المرأة"[15] ويبين الجدول التالي مساهمة بعض النساء الشوريات في الجريدة:

عنوان المقال	الكاتبة	العدد	التاريخ
رسالة جمعية "أخوات الصفا"	حبيبة كسوس	10	10 يونيو 1947
مواقف المرأة	مارية القباج	11	25 يونيو 1947
الزوجة المثقفة	خديجة العلمية	11	25 يونيو 1947
المرأة والعلم	ثريا القباج	11	25 يونيو 1947
دور المرأة في النهضة المغربية	لينة بنجلون	96	29 أبريل 1948

محمد بن الحسن الوزاني من بين الموقعين على"مطالب الشعب المغربي" سنة 1934م كما ذكرنا سابقا، وإذا كان بعض الملاحظين قد أشاروا إلى التأثير الكبير للوطنيين ذوي التعليم

[14]. محمد حسن الوزاني، جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين، موسوعة الحركة الوطنية والمقاومة والجيش التحرير بالمغرب، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 2005، ج1، المجلد الثاني، ص 356.
[15]. محمد معروف الدفالي، " أخوات الصفا" تنظيم نسائي رائد في تاريخ الحركة الوطنية، مجلة أمل، العدد 13 -14 سنة 1998، ص 181.

الفرنسي في "المطالب" وإلى التقارب بين بنود أغلب هذه المطالب وما كان ينشر في مجلة " مغرب" "Maghreb" و " عمل الشعب" "L'Action du peuple" كما يشير إلى ذلك رزيط[16](Rézette) إذا كان الأمر كذلك فإن المطالب المتعلقة بتعليم البنات تشكل استثناء واعتمد وإلى حد بعيد على السلفية الإصلاحية مراعاة للظرفية التاريخية التي كانت تعرف مناهضة لتعليم البنات، وأيضا ولما كان يثار حوله من قضايا كقضية الحجاب والسفور، وخروج المرأة للعمل وغير ذلك. وحتى الذين طالبوا بتعليمها أكدوا على ضرورة محافظتها على حجابها، من ذلك ما ذكره محمد الجواد الصقلي في كتابه" القول الحق وفصل الخطاب في الخلوة والاختلاط والصوت والحجاب" وذلك حين قال: " وما ذكرناه من وجوب الحجاب وحرمة الخلوة بالأجنبية وحرمة اختلاط النساء بالرجال، كل ذلك لا يمنع من نهوض المرأة وتهذيبها وتعلمها وتعليمها وبلوغها المقام اللائق بها ولا يقول بأن ذلك يصد عما ذكر إلا غبي جاهل أو مضل متجاهل" وفي ما له علاقة بعملها خارج البيت ذكر الصقلي أنها "مضطرة بطبيعتها لملازمة الدار لأداء وظيفتها الطبيعية والدنيوية وعدم إمكانها الاشتغال بأشغال الرجال جميعا" موقف كهذا لم يتفرد به الصقلي وإنما أقره ووافقه عليه كما جاء في آخر صفحة من الكتاب مجموعة من العلماء وهم: محمد بن عبد الكبير ابن الحاج، محمد بن عبد الرحمان العراقي، أحمد ابن الخياط الزكاري الحسني، محمد بن محمد ابن إبراهيم، الحسن بن عمر مزور، علي بن بوشتى الشركي، محمد بن محمد ابن عبد السلام الطائع الصقلي، وأحمد بن محمد الصقلي[17]. فالنخبة المحافظة ساد خطابها وكان لها تاثير في الوسط المغربي وإن كان ما وصلنا منه بشكل منشور قليل والمصدر المستدل به خير دليل.

- خلف خطاب الملك محمد الخامس سنة 1943م والذي نادى فيه بضرورة تعليم البنات صدى طيبا في مختلف الأوساط، وصادف وجود الوزاني في المنفى بإيدزر فأبى إلا أن يبارك الحدث وخصص للموضوع فصلا من كتابه "الإسلام والمجتمع والمدنية " تحت عنوان " المرأة المسلمة" ومما جاء فيه:

---

[16]. اليزيدي محمد، قضية التعليم في دفتر مطالب الشعب المغربي، موسوعة الحركة الوطنية، مرجع سابق، ص 333.
[17]. محمد جواد الصقلي، قول الحق وفصل الخطاب في الخلوة والصوت والحجاب، مخطوط.

- الإسلام كرم المرأة وكفل لها حقها في العلم.
- وجوب التأسي بالرسول صلعم وبأمهات المؤمنين.
- ضرورة تحرير المرأة من الجهل بتعليمها ومن الرق بعتقها.
- العلم ليس مقصورا على الرجال ويؤخذ عن النساء كما يؤخذ عن الرجال.
- الله لا يعبد بالجهل، وهذا ما يوجب على الزوج أن يعلم زوجته ما له علاقة بالشرع فإن كان غير مؤهل لذلك فلها " الخروج للسؤال بل عليها ذلك ويعصى الرجل بمنعها".
- للمرأة أن تطلب العلم الكمالي خارج البيت بعد موافقة الزوج.
- ضرورة العدل بين الأبناء إناثا وذكورا في التعليم.
- نهضة الأمة بنسائها ورجالها، ومن ركائزها الأم لذلك وجب تعليمها لأنها مدرسة الأجيال والتربية علم وخبرة ودراية، والأمة تصاب بداء عضال نتيجة جهل النساء.
- قوامة الرجل لا تعني إذلال المرأة.
- محاربة الأمية مسؤولية الدولة والشعب وهي تشيع بين النساء أكثر من الرجال.
- دعوة الملك محمد الخامس لتعليم البنات ضمن خطابه في القرويين وإعطاؤه المثال بإلحاق كريماته بالمدرسة قطع الطريق على المعارضين وجنب المغرب الجدل الحاد الذي عرفته القضية في الشرق، كما أنه شكل نموذجا يجب أن يحتذى لأن البنات جند النهضة.
- جلالة الملك أمر بوضع برنامج التعليم تحت إشرافه لألا يلحقه شطط.
- مطالبة العلماء بمناصرة الملك في دعواه.
- الرد على الأجانب الذين يرون بأن الإسلام أسترق المرأة فرؤيتهم باطلة تقوم على الجهل بتعاليمه السمحة، والوضعية التي آلت إليها المرأة المسلمة راجعة للجهل بها والشطط في تطبيقها.
- القضية التي يجب التركيز عليها هي تعليم المرأة وليس الحجاب والسفور، فالمتعلمة لا يضرها الحجاب، والسافرة إن بقيت جاهلة لا يجديها السفور نفعا.

- صاحب الجلالة أعطى الانطلاقة، وإشرافه المستمر أمر صعب لذلك اقترح الوزاني إحداث هيأة تتمتع بثقة جلالة وإشراك أولياء البنات في الإشراف على سير التعليم بالمدارس الإبتدائية في صورة لجنة استشارية، وهذا سيشجع الآباء على إلحاق بناتهم بالمدارس[18].

- تعرض الوزاني أيضا لموضوع التعليم في كتابه " الحماية جناية على الأمة" والذي ألفه سنة 1945م وتحت عنوان " العمل المدرسي والظلامية"[19] تحدث عن مشكل التعليم في إطار السياسة الاستعمارية والتي دأبت فرنسا على نهجها وهي سياسة متعددة الواجهات وتشتمل الذكور والإناث، وأورد آراء بعض المنظرين أمثال: جولهارماند وشارليتي (Charléty) والجنرال كاليني (Galliéni) والذين وضعوا الخطوط العريضة التي يجب إتباعها في تمدرس المستعمرين، وبما أن هناك المبدأ القائل بأن " تعليم شعب يعني قبل كل شيء تحريره"[20] فالمدرسة المخصصة للأهالي يجب ألا تهدف إلى تحريرهم، وإنما عليها أن تعمل " على تأهيلهم للتكيف بالجو الاستعماري مع كل ما يتضمنه من مؤثرات عليهم لحملهم على قبول العبودية والتأقلم باستغلالهم السياسي والاقتصادي لفائدة الدولة المستعمرة"[21]. ويجب أن تكون حصيلة هذا التعليم أيضا كما ذكره كاستون لوط، " نتائج إيجابية حيث تجمع حولنا تلاميذ من الأهالي وتعرفهم بلغتنا ومؤسساتنا ولأن كان رواد هذه المؤسسات قليلي العدد، فإنهم يستطيعون أن يكونوا بمثابة الخميرة، فيؤثرون على الأعداد الكبرى من مواطنيهم، ويستجلبون عطفهم وتقديرهم لبلدنا"[22]. هذا جزء من التخطيط الجهنمي للسياسة التعليمية للمستعمر والذي لم يخف على الوزاني فهو المثقف العصري الذي امتلك ناصية لغة المستعمر وتمكن من الإطلاع على مرجعياته ونبه إليها في كتاباته ودعا إلى ضرورة محاربتها.

---

18. الوزاني محمد حسن، المرأة المسلمة، فصل من كتاب الإسلام والمجتمع والمدنية، مرجع سابق.
19. محمد حسن الوزاني، الحماية جناية على الأمة، ط مؤسسة محمد حسن الوزاني، ص 129
20. نفسه، ص 131.
21. نفسه، 132.
22. نفسه، 138.

- واجهة أخرى شكل فيها الوزاني حضورا متيمزا فيما له علاقة بقضية المرأة وهي الجمعيات فقد سهر على تأطير النساء الشوريات في مختلف مدن المغرب ليساهمن في معركة الاستقلال وفي بناء مغرب ما بعد التحرير، ومن أشهر جمعيات الحزب " جمعية النساء المغربيات" وكان مقرها بمدينة الدار البيضاء، وجمعية " أخوات الصفا" " ويعد المؤتمر السنوي الذي انعقد بفاس يومي 12و13 دجنبر عام 1947 أول مؤتمر تنظيمي لجميع منظمات النساء الشوريات" واختارت إحدى هذه التنظيمات اسم " أخوات الصفا" وكان تأسيسها بفاس سنة 1947 وترأستها على الصعيد الوطني " حبيبة كسوس" وأحدثت لها فروع في كل من مكناس، سلا، آسفي وسطات، وقد عمل المؤتمر الآنف الذكر على توحيد خطة عمل النساء الشوريات في مختلف أنحاء المغرب واتخاذ القرارات الكفيلة بتحسين وضعية المرأة المغربية، وهذا ما سعت إليه أيضا جمعية " أخوات الصفا" في مؤتمرها الذي عقدته بفاس سنة 1948 ومن بين ما دعت إليه حسب تقرير المؤتمر:.
- النهوض بالمرأة المغربية في الحواضر والبوادي[23].
- الدعوة إلى تعليم البنات والتنبيه إلى عدم الاقتصار على الشهادة الابتدائية.
- إصلاح المجتمع بمحاربة العوائد والخرافات.
- التعرض لتعدد الزوجات.
- تنظيم الطلاق- تحديد عمر الفتاة للزواج – محاربة الرذيلة – تنظيم الإسعاف الاجتماعي – الدعوة إلى الإخاء والتضامن الاجتماعي – المساهمة في تحرير الوطن من نير الجهل والمرض والاستعمار.

لقد تحققت بفضل جهود الحركة النسوية الشورية مجموعة من المكتسبات، واعتمدت بعض الآليات التي تعتبر متقدمة في ظل الظروف المتاحة آنذاك، اشتغلت على واجهات متعددة وعلى رأسها السهر على تمدرس البنات ومحاربة أمية النساء مستفيدة من المدارس الحرة

[23]. نلفت الانتباه إلى دعوة جمعية " أخوات الصفا" بالاهتمام بالمرأة في البادية إذ غالبا ما كان يتم الحديث في تنظيمات نسائية أخرى عن نساء المدن ويتم تجاهل المرأة البدوية مع أنها أسهمت إسهاما مشرفا في المقاومة التي عرفتها جبال المغرب وسهوله.

التي أحدثها الحزب في بعض المدن المغربية ومن بينها " مدرسة الشعب" بفاس، " وهي مدرسة مختلطة أسسها حزب الشورى والاستقلال في الأربعينيات في دار الأشراف الوزانيين الذين تطوعوا بها مشكورين للقيام بتعليم أبناء الفقراء والمعوزين بالمجان، فأوقفت هاته الجمعية كل جهودها على العناية بالطبقة المعوزة لهذه المؤسسة التعليمية تكسوها، وترعاها، وتزودها بسائر لوازم الدراسة، وتحضر باستمرار قصد العناية والرعاية بفلذات أكباد الأمة المغربية"[24].

ما عرضت عن الوزاني فيما له علاقة بتعليم البنات جزء من كل، الرجل كان موسوعة في المعرفة التي زاوجت بين المرجعيتين: الإسلامية والغربية في أسمى صورهما والمتمثلة في العقيدة السمحة وما تدعو إليه من قيم الحرية والمساواة... والقيم الغربية قيم الثورة الفرنسية والفكر الاشتراكي... ويلاحظ أنه ساهم في تصحيح ما آلت إليه الأوضاع المزرية في بلاده على المرجعيتين مع حضور أكبر للاتجاه الغربي في المجال السياسي والاقتصادي. واعتماده فيما له علاقة بتصحيح أوضاع النساء وإلى حد بعيد على السلفية الإصلاحية، لأن الخطاب النهضوي في المغرب فيما له علاقة بالنساء هيمن عليه الخطاب السلفي، والذي تأثر إلى حد كبير بالاتجاه الديني المتنور في الشرق ومن أعلامه: الأفغاني ومحمد عبده وقاسم أمين في كتابه " تحرير المرأة" وقبل أنه يتحول إلى العلمانية في كتابه" المرأة الجديدة". أما الاتجاه العلمي الذي كان ينظر إلى المرأة من مرجعية كونية إنسانية فلا نكاد نجد له حضورا في المغرب في الفترة المتحدث عنها وتنظيم " اتحاد نساء المغرب" الذي أسسه الحزب الشيوعي في الأربعينيات من القرن الماضي كان مرتبطا بالحركة النسائية في فرنسا، كما أن أغلب عضواته كن فرنسيات، ولم ينتشر بين المغربيات وظل بعيدا عن القضايا الوطنية.

وإذا كان الوزاني قد ذكر أن الاعتماد على السلفية في البداية الأولى للحركة الوطنية كان مجرد وسيلة لكسب التعاطف الشعبي[25]. وإذا كان قد استطاع أن يزاوج بين المرجعية

---

[24]. معنينو أحمد، *أخوات الصفا الحركة النسوية الشورية*، مرجع سابق.

[25] -El Mansour, Mohamed. "Salafis and Modernists in the Moroccan Nationalist Movement." In *Islamism and Secularism in North Africa,* edited by John Ruedy, New York : St. Martin's Press ; [Washington, D.C.] : Center for Contemporary Arab Studies, Georgetown University, 1994- p.63.
نقلا عن اليزيدي محمد، قضية التعليم في دفتر مطالب الشعب المغربي، مرجع سابق، ص 333.

السلفية والغربية فيما له علاقة بالسياسي والاقتصادي فإن ذلك في رأينا لم يتحقق في النسائي وظل خطابه متأثرا وإلى ابعد حد بالسلفية الإصلاحية للأسباب التي وقفنا عليها في حينها.

المقاربة الواقعية للقضايا الدولية عند محمد حسن الوزاني

يوسف الفاسي الفهري

ما المقصود بالمقاربة الواقعية؟ إذا كانت هذه المقاربة من زاوية الباحث في العلاقات الدولية، تعني أساسا استبعاد القيم الدينية والأخلاقية عند دراسة سلوك الفاعلين على الساحة الدولية، فإن هذه المقاربة من زاوية المتورط في صنع القرار السياسي، تعني بالضرورة نبذ الاعتبارات العاطفية والوعي بأولوية السلوك العقلاني المناهض لكل المواقف الانفعالية التي من شأنها ترجيح الغريزة على العقل أو السقوط في شراك الأوهام والمتمنيات بدل التحليل الموضوعي للإكراهات الموضوعية وشروط الفعل الإيجابي.

وهذه المنهجية التي تساعد على تغيير الوقائع الدولية والتركيز على استجلاء معانيها العميقة بفعل تشابك بعضها بعض، هي التي اعتمدها محمد حسن الوزاني عند تحليله للقضايا الدولية، لقد انفرد هذا القائد الوطني، بحس واقعي مرهف عند تناوله لشتى المواضيع المرتبطة بالعلاقات الدولية، ولم تستهويه الأفكار الرومانسية أو الشعارات الحماسية عندما يتعلق الأمر بالسياسة الدولية. فما هي مظاهر المقاربة الواقعية التي اعتمدها محمد حسن الوزاني أو ما هي خصائص هذه المقاربة المعتمدة والعبر التي يمكن استنتاجها من مقاربته المتميزة في ظل الأوضاع الراهنة؟

من أجل استجلاء عناصر الإجابة عن هذه التساؤلات، اعتمدنا المحاور الآتية التي تساعد على إبراز الطابع الأصيل لشخصية محمد حسن الوزاني ومواقفه المتزنة والشجاعة بخصوص القضايا الدولية التي عالجها انطلاقا من التزامه الوطني وإدراكه لموجة الحداثة الديمقراطية الليبرالية التي اكتسحت العالم المعاصر:

1- الوعي بدينامية موازين القوى الدولية
2- مناهضة الرهان على الفاشية والنازية
3- إدانة التصور الإرادوي للوحدة العربية
4- رصد الطبيعة العدوانية للسياسة الخارجية للجزائر

1 - الوعي بدينامية موازين القوى الدولية

لقد أدرك محمد حسن الوزاني، مبكرا الدور الرائد الذي ستضطلع به الولايات المتحدة الأمريكية ثم الاتحاد السوفياتي في المنتصف الثاني من القرن العشرين. فقناعته الراسخة بأن الظاهرة الاستعمارية هي في طريق الاندثار والزوال، كانت مستمدة من إلمامه بتاريخ العلاقات الدولية منذ الحرب العالمية الأولى. فلئن كان قد انتقد مذهب الرئيس الأمريكي وليس

الـذي حـدد الأهـداف التـي حفـزت الولايـات المتحـدة علـى المشـاركة فـي الحـرب العالميـة الأولـى أو مـا يسـمى بالنقـاط الأربـع عشـرة التـي تضـمنها الخطـاب الموجـه إلـى الكـونجريس بتـاريخ 8 ينـاير 1918، فـإن ذلـك كـان نابعـا مـن تحليـل ملمـوس لنتـائج مـؤتمر الصـلح بفرسـاي والتـي تمحـورت حـول العقوبـات ضـد ألمانيـا القيصـرية وحلفائهـا، والاهتمـام بمصـير بعـض الشـعوب الأوربيـة "دون شـعوب إفريقيـا وآسـيا التـي كانـت تـئن تحـت نيـران الاسـتعمار الأوربـي وحتـى الأمريكـي نفسـه"[1]. ولعـل هـذا مـا يفسـر حسـب الـوزاني اعتـراف الولايـات المتحـدة بالحمايـة البريطانيـة علـى مصـر رغـم مطالبـة الزعمـاء المصـريين بالاسـتقلال. لكـن حـرص الـوزاني علـى الالتـزام بالموضـوعية التاريخيـة جعلتـه يعتـرف بـدور الولايـات المتحـدة فـي زعزعـة القـوى الاسـتعمارية الأوربيـة وتشـجيع حركـات التحريـر الـوطني. فبـالرغم مـن الصـدمة التـي تلقاهـا الوفـد المصـري بسـبب الإعتـراف الأمريكـي، فـإن الوفـد المصـري فـي بـاريس اسـتطاع بفضـل الجهـود التـي بـذلها سـعد زغلـول، مـن اقنـاع عضـو فـي مجلـس الشـيوخ الأمريكـي بعـرض القضـية المصـرية علـى هـذا الأخيـر، "وفعـلا اتخـذ المجلـس ملتمسـا يعبـر فيـه عـن كـون مصـر لا تعتبـر، مـن الوجهـة السياسـية، خاضـعة لا لبريطانيـا، ولا لتركيـا، حيـث أن نظامهـا يجـب أن يكـون نظـام دولـة مسـتقلة تقـبض بيـدها علـى زمـام شـؤونها، فأثـار هـذا احتجـاج انكلتـرا علـى الحكومـة الأمريكيـة، لأنـه كـان رد فعـل ضـد اعتـراف واشـنطن بالحمايـة البريطانيـة علـى مصـر، كمـا كـان تشـجيعا لحركـة المعارضـة المصـرية لهـذه الحمايـة"[2]. لـذلك فـإن الـوزاني رغـم إقـراره بفشـل الولسـونية فـي جعـل كافـة الشـعوب المسـتعمرة تمـارس حقهـا فـي تقريـر مصـيرها، فإنـه كـان محيطـا بمفعولهـا علـى مجـرى التطورات اللاحقة التي سيشهدها العالم.

"فقـد أثـرت فـي حيـاة المجتمـع المصـري، وخلقـت تيـارات تحريريـة. وشـجعت انطلاقـات ثوريـة فـي شـتى جهـات العـالم، وهكـذا لمـا نشـئت عصـبة الأمـم تطبيقـا للسياسـة الولسـونية خلقـت أمـلا وتفاؤلا"[3].

لقـد بقـي الـوزاني وفيـا لهـذا التحليـل الموضـوعي الـرزين عنـد تناولـه لموضـوع المسـألة المغربيـة ودبلوماسـية الـدول العظمـى"[4]. فجوابـا علـى السـؤال المتعلـق بمـدى الـدعم الـذي يمكـن للولايـات المتحـدة والإتحـاد السـوفياتي، أن تقدمانـه للحركـة الوطنيـة المغربيـة، توقـع الـوزاني تعاظمـا لنفـوذ هـاتين القـوتين العظميـين بعـد الحـرب العالميـة الثانيـة، وحـاول استكشـاف الأسـباب التـي تحفزانهمـا

Comment [I2]:

Comment [I3]:

Comment [I4]:

[1]. محمد حسن الوزاني –مذكرات- حياة وجهاد – التاريخ السياسي للحركة الوطنية التحريرية المغربية طور المخاض و النشوء- الناشر مؤسسة محمد حسن الوزاني- 1982- ص 166

[2]. نفس المصدر، ص. 171

[3]. نفس المصدر، ص. 345 – 346

[4]. دراسة منشورة في سلسلة دراسات وتأملات (6) تحت عنوان "وطنيات" مؤسسة محمد حسن الوزاني، 1987. ص. 81-102

علـى تأييـد مطلـب اسـتقلال المغـرب. فروسـيا حسـب تصـوره، "أصـبحت دولـة عظيمـة عالميـا يهمهـا ضـمان حقوقهـا. ومصـالحها فـي البحـر الأبـيض المتوسـط بـأكثر ممـا كـان فيمـا مضـى... إنهـا قـادرة علـى أن تواجـه فرنسـا مـثلا بمـا تشـاء مـن المقترحـات الجريئـة لأنهـا حـرة مـن كـل تعهـد والتـزام سـابق فـي مسـألة الحمايـة ولهـا أن تعتمـد فـي هـذا علـى عقـد الجزيـرة الخضـراء الـذي يحمـل توقيعهـا ويفسـح لهـا المجـال لمزاحمـة فرنسـا والـدول الأخـرى خصوصـا فـي ميـدان الاقتصـاد..."[5] فلـئن كـان الـوزاني يـرفض كـل دعـوة لنشـر المـذهب الشـيوعي فـي المغـرب، فإنـه كسياسـي محنـك أبـاح اسـتغلال النفـوذ المتعـاظم للاتحـاد السـوفياتي، "وذلـك للتشـغيب علـى فرنسـا ومعارضـة دولـة بـأخرى... خصوصـا وأنهـا فـي عهـد لينـين قامـت بحملـة شـعواء علـى الاسـتعمار العـام وناصـرت جميـع الحركـات الوطنيـة التحريريـة فـي الأقطـار الإسـلامية وكانـت لهـا سـوابق مـن هـذا القبيـل فـي الريف زمن ثورة الأمير محمد بن عبد الكريم"[6].

أمـا بالنسـبة للولايـات المتحـدة، فـإن الـوزاني ألـح علـى أهميـة السـعي للحصـول علـى دعمهـا مـن أجل الحصول على الاستقلال الوطني، انطلاقا من الاعتبارات التالية:

أولا: كـون الولايـات المتحـدة "فارقـت عزلتهـا الرسـمية والعمليـة وأصـبحت تعنـى بمسـألة البحـر الأبـيض المتوسـط عنايـة كبـرى ذلـك أن مسـتقبلها مقيـد بأسـطولها البحـري والجـوي أي بالارتبـاط بجميـع القـارات التـي ستضـخم النفـوذ الأمريكـي ويـدرك فيهـا مـن الشـأو والبسـطة والرسـوخ مـا لا يحدثنا التاريخ بمثله[7];

Comment [I5]:

ثانيـا: كـون الولايـات المتحـدة "هـي الدولـة الوحيـدة التـي لـم تفقـدها الحمايـة الفرنسـية المركـز الـذي كـان لهـا سـابقا فـي المغـرب"[8]. إنهـا لـم تعتـرف بنظـام الحمايـة وبقيـت متمسـكة بعقـد الجزيـرة الخضـراء الـذي ارتكـز علـى مبـدأي الحريـة الاقتصـادية (البـاب المفتـوح) والمسـاواة بـين الـدول الموقعـة عليـه. وهـذا مـا يخـول قانونـا للولايـات المتحـدة حـق مسـاءلة فرنسـا "وتناقشـها الحسـاب

[5]. نفس المرجع أعلاه، ص. 83-84
[6]. نفس المرجع، ص. 84-85
[7]. نفس المرجع، ص. 83
[8]. نفس المرجع، ص.90

فيما استبدت به من المشاريع الاقتصادية بسبب سيطرتها باسم الحماية لا بتطبيق عقد الجزيرة الخضراء الذي يفرض السمسرة العمومية، وحرية المزاحمة بين جميع رعايا الدول"[9]؛

ثالثا: كون الرأي العام الأمريكي مناهض للسياسة الاستعمارية "التي مازالت تتبعها الدول الحليفة وتثور عليها ثائرته في كل حين ومناسبة، وهذا ما حدا إنجلترا على تغيير موقفها في الهند... وأما الصحافة الأمريكية -أداة ذلك الرأي الكبرى- فإن معظمها ساخط على فرنسا الدكولية بل إن شطرا كبيرا من تلك الصحافة -وهو يسمى ب HEAST trust de la presse قد اشتهر في العالم بالعداء لفرنسا على الاطلاق والدوام (francophobie) وإن شأن هذه الكتلة الصحافية العظيم جدا في أمريكا وخارجها"[10].

إن هذه النظرة الثاقبة لعناصر القوة الامريكية والثقل الذي تمثله الولايات المتحدة في عالم ما بعد الحرب العالمية الثانية، تعكس مدى تشبع الوزاني بالحس التاريخي وطموحه في بلورة استراتيجية فعالة للنضال من أجل التحرر الوطني ترتكز على مواكبة التحولات الطارئة على موازين القوى في العالم. ولقد بقي الوزاني وفي لهذا التصور الدينامي للعلاقات الدولية عند مناقشته لميزانية وزارة الخارجية خلال أول دورة بمجلس النواب سنة 1964، وذلك من خلال إلحاحه على أن "عالمنا اليوم في تحول مستمر، وتطور مطرد، بحيث يعسر في كل وقت رسم صورة أو خريطة سياسية لهذا العالم الزاخر بالأحداث والتغيرات"[11] لذلك نبه إلى ضرورة عدم إختزال السياسة الدولية في الصراع بين كتلتين متناطحتين لأن ذلك يفضي إلى إعطاء "صورة زائفة عن حقيقة الوضع العالمي الحالي"[12]. فموازاة القطبية الثنائية، هناك "دول عملاقة لها شأنها، ووزنها، خطورتها في حاضر الحياة الدولية" وكمثال على ذلك يذكر الوزاني دولة الصين الشعبية والهند وباكستان. "وجميع هؤلاء العمالق يوجدون في تحول، وتطور، ونهضة وتنظيم يفرضون بهذا كله وجودهم، ويقطعون لسببه مراحل التقدم، والنمو ليتبوؤوا مقاعدهم بين الأقوياء أو ليصبحوا أقوى الأقوياء"[13]. وكما أصاب الوزاني عند استشرافه لمستقبل النظام الدولي الذي هو حاضرنا اليوم، فإنه كان سباقا لمناهضة رهان بعض القادة العرب على الفاشية والنازية من أجل مؤازرتهم ضد الاستعمار البريطاني والفرنسي.

Comment [I6]:

Comment [I7]:

2- مناهضة الرهان على الفاشيستية والنازية

---

[9]. نفس المرجع، ص. 92-93
[10]. نفس المرجع ، ص 99- 100
[11]. محمد حسن الوزاني : مجموعة دراسات و تأملات – 3 في الدستور و البرلمان 1987 , ص. 128
[12]. نفس المرجع أعلاه
[13]. نفس المرجع, ص.129

خلافا للعديد من الزعماء العرب الذين انبهروا بتصاعد الموجة الفاشيستية في ايطاليا واسبانيا وسيطرة الحزب النازي في ألمانيا على مقاليد الحكم في المانيا خلال فترة ما بين الحربين[14]، فإن محمد حسن الوزاني كان مدركا لحقيقة الأهداف المتوخاة من تقديم وعود معسولة من طرف الأنظمة الشمولية للشعوب العربية. فما كانت تسعى إليه أساسا هذه الأنظمة من وراء إستهوائها للزعماء العرب هو مساعدتها على استئصال الوجود البريطاني والفرنسي في الأقطار العربية واستبداله بسيطرة أكثر جبروتا وعنفا. فمعاداة الفاشيستية والنازية للحريات الفردية والجماعية شكل حاجزا أمام تضامنهما الفعلي والصادق مع حركات التحرر الوطني ولم يراود فكر قادتهما قط هاجس النضال من أجل المساواة في السيادة بين الشعوب وحقها في تقرير مصيرها بنفسها.

فالحملات الدعائية للفاشية والنازية التي كانت تحرض المغاربة ضد السياسة الفرنسية والتي كانت تبث من برلين وروما وتطوان واشبيلية للتشنيع بهذه السياسة، لم تستهدف حسب الوزاني سوى شيء واحد هو "خلق المصاعب لفرنسا في المغرب، والحلول محلها في الوقت المناسب"[15].

لذلك اعتبر الوزاني أن الرهان على دول المحور من اجل الحصول على الاستقلال الوطني، هو رهان خاسر كما تشهد بذالك تجربة "حزب الاصلاح الوطني" الذي تم تأسيسه بتاريخ 18 دسمبر 1936 برئاسة عبد الخالق الطريس في المنطقة الشمالية الخاضعة للسيطرة الاسبانية. فلكي "يؤمن فرانكو ظهر حركته الانقلابية ضد الجمهورية سياسيا ومعنويا وعسكريا لجأ إلى "تكتيك" سياسي ببذل الوعود إلى الوطنيين بتحقيق الاصلاحات"[16].

ولقد انساق قادة حزب الاصلاح الوطني وراء هذه الوعود الفاشستية، دون أن يدركوا انعكاساتها السلبية لموقفها على مستقبل الحركة الوطنية أو الوعي بتنافض سلوكهم مع الأهداف التحريرية والديمقراطية لهذه الحركة. وارتكازا على واقع التجربة الحية للتنظيم السياسي الناشئ في أحضان النظام الانقلابي لفرانكو، خلص الوزاني إلى الحقائق التالية:

Comment [I8]:
Comment [I9]:
Comment [I10]:
Comment [I11]:
Comment [I12]:

[14] راجع لمزيد من التفاصيل حول تأثير إيطاليا الفاشية و ألمانيا النازية على بعض الزعماء العرب في :
Roger FALIGOT et Rémi KAUFFER : « Le croissant et la croix gammée » - Ed. ALBIN Michel 1990
[15] مذكرات " حياة و جهاد" -6- 1986, ص. 79
[16] نفس المرجع أعلاه, -4- ص. 131

أولا: تأسيس حزب الاصلاح الوطني بعد خمسة أشهر على الانقلاب الفاشستي، "بترخيص من السلطة الاسبانية المتساهلة إذ ذاك لحاجة في نفسها، وتحت تأثير الظروف والطوارئ"[17] شكل مساسا بالوحدة التنظيمية للحركة الوطنية المغربية.

لقد سجل الوزاني، أنه منذ قيام هذا الحزب، "لم يعد "لكتلة العمل الوطني"، وجود في المنطقة كما كان الأمر من قبل، إذ قيام حزب فيها حقق عمليا ابتعاد، بل (انفصالا) عن "كتلة العمل الوطني" في شمال المغرب، وهذا ما رمت إليه السلطة الاسبانية حتى لا تبقى أية تبعية سياسية ووطنية في منطقة نفوذها لتلك الكتلة التي كان مركزها في المنطقة السلطانية، كما كانت هي الناطقة باسم الوطنية في الداخل والخارج"[18].

ثانيا: إقدام حزب الاصلاح الوطني على تقليد المنظمة الفاشستية (فلانج) في اسبانيا، خلق شرخا ايديولوجيا عميقا في أوساط الحركة الوطنية. فالتمذهب بالفاشستية، هو "متناقض مع تعاليم الاسلام، وكذلك مع المثل العليا والوجهات الأصيلة للحركة الوطنية المغربية التي كانت في صميمها سلفية، وديمقراطية، وتحريرية، ولم يكن لذلك (التقليد) السياسي، والتنظيمي أي داع، ولا مبرر، ولا عذر مطلقا، فليس له من تفسير غير قول ابن خلدون أن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب." حسب محمد حسن الوزاني[19].

ثالثا: محاباة مؤسسي "حزب الاصلاح الوطني" للنظام الفاشيستي الفرانكاوي تعبر عن قصور نظرهم وجهلهم للأهداف الخبيثة للانقلابيين. "وهكذا، فبدل أن يعلن فرانكو فورا -اعترافا منه بالجميل للمغاربة- ذلك "الاستقلال الداخلي التام" الموعود والمشروط بالانتصار على أعدائه مبرهنا بهذا عن صدقه ووفائه، خصوصا وأن المنطقة كانت كلها في قبضته منذ بداية الانقلاب، لجأ إلى الاغراء والخداع بالوعود المعسولة والرخيصة التي تضمن له الاستقرار والاستمرار في إدماج قواته بالمرتزقة، والحقيقة أن ذلك الوعد كان منه خدعة حرب لا أقل ولا أكثر، لأنه ليس من طبيعة الفاشيستية أن تتخلى عن الاحتلال والاستعباد، وأن تسلك سياسة الانصاف والتحرير بالنسبة للشعوب المغلوبة على أمرها...، أكثر من هذا لما اعترفت فرنسا باستقلال المغرب في مارس 1956 قامت قيامة اسبانيا، فامتنعت من الاقتداء بفرنسا، حتى إنها دبرت خطة فصل المنطقة عن الوطن بإقامة حكومة في تطوان تكون صنيعة يدها، وطوع إرادتها، وأداة سياستها، وتعارض بها الحكومة المغربية الأولى في عهد الاستقلال..."[20] وإذا

Comment [I13]:

Comment [I14]:

Comment [I15]:

17. نفس المرجع, ص. 232
18. نفس المرجع
19. نفس المرجع, ص. 234
20. نفس المرجع أعلاه, ص. 237- 238

كـان محمـد حسـن الـوزاني قـد سـاهم بقسـط وافـر فـي إفشـال مخطـط فصـل شـمال المغـرب عـن الـوطن[21] فإنـه فضـح أيضـا أسـلوب التعنـت المقيـت الـذي كانـت تعتمـده اسـبانيا فرانكـو لمواجهـة المطالب المغربية المشروعة بخصوص الأقاليم الجنوبية.

فتوحيـد المنطقـة الشـمالية مـع بقيـة المغـرب الحـر المسـتقل، كـان نتيجـة مفاوضـات عسـيرة، "أعقـد مـن ذنـب الطـب" حسـب تعبيـر الـوزاني[22]، ولـم تتنـازل اسـبانيا عـن هـذه المنطقـة إلا مكرهـة، "كمـا أنهـا لـم تتنـازل عـن منطقـة إيفنـي إلا بعـد حـرب محليـة، وكـذلك طرفايـة بعـد سـنوات مـن التماطـل والتفـاوض، والضـغط، والملاحقـة مـن المغـرب، وامتنعـت فيمـا بعـد مـن التخلـي عـن السـاقية الحمـراء ووادي الـذهب، وضـربت عـرض الحـائط بكـل مطالـب المغـرب وقـرارات هيئـة الأمـم المتحـدة فـي تصـفية الاسـتعمار..."[23] ولـولا الموقـف الحـازم للمغـرب وتنظيمـه المسـيرة الخضـراء لمـا تمكـن مـن اسـترجاع صـحرائه الغربيـة، لأن "فرانكـو لـم يكـن إلا مخادعـا ومتلاعبـا مـن البدايـة إلـى النهايـة بالنسـبة للمغـرب والمغاربـة سـواء فـي عهـد الاسـتعمار البائـد أو فـي عهـد الاسـتقلال الوطني"[24].

رابعـا: لـم يسـتوعب المتعـاطفون مـع الانظمـة الشـمولية "أن الفاشيسـت كـانوا أعـداء شـعوبهم فضـلا عـن شـعوب أخـرى، وأنهـم يصـطادون فـي كـل مـاء عكـر، ويطمعـون فـي الاسـتيلاء علـى الشـعوب المستضـعفة، وسـلب حقوقهـا وحرياتهـا، ونهـب خيراتهـا وثرواتهـا، وفعـلا ابتليـت المنطقـة الشـمالية بالسـيطرة الفرانكويـة كمـا انضـافت إليهـا الهيتليريـة والفاشيسـتية، فتكـون ثـالوث الشـر والطغيـان بين حلفاء العنصرية، العبودية واللصوصية في العالم"[25].

إن تشـبع محمـد حسـن الـوزاني بقـيم الديمقراطيـة الليبراليـة الحقـة واعتمـاده علـى المرجعيـة الكونيـة لحقـوق الانسـان، جعلانـه يـدين التـواطئ الحاصـل بـين ألمانيـا النازيـة واسـبانيا الفرانكويـة مـن أجـل اسـتغلال معـادن الشـمال المغربـي وتـرويج "الدعايـة المضـادة للجـنس السـامي، والمحرضـة علـى المجـازر فـي صـفوف اليهـود كـأن المغاربـة ليسـوا سـاميين أولاهـم لهـم إلا تنفيـذ المـؤامرات لـذبح اليهـود واستئصـالهم كمـا كانـت تفعـل النازيـة فـي أوربـا"[26] والجـدير بالـذكر أن مواكبـة محمـد حسـن الـوزاني لتفاصـيل الحيـاة السياسـية فـي المغـرب وفرنسـا، جعلتـه يكتشـف أن تـأثير الدعايـة النازيـة كان بالغالب لدى الأوساط الاستعمارية اليمينية التي تبت صحفها شعارات عنصرية حاقدة.

Comment [I16]:
Comment [I17]:
Comment [I18]:
Comment [I19]:
Comment [I20]:

---

21. لمزيد من التفاصيل حول الدور الذي قام به الوزاني لاحباط المخطط الاسباني, راجع نفس المرجع, ص. 238
22. نفس المرجع, ص. 239
23. نفس المرجع أعلاه
24. نفس المرجع
25. نفس المرجع, ص.244
26. نفس المرجع, ص. 245

أمـا الحركـة الوطنيـة المغربيـة، فإنهـا "لـم تتـأثر قـط بالـدعايات الاجنبيـة المحرضـة، ولـم تغتـر بوعودهـا الكاذبـة، ولـم تنخـدع لمناوراتهـا المكشـوفة، بـل احتفظـت بنقاوتهـا وسـلامتها، وتمسـكت باسـتقلالها وحريـة عملهـا..."[27] وممـا لاهـراء فيـه أن هـذه الاسـتقلالية فـي تقـدير الامـور السياسـية، هـي التـي جعلـت الـوزاني يـدين التصـور الارادوي للوحـدة العربيـة الـذي تبنتـه العديـد مـن التيـارات القومية.

Comment [I21]:

Comment [I22]:

3-إدانة التصور الارادوي للوحدة العربية

إذا كـان محمـد حسـن الـوزاني قـد سـعى إلـى كسـب تعـاطف الاقطـار العربيـة مـع نضـال الشـعب المغربـي مـن أجـل نيـل الاسـتقلال الـوطني، فإنـه كـان واعيـا بمحدوديـة دور جامعـة الـدول العربيـة وحريصـا علـى اسـتجلاء الطـابع الرومانسـي لشـعار الوحـدة الـذي رفعـه المناصـرون والبعثيـون فـي المشـرق. فخلافـا لـبعض القـادة المتفـائلين الـذين اعتقـدوا أن إمضـاء ميثـاق الجامعـة العربيـة يـوم 22 مـارس 1945 مـن طـرف حكومـات الاقطـار المشـرقية المسـتقلة" جعـل مـن الوحـدة العربيـة "حقيقـة واقعيـة"[28]، فـإن محمـد حسـن الـوزاني أدرك بحسـه الـواقعي طبيعـة المعوقـات التـي تحـول دون إنجـاز ذلـك. ففـي مقالـة لـه بصـحيفة "الـرأي العـام" بتـاريخ 24 مـارس 1950، أمـاط محمـد حسـن الـوزاني اللثـام عـن الخلـل البنيـوي الـذي يحـول دون اضـطلاع الجامعـة العربيـة بمسـؤولياتها والمتمثلـة أساسـا فـي توحيـد السياسـة الداخليـة والخارجيـة لمواجهـة الخطـر الاجنبـي وابعـاد شـبح الصـهيونية عـن فلسـطين، ولقـد سـجل بمـرارة أن جامعـة الـدول العربيـة قـد أخفقـت إخفاقـا مريعـا لكـون "الأهـواء والأصـابع الأجنبيـة لعبـت دورهـا" وحولـت الجامعـة عـن خطتهـا, فأصـبحت الهيئـة فـي أيـدي الإنجليـز, ومطيـة فـي تحقيـق سياسـتهم فـي الـبلاد العربيـة..."[29] هـذا التشـخيص الـدقيق لمصـدر الـداء فـي الجسـم العربـي يفسـر لحـد كبيـر سلسـلة النكبـات التـي ذهبـت ضـحيتها الشـعوب العربيـة لاحقـا. فشـكل الوحـدة العربيـة الـذي اختارتـه بريطانيـا كـان يهـم أساسـا الأنظمـة التـي تـدين لهـا بـالولاء وتسـاعدها علـى مواجهـة أعـدائها فـي الشـرق الأوسـط, ولـم يكـن منبثقـا قـط عـن إرادة شـعوب المنطقـة التـي تتـوق لشـكل متقـدم مـن الوحـدة السياسـية التـي تضـمن الحضـور الـراهن للعـرب علـى المسـرح الـدولي. أمـا عنـدما تبلـور هـذا الـوعي جنينيـا فـي أواسـط الخمسـينيات مـن القـرن الماضـي فـإن الوحـدة العربيـة ابتليـت بمـرض عضـال لازالـت تعـاني مـن ويلاتـه وهـذا المـرض مصـدره الرومانسـية السياسـية لـبعض الزعمـاء العـرب الـذين اعتقـدوا أن الوحـدة السياسية بين الأقطار العربية رهينة بإرادة زعيم ملهم.

Comment [I23]:

Comment [I24]:

---

[27]. نفس المرجع , 245

[28].علال الفاسي : " الحركات الاستقلالية في المغرب العربي, الطبعة الرابعة –مطبعة الرسالة 1980, ص.417

[29]. محمد حسن الوزاني :"حرب القلم" -4- 1983, ص 245

على النقيض من هذا التصور الإرادوي, اعتبر محمد حسن الوزاني أن بلدان العرب ليست سهلة التوحيد, بسبب واقع الاختلاف الذي يحكم الدول التي نشأت في ظلها. صحيح أن تمايز هذه الدول, "لا يمنع أن ترتبط أجزاء العالم العربي بروابط شتى تهدف إلى التقارب, والتفاهم والتعاون والتساند في سبيل المصالح المشتركة" لكن شريطة نبذ الأساليب العاطفية والمبادرات الارتجالية التي ميعت مشروع الوحدة العربية وكمثال عن ذلك, يذكر الوزاني تجربة الوحدة بين مصر وسوريا في إطار ما سمي ب"الجمهورية العربية المتحدة".

فإنكار واقع الاختلاف بين البلدين, جعل المتحمسين للوحدة يختارون نمط الإندماج بين سوريا ومصر دون مراعاة منهجية التدرج أبو فضيلة التروي في اتخاذ القرارات المصيرية. وهذا ما يفسر إخفاق هذا المشروع الوحدوي مع كل ما تولد عنه من حزازات وأجواء مسمومة في العالم العربي[30]. و مما زاد الطين بله هو التهافت المجموع بين الناصريين والبعثيين من أجل كسب الأنصار والأشياع دون الإلتفات إلى حجر الزاوية في كل مشروع ناجح للوحدة السياسية: الديمقراطية الليبرالية. فالشرط الوجودي لكل مشروع يروم الائتلاف في إطار كنفدرالي أو فدرالي, هو قدرة الشعوب على إصلاح طرق تدبير شؤونها والبرهنة على حيويتها في مواجهة كافة أشكال التسلط والفساد السياسي. وإن أول ماتؤمله الشعوب من قيام قيادة صالحة فيها أن يرفع عن حياتها كل سلب وتحكم وكل زيد وبهتان وكل تخدير وتجميد، وأن تسترجع ماسلب منها بأشياء ما أنزل بها من سلطان، وأن تعود بنفسها إلى حياة (عادية) سليمة من حيث النظام، والتدبير والتوجيه، فإذا تم لها كل هذا –نتيجة إصلاح القيادة وعودة الأمر إلى كل شعب في بلدة– توفرت على وسائل القوة والتقدم والعزة والنجاح، واستطاعت أن تصبح من الشعوب الحية التي تفرض احترامها على الغير، ويحسب لوجودها كل حساب"[31].

Comment [I25]:

إن الحاح محمد حسن الوزاني على اعتبار النهج الديمقراطي الليبرالي، باعتباره الاختيار الحليم لإنجاز تنسيق بين الكيانات الوطنية العربية، نابع من وعيه العميق بالإحباطات المتناسلة التي عانتها الشعوب العربية من جراء الانقلابات العسكرية والنزعات الهيمنية المتسترة وراء شعارات القومية الزائفة أو الاشتراكية الديماغوجية. ولقد أبرز محمد حسن الوزاني تهافتا الأطروحات الوحدوية التي تريد توريط المغرب في الصراعات العميقة لأقطار المشرق العربي. ذلك أن المغرب لايشبه تلك الأقطار في أوضاعها، واضطراباتها وخلافاتها، فهو محرر من كل هذا، وحريص أشد الحرص على أن يبقى بعيدا عن الزج بنفسه في مشاكل

Comment [I26]:

[30]. حرب القلم" -2- ص.259- 261
[31]. نفس المرجع أعلاه -1-ص.-212-213

وخلافات، ومؤامرات ليس فيها أدنى خير للعرب ولا أقل نجاح للعروبة ووحدتها اللتين باسمهما وتحت ستارهما تراد وتدبر السيطرة لبعض الأقطار والأحزاب، والأشخاص فيها لأقل ولا أكثر، فكل هذا ليس بسر حتى ينخدع له المغرب، ويقع في شبكته، ويتخبط في ورطته، وكهذا فمن الخير لنفسه وللعروبة ذاتها أن يحتفظ بحريته ويحافظ على سيادته، ويبتعد باستقلاله عن كل خطر وأذى وهكذا يمكن للمغرب أن يكون حسن الصلة بجميع الدول العربية، وإذا وجد بين قادة بعضها من يضمرون للمغرب مكروها فليعلموا أنهم مخطئون وفي مسعاهم خائبون، وأن المشرق مشرق، والمغرب مغرب فلا يلتقيان إلا في دائرة التعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، ومما نريد إفهامه لأولئك القادة أن التحرر كما ندركه على حقيقته ونريد أن يطبق على عرب المشرق والمغرب ليس هو فرض الدكتاتوريات السافرة، أو المقنعة، وإقامة منظمة الحزب الوحيد، وتنصيب الأشخاص في مراكز الحكم والسيطرة، واستبعاد الشعوب باسم الحرية الزائفة، والتحرر المزعوم"[32]. لقد رفض الوزاني كل توحيد للأقطار العربية عن طريق الضم القسري أو التعبئة العمياء لقطب من الأقطاب المتناحرة في المشرق العربي. ذلك "أن العروبة لبست ملكا لأحد من عرب المشرق أو لأي واحد من قادته، ولو كان هو الرئيس جمال عبد الناصر أو الرئيس عارف، أن يستأثر بفكرة العروبة وبالوحدة العربية وأن يستمد بهما ويحتكرهما دون العرب الآخرين، فالعروبة مشاعة بين جميع عرب المشرق والمغرب، والوحدة العربية ليست تهم فريقا منهم دون فريق ولايمكن أن تفرض أحدهما على الثاني بل يجب أن تكون الوحدة العربية من تفكير، وتنظيم وتسيير الجميع حتى تكون سليمة، وصحيحة ومجدية، والمغرب الأقصى الذي يعتز بعروبته، ويعتد بشخصيته لايقبل مطلقا أن ينساق أو يساق إلى أية وحدة –في الحاضر أو المستقبل من غير أن يكون من مؤسسها الأولين، ومن أعضائها البارزين، ومن قادتها المسيرين، وبعبارة أخرى لآيقبل وطننا أن يكون منظما، وتابعا، ومسخر لأية مجموعة كبرى أو صغرى، والمغرب بهذا إنما يسير سيرا يتفق مع أمجاد التاريخية، ومع مقومات شخصيته القوية والذين يجهلون أو يتجاهلون هذه الحقيقة في المشرق إنما يرتكبون خطأ الفهم، والإدراك والتقدير من حيث يشعرون أو لآ يشعرون"[33] ولق أصاب محمد حسن الوزاني عند تشخيصه للآنحرافات التي ابتليت بها السياسة العربية خلال عقد الستينات من القرن الماضي، ولعل أبشعها انشغال القادة بحبك المؤامرات بعضهم ضد البعض الآخر والتخطيط لقلب أنظمة الحكم القائمة. وبهذا الخصوص يسكك الوزاني عن الفائدة التي يتوخاها بعض قادة المشرق من إثارة الفتنة

Comment [I27]:

[32]. نفس المرجع -2- ص.302-303
[33]. ننفس المرجع, ص. 306-307

والاضطراب في الأقطار المغربية وكذلك اللافريقية، ويتساءل متهكما عن إمكانية توظيف مهارات التآمر ضد الأعداء الحقيقيين." أليس جديرا بتلك العناصر أن تستعمل براعتها ومهارتها تجته كل دولة تناوئ العالم العربي في الشرق ذاته وتستفيذ من كل مامن شأنه أن يفرق كلمة العرب. ويفت عضدهم، ويسلط بعضهم على بعض ويجعلهم أحيانا شرا على أنفسهم من ألذ الخصوم والأعداء؟[34]

لقد كانت لمحمد حسن الوزاني الشجاعة السياسية الكافية لشجب النزعة المغامرة لبعض قادة المشرق العربي الذين أوهموا شعوبهم بأن قضية الوحدة العربية يمكن اختزالها في خطب رنانة وانقلابات عسكرية تدبر باسم شعاراتجمهورية وهمية ووعود اشتراكية معدودة.

أما واقع الحال، فهو استنساخ تجارب فاسدة على الصعيدين الداخلي والخارجي. هذا ماجعل السياسة الخارجية لهذه الأنظمة تتسم بالعدوانية تجاه الأشقاء وتعتمد كافة الأساليب الملتوية للحيلولة دون تحقيق المطالب المشروعة. ولعل أبرز مثال يجسد هذه الطبيعة العدوانية، هو السياسة الخارجية للجزائر منذ حصر لها على الاستقلال والتي استهدفت دوما مصالح المغرب وسعيه الدؤوب من أجل استرجاع وحدته الترابية.

Comment [I28]:

4 – رصد الطبيعة العدوانية للسياسة الخارجية للجزائر

لقد فطن محمد حسن الوزاني، أن ثوابت السياسة الخارجية للجزائر تجاه المغرب، انتهاج موقف العداء لكل قضاياه المشروعة من الوجهة الفعلية. فالقادة الجزائريون لايترددون في المجاهرة بالكلام المعسول عندا يتعلق الأمر بكساد المغرب، أما عندما تحن ساعة الحسم في القضايا العالقة فإنهم يعاكسون حقوقه بشتى الوسائل المكيافيلية. ولق تجلى ذلك بكيفية لأمراء فيها بخصوص مسألة الحدود المغربية الجزائرية وقضية الصحراء الغربية فبشأن مسألة الحدود، بعد تذكير الوزاني بالتضحيات التي بذلها المغرب من أجل دعم استقلال الجزائر وما يفرضه ذلك من اعتراف بالجميل من طرف قادتها، أبرز تمسك هؤلاء بالنهج الذي اعتمده حكام الجزائر إبان الاستعمار مخططاتهم الدائمة للنيل من السيادة المغربية على الأقاليم الشرقية – الجنوبية التي ارتبط سكانها بميثاق البيعة للسلاطين المغاربة.

ولقد أوضح محمد حسن الوزاني مدى بقاء القادة الجزائريين أوفياء للروح التوسعية للاستعمار وتشبثهم "بالانجازات" التوسعية لفرنسا على حساب المغرب، هو رفضهم تصفية مسألة الحدود المغلقة بكيفية سامية عن طريق المفاوضات أو الوساطة والمساعي الحميدة التي قامت

[34]. نفس المرجع, ص.310.

بهـا بعـض الـدول الأفريقيـة "فـأظهر المسـؤولون فـي الجزائـر غـداة الاسـتقلال كـل امتنـاع مـن بحـث مسـألة الحـدود، مخـالفين بهـذا مـا وقعـوا عليـه، زمـن حـرب التحريـر، مـن مواثيـق واتفاقـات، ونـاكثين كـل مـا التزمـوا بـه وقتئـذ، رسـميا وكتابـة مـن وعـود وعهـود، بـل تجـاوزا هـذا كلـه إلـى مـاهو أشـد وأخطـر، وهـو الاسـتيلاء علـى منـاطق التخـوم المغربيـة التـي اغتصـبها الاسـتعمار وضـمها إلـى الجزائـر طـوال مـدة سـيطرتها عليهـا وإلحاقهـا بـالتراب الفرنسـي كجـزء لايتجـزأ منه..."[35].

ولعـل مـا أثـار حفيظـة محمـد حسـن الـوزاني بهـذا الشـأن، هـو أسـلوب سياسـة الأمـر الواقـع الـذي انتهجـه الـرئيس هـواري بومـدين وذلـك بإقدامـه علـى تـأميم المنـاجم المستكشـفة فـي منطقـة تنـدوف (غـارة جبـيلات) قبيـل اجتمـاع لجنـة التحكـيم التابعـة لمنظمـة الوحـدة الإفريقيـة التـي عهـد إليهـا بفض نزاع الحدود بين المغرب والجزائر.

"وإذا كانـت الحكومـة المغربيـة قـد احتجـت بواسـطة منـدوبها لـدى حكومـة الجزائـر علـى ذلـك التـأميم فـإن المسـؤولين الجزائـريين لـم يعتبـروا هـذا الاحتجـاج حيـث أن أحـدهم صـرح اذاك رسـميا بـأن معـادن تنـدوف تـدخل فـي ثـروات بـاطن التـراب الجزائـري، وأن اتفـاق المغـرب مـع الجزائـر علـى إسـناد نزاعهمـا إلـى لجنـة التوفيـق التابعـة لمنظمـة الوحـدة الإفريقيـة لايمـس –فـي نظـر الجزائر– بوحدة ترابها.

وأغـرب مـن هـذا أن الـرئيس الجزائـري بومـدين صـرح فـي نفـس الوقـت لمنـدوب الحكومـة المغربية بأن بلاده مصممة على عمل كل مامن شأنه أن يقوي روابطهما الأخوية بالمغرب...

وهكـذا نـرى الجزائـر تطبـق فـي سياسـتها تجـاه المغـرب المثـل العربـي القائـل: "فـم يسـبح ويـد تـذبح" وقـول كالعسـل وفعـل كـالا سـال. فمـن جهـة تسـتولي الجزائـر علـى أطـراف ومنـاطق صـحراوية مغربيـة بمـا فيهـا مـن خيـرات وثـروات، ومـن جهـة أخـرى تتحـدث المغـرب بلغـة العواطـف المزعومة، والتطمينات الخيالية، والوعود الرخيصة"[36].

إن أنجـع السـبل لمواجهـة هـذه السياسـة الحربائيـة –حسـب محمـد حسـن الـوزاني– هـوة نبـذ التوكـل والانتظـار وتسـلح المغـرب بـالحزم الضـروري فـي مواجهـة دولـة "أصـبحت بحـق الوراثـة

[35]. نفس المرجع , ص. 301
[36]. حرب القلم" -1- ص.399- 400

الشرعية للاستعمار الفرنسي وخلقه الطبيعي في كل ماسلبه واغتصبه واستولى عليه من أراض مغربية زمن الاحتلال والسيطرة سواء الجزائر أو المغرب"[37].

أما بالنسبة لقضية استرجاع المغرب لصحرائه الغربية، فإن محمد حسن الوزاني كان من الباقين لفضح الدور التآمري للجزائر واقتراح الوسائل القمينة بإفشال مخططاتها المعادية للمغرب. ولذلك رفض الوزاني أصلا فكرة تنظيم استفتاء لتقرير المصير في الصحراء الغربية والذي كانت تستهدف من ورائه إسبانيا والجزائر إضفاء الشرعية على فصل الصحراء عن المغرب باسم ممارسة تقرير المصير. ولق صرح الوزاني بموقفه هذا في عدة مناسبات، داعيا المسؤولين إلى التخلي عن سياسة التساهلات والتنازلات، التي تشجع الطامعين على المزيد ومن أجل هذا يتعين عليهم أن يضعوا المصلحة الوطنية فوق كل الاعتبارات وينبذوا "كل سياسة متسمة بالعواطف، والمحاملات، والأوهام والخيالات، هي سياسة قام البرهان على فسادها وخطرها، ومن تلك السياسة خرافة مايسمى "المغرب العربي" الذي كان ورقة خاسرة بالنسبة لنا، ورابحة بالنسبة للجزائر..."[38]

ولقد كان محمد حسن الوزاني محقا في تشخيصه للوضع آنذاك، لأن شعار الوحدة المغاربية تم توظيفه حصرا من أجل تعطيل مسلسل استكمال المغرب لأقاليمه المغتصبة، بل إن بريقه ضلل بعض القادة المغاربة وجعلهم يسقطون في شراك الخطة الجزائرية التي أغرقت مشكلة الحدود في الخلاف العقائدي بين النظام الجزائري "الثوري الاشتراكي" والنظام المغربي "الرجعي الرأسمالي".[39]

لذلك لم يتردد الوزاني في فضح الترهات التي صرح بها الرئيس بومدين عن تناوله لقضية الصحراء الغربية. فبموازاة تأكيده على تمسك الجزائر بحق الاستفتاء لتقرير المصير في الصحراء، زعم أن بلاده "مستعدة للشرع فورا في مسطرة توحيد الأقطار المغربية باسم مغرب الشعوب وابتداء من الغد"[40].

ولقد أدرك الوزاني جليا خلفيات هذه المزاعم ومراميها الحقيقية، باعتبارها أن هدف بومدين هو ضمان سيطرة الجزائر على جيرانها ولذلك عرقل كل مساعي الاتحاد بين ليبيا وتونس،

---

[37]. نفس المرجع, ص.401

[38]. نفس المرجع, ص 426

[39]. يتعلق الأمر بالسيد المهدي بن بركة و السيد حميد برادة, اللذين ساندا علانية الموقف العدواني للجزائر و طالبا بإسقاط النظام الملكي في المغرب, الأول انطلاقا من القاهرة و الثاني من العاصمة الجزائر

Annuaire de l'Afrique du Nord, V.II, 1963, p.336-337.

[40]. حرب القلم " -1- ص.439

وأمعن في التآمر مع الاستعمار الاسباني لمعاكسة المطالب المغربية مع سعيه الحثيث لإحباط كل تفاهم وتضامن بين المغرب وموريتانيا[41] انطلاقا من الإقرار بهذا النهج العدواني الذي تنهجه الجزائر تجاه المغرب، من أجل فرض زعامة تسلطية، طالب محمد حسن الوزاني باعتماد الملك خطة للمواجهة تضع حد لكل التباس بشأن عزم المغرب على نيل حقوقه المشروعة، وتتمثل هذه الخطة التي حدد مضمونها في سلسلة من الوسائل التي وجهها لرئيس الدولة في الإقدام على المبادرات التالية:

1- إلغاء اتفاق أفراد وما أعقبه من اتفاقات تلمسان، والمحمدية،، والرباط إن كان فيها أدنى مساس بالمغرب ووحدته الترابية[42]

2- إعلان عزم المغرب على استرجاع جميع ما انتزعه الاستعمار الفرنسي زمن سيطرته على الجزائر وألحقه بترابها تسلطا وعدوانا،والصحراء الشرقية لاتقل أهمية وحيوية عن الصحراء الغربية.

3- نشر خريطة المغرب في حدوده الأصلية التاريخية الحقة[43].

4- إبلاغ سكان المناطق الصحراوية المغتصبة عزم المغرب على تحرير أراضيهم وإعادتها إلى أم الوطن مهما كلف الأمر من جهود وتضحيات.

5- الاستعداد بكل الوسائل لفتح الملف الترابي مع حكام الجزائر بعد تصفية قضية الصحراء الغربية وغيرها من الأجزاء المحتلة من الاستعمار الإسباني.

وليس من قبيل المبالغة الإقرار بأن اعتماد هذه الإستراتيجية المرتكزة على أسس عقلانية، مكنت المغرب جزئيا من استرجاع صحرائه ولازالت تكتسي أهمية راهنيه في ظل التعنت الجزائري وتحريضه على رفض مقترح الحكم الذاتي الذي تقدم به المغرب. وهذا ملا تنبأ به محمد حسن الوزاني عند تحديده لطبيعة التحديات التي يواجهها المغرب. لقد اعتبر أن مسألة التحرير الوطني واستكمال المغرب لوحدته الترابية مسألة لايمكن حلها بواسطة الدبلوماسية فقط إنما بتعزيز القوة العسكرية للمغرب أيضا.

"ولهذا يجب على المغرب أن يتوفر على كل القوة التي تمكنه من خوض معركة المصير والفوز فيها بتحرير ترابه السليب، وبتوحيد مع الوطن المحرر بالرغم عن كل شيء وكل واحد"[44].

---

[41]. نفس المرجع أعلاه

[42].معاهدة افران المؤرخة في 1969/01/15 و بلاغ تلمسان المشترك في 27 مايو 1970 و محادثات المحمدية و أوفاق الرباط في 15 يونيو 1972 التي لم يصادق عليها المغرب

[43]. حرب القلم -1- ص.451

[44]. نفس المرجع, ص.427